الجمهورية اللبنانية

منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة

دار الكتب

خزائن الكتب العربية في الخافقين

بقلم

الفيكنت فيليب دي طرازي

مؤسس دار الكتب اللبنانية

والعضو في عدة مجامع علمية شرقية وغربية

027
T19kA
V.3
C.1

الجمهورية اللبنانية

منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة

دار الكتب

خزائن الكتب العربية في الخافقين

بقلم

الفيكنت فيليب دي طرازي

مؤسس دار الكتب اللبنانية

والعضو في عدة مجامع علمية شرقية وغربية

78245

المجلد الثالث



شعوب الارض شرقاً وغرباً دون جدال . بل كل من اطلع على تلك الكنوز النادرة والمخطوطات الفاخرة في المعارض التي تقيمها دار الكتب المصرية او متاحف الغرب حولاً بعد حول يشهد لحفدة عدنان بسلامة الذوق وبراعة الفن في ما خلّفوه من الآثار الكتابية الجليلة الشأن والمنقطعة القرين .

ليست جميع المخطوطات العربية في درجة واحدة من الاعتبار والنفاسة . بل يختلف اعتبارها اختلاف ما تحلت به من المزايا المرغوب فيها كثيرة كانت ام قليلة . وبالرغم من انتشار المطابع في الخافقين فان منزلة المخطوطات الثمينة لا تزال معززة لدى اهل المعرفة وذوي الخبرة والاختصاص . ولاجل ذلك نرى الحكومات الراقية والمعاهد العلمية ودور الكتب العامرة فضلاً عن الافراد يعتني كل منها عناية عظيمة باقتناء تلك الكنوز ويحرص عليها اشد الحرص .

٢ ـ اهم مزايا المخطوطات العربية

للمخطوطات العربية مزايا كثيرة يصعب احصاؤها بل يطول سردها في هذا البحث المختصر . لأن العرب تفوقوا على جميع الشعوب الراقية باساليب الكتابة فكان لهم القدح المعلى في اتقان المخطوطات وتنميقها وتجويدها وترصيعها . ولأجل ذلك لم يدعوا فناً من فنون الظرافة والزخرفة والابداع الا استعملوه في هذا السبيل . واخص ما يراعى عندهم من المزايا في المخطوطات ينحصر في ما يلي :

اولاً : ان يكون المخطوط قديم العهد ومكتوباً باحد الاقلام القديمة كالخط الكوفي مثلاً والخط البغدادي والخط الافريقي او القيرواني والخط الاندلسي (١) والخط الريحاني والخط اليماني (٢) والخط المزركش وما شاكلها من الخطوط . واغلى المخطوطات وافضلها واندرها ما كان منها متصلاً بالقرن الثاني عشر للميلاد او السادس للهجرة او قبلهما .

---

(١) رسالة الخط تاليف الشيخ احمد رضا العاملي : صفحة ٢٠ وكتاب «زبدة الصحائف في اصول المعارف» : صفحة ١٢٥

(٢) كتاب «ماضي النجف» : صفحة ١٠٠

ثانيـاً : ان يكون المخطوط مجوّداً واضح الكتابة كامل الصفات لا يعتوره خلل او خرم او حك او تشويه او نقص من اوله الى آخره .

ثالثـاً : ان يكون المخطوط مشهوداً له بالضبط والدقة من مؤلفـه نفسه او من احد انسبائه الادنين او من احد العلماء المحققين .

رابعاً : ان يكون اسم المؤلف مدوّناً في المخطوط مع اسم الناسخ واسم الواقف واسم المطالع ولا سيما اذا كان هذا المطالع من مشاهير العلماء والعظماء . وتزيد قيمته اذا دوّن فيه الناسخ ما يأتي : اولاً ـ تاريخ اليوم والشهر والسنة للفراغ من كتابة المخطوط . ثانياً ـ مكان كتابته . ثالثاً ـ اسم الخليفة او السلطان او البطريرك او الرئيس الذي نجز في عهده تأليف الكتاب او نسخه .

خامساً : ان يكون المخطوط مدبّجاً بحواش وهوامش وتعاليق اثبتها المؤلف بخط يده. او دوّنها كبار العلماء او الملوك او طالعها اعلام مشاهير او قرئت عليهم واجازوها .

سادساً : ان يكون المخطوط حسن التبويب والترتيب بديع الخط جيّد الحبر مكتوباً على رق او بردي او حرير او كتان او قرطاس ثمين او ورق سمنجوني او اوراق شجرية او ما شابهها .

سابعاً : ان تكون مدّونة فيه شروح واضافات وتصحيحات وفوائد لا توجد في سواه من الكتب المخطوطة او المطبوعة .

ثامناً : ان يكون مكتوباً بخط احد مشاهير النساخ كابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصمي وبعض من سيأتي ذكرهم في غير هذا الفصل.

تاسعاً : ان يكون بحث المخطوط مبتكراً لم يتصدّ له مؤلف قبل مؤلفه. او ان يكون موضوعه نادراً وذا فائدة كبرى لعلماء ذلك البحث.

عاشراً : ان يكون المخطوط متقن التجليد ومحفوظاً في قمطر بديع الشكل قد صُنِع خصيصاً له . ويُستَحسَن ان يكون القمطر مرصعاً وطرازه شرقياً .

حادي عشر : ان يكون المخطوط مزيناً بالرسوم الرائعة او موشّى بالذهب والفضة او منمّقاً بالالوان الزاهية او متفرداً بمزيّة لا اثر لها في سواه .

تلك مزايا يُستحب ان تتحلى بها المخطوطات تعزيزاً لقيمتها الاثرية وتمييزاً لها عن المطبوعات . وما هدفنا في اثبات المزايا المذكورة الا لتتخذ دستوراً يعتمد عليه عشّاق المخطوطات ويعمل به خزنة المكاتب. فمتى اجتمعت هذه الأوصاف كلها او بعضها في كتاب مخطوط وجب احرازه والتبـــاهي به والحرص عليه من التلف والفقدان وتزيين خزائن الدور والقصور به وبأمثاله . ففي مخطوطٍ كهذا يصدق بلا ريب قول الشاعر :

هذا كتاب لو يباع بوزنه ذهباً لـكان البائع المغبونا
أو َما من الخسران أنك آخذ ذهباً وتترك جوهراً مكنونا

الفصل الثاني

الوراقة والورّاقون

١ - اختلاف اساليب الوراقة عند الامم القديمة

الوراقة هي حرفة الورّاق او صناعة الورق . والورق كما قال بعضهم لا أثر له في الكلام العربي القديم. لكنه اسم لجلود رقاق يُكتَب فيها. ولفظه مستعار من ورق الشجر (١) . ولم يعرف العرب الوراقة الا منذ منتصف القرن الثامن للميلاد كما سترى . اما الامم القديمة التي سبقت العرب فكانت متفاوتة الاساليب في الوراقة يختلف بعضها في ذلك عن البعض الآخر .

من المقرر ان الفونيقيين سبقوا جميع الامم في استنباط حروف الكتابة فكتبوها اولاً على جذوع البردي الذي استحضروه من مصر . لانهم لاقوا في ذلك اسهل الذرائع لضبط دفاترهم وفذالك حساباتهم وسفاتج بيعهم وشراهم وسندات دفعهم وقبضهم (٢) . واستعمل الفونيقيون كذلك اصناف الكتّان وضروب الرقوق فدوّنوا عليها كتاباتهم .

وغير خافٍ ان اليونان انما تعلموا الكتابة من الفونيقيين . واتخذوا لها ورقاً نقله اليهم تجار فونيقيون من بيبـــلوس (جبيل) . ولذا اطلقوا على الورق اسم « بيبلوس » وسموا ما كتبوه على الورق « بيبليا » . ومن لفظ « بيبليا » اتخذ الفرنج

---

(١) معجم اقرب الموارد : لسعيد الشرتوني : صفحة ١٤٤٥

(٢) المشرق : مجلد ٩ سنة ١٩٠٦ صفحة ٨٥٢

عموماً لفظ « بيبل Bible » عنواناً للكتاب المقدس كما اتخذوا لفظ « صيني » للصحون الخزفية لانها وردت في اول امرها من الصين (١) .

واستعمل الآراميون قلم الحبر فدوّنوا به كتاباتهم على ملف البردي . ودوّنها الآشوريون على الآجر بقلم قصب (٢)

اما اليهود فقد تلقنوا الكتابة عن الفونيقيين كما اتخذوا حروفهم عن الآرامين . فكتبوا ما كتبوا على ألواح خشب وعلى حجر ولبن وعلى صفائح معدنية كالرصاص والحديد والبرونز والنحاس . واستعملوا ايضاً الجلود والاقمشة والرقوق في كتاباتهم (٣) ولعلّهم اتخذوا البردي للكتابة كسائر الشعوب القديمة. لانهم عرفوه في مصر واستعملوه في بعض حاجاتهم . يثبت ذلك ما ورد في سفر الخروج عن ام موسى الكليم فانها اخذت قفة من البردي وطلتها بالحمّر والزفت وجعلت فيها طفلها موسى (٤) . وذكر البردي ايوب الصديق هكذا : « هل تخضرّ الحلفاء . . . او ينبت البردي حيث ليس مياه » (٥) . وكتب اشعيا النبي عن البردي قوله : « الذي يرسل الرسل في البحر وفي زوارق من بردي على وجه الماء » (٦) .

وكان اهل الصين يكتبون في ورق يصنعونه من حشيش او كلأ. وعنهم اخذ الناس بتوالي الازمنة يتفننون في تلك الصناعة حتى عمّ استعمالها شرقاً وغرباً . واتخذ الهنود خِرَق الحرير الابيض لكتاباتهم .

اما الفرس فكتبوا على جلود مدبوغة كجلود الجواميس والبقر والغنم وما

---

(١) العصور القديمة : تاليف الدكتور جايمس : صفحة ٢٠٦ وتاريخ الدول الآرامية السريانية : للخوري اسحق ارملة : مجلد ١ قسم ١ فصل ٥

(٢) العصور القديمة : تاليف الدكتور جايمس : صفحة ١٠٩

(٣) قاموس الكتاب المقدس : للدكتور جورج بوست : مجلد ٢ صفحة ٢٣٩

(٤) سفر الخروج : فصل ٢ عدد ٣

(٥) سفر ايوب : فصل ٨ عدد ١١

(٦) نبؤة اشعيا : فصل ١٨ عدد ٢

شاكلها من جلود الوحش والطير . وكتبوا ايضاً في اللخاف وهي حجار بيض رقاق . وكتبوا على المعادن كالنحاس والحديد وعلى عُسُب النخل وعلى عظم اكتاف الابل والغنم . هكذا اخذ العرب يكتبون اساطيرهم مقلدين الشعوب المذكورة لقربهم منها (١).

٢ ـ صناعة الوراقة عند العرب ونقلهم اياها الى اوروبا

استعمل العرب نسيج الكتّان في كتاباتهم منذ عهد بني امية (٦٦٢ – ٧٤٦ م) بدمشق الشام عاصمتهم واطلقوا عليه اسم «خراساني» (٢) . اما صناعة الورق فقد اجمع المؤرخون على انها وصلت الى العرب سنة ٧٥١ م على ايدي اسرى صينيين سيقوا الى سمرقند . فتعلمها العرب منهم وانشأوا لها مصنعاً في المدينة المذكورة . وفي السنة ٧٩٤ م اقاموا معملاً للورق في بغداد عاصمة بني العباس . ولم يلبثوا ان اسسوا مصانع اخرى للورق في دمشق وحماة وطرابلس ومنبج وطبرية والقاهرة ودمياط وتهامة وشمال افريقيا ومدينة شاطبة وبلنسية وطليطلة في الاندلس .

ويعود الفضل الى العرب ايام عزهم وحضارتهم في ادخال صناعة الورق الى جزيرة صقلية بايطاليا والى فرنسا ومنها الى سائر انحاء اوروبا (٣) . وقيل ان هذه الصناعة اتصلت بالفرنج عن عرب الاندلس فتفننوا فيها واتخذوا لعملها الكتّان بدلاً من القطن (٤) .

اما في مصر فكان الورق المنصوري يصنع في الفسطاط لا في القاهرة (٥) .

---

(١) صبح الاعشى : للقلقشندي : مجلد ٢ صفحة ٤٧٥
(٢) خطط الشام : لمحمد كرد علي : جزء٤ صفحة ٢٤٢
(٣) معجم لاروس الفرنسي
(٤) مختصر القرون المتوسطة : تاليف القس لويس رحماني : باب ٤ فصل ٧ صفحة ٣٩٦
(٥) نفح الطيب : للمقري : جزء ١ صفحة ٤٩٢

ثم انشىء في القـــاهرة نفسها خان اسمه «خان الوراقة» كما روى المقريزي في خططه (١). وحدّث احد علماء حلب ان الورق كان يصنع في حي من احيـائها لم يزل معروفاً حتى اليوم باسم «حي الوراقة» حيث كانت معامل الورق في سالف الزمان (٢).

٣ - تنوع الوراقة وادوات الكتابة

ذهب بعضهم الى ان الوراقة لم تُحصر في صناعة الورق وحدهـــا بل تناولت الاشتغال بالورق وبكل ما يتعلق به من كتابة ونسخ وضبط وصقل وتجليد وبيع كتب الخ. وتتناول ايضاً جميع ما يرافق ذلك من ادوات الكتابة على اختلاف انواعها. واليك اسماء تلك الادوات كما فصلها القلقشندي في «صبح الاعشى» وهي: القلم والدواة والحبر والليقة والسكين والمِقطّ والمِسنّ والمِقلمة والملواق والمرملة او المِتربة والرمل والمِنشأة والمنفذ والملزمة والمفرشة والممسحة والمسقاة والمسطرة والمِصْقَلة.

قال محمد بن شعيب بن سابور: مَثَلُ الكاتب بغير دواة كمَثَل من يسير الى الهيجاء بغير سلاح. ومن أهم ادوات الكتابة القرطاس ويقال له «قَرْطس» ايضاً على ما ورد في الشعر الجاهلي. وجاء ذكر القرطاس في القرآن بقوله: «ولو نزلنا عليك كتباً في قرطاس فلمسوه بايديهم» (٣). وقال ايضاً: «قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدًى للناس تجعلونه قراطيس» (٤).

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: للمقريزي: جزء ٣ صفحة ٣٧
(٢) خطط الشام: جزء ٤ صفحة ٢٤٤
(٣) سورة الانعام: الآية ٦
(٤) سورة الانعام: الآية ٩٣

وأنشد المخيش العقَيليّ النصراني يصف رسوم دارٍ شبّهها بخط الزبور «مزامير داود» على القرطاس قال :

كأنّ بحيث استودع الدارَ اهلُها مَخَطَّ زبورٍ من دواةٍ وقرطسِ

ومن ألطف ما قرأناه عن الدواة قول احمد ابن بنت الاعز (١) :

تعطلتُ فابيضّت دواتي لحزنها ومذ قلّ مالي قلّ منها مدادُها
وللناس مسودّ اللباس حِدادُهم ولكن مبيضّ الدواة حدادها

ومن هذا القبيل ايضاً ما رواه ابو علي البصير الاعمى عن المحبرة قال (٢) :

اذا ما غدتْ طلابةُ العلمِ ما لها من العلم الا ما يخلّد في الكتبِ
غدوتُ بتشميرٍ وجدّ عليهمِ ومحبرتي سمعي ودفترها قلبي

واجاد الحسن بن وهب في ما انشده عن المداد بقوله :

وما شيء باحسن من ثيابٍ على حافاتها سمة المدادِ

ونظم آخر في المداد قوله :

لا تجزعنّ من المداد ولطخهِ ان المداد خلوقُ (٣) ثوب الكاتب

واحسن من كليهما بيتان في المداد ظريفان انشدهما زيد بن الحسن الكندي البغدادي (٥٢٠ – ٥٩٧ ﻫ) وزيد فروخ شاه وهما (٤) :

لامني في اختصار كتبي حبيبٌ فرّقت بينه الليالي وبيني
ليتني قد اطلتُ لكنّ عذري فيه ان المداد انسان عيني

---

(١) فوات الوفيات : لابن شاكر : جزء ١ صفحة ٥٤
(٢) نكات الهميان : صفحة ٧٧
(٣) الخلوق كرسول : ضرب من الطيب مائع فيه صفرة لان اعظم اجزائه من الزعفران
(٤) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١١ صفحة ١٧٥

ومما نُظم في ممسحة القلم بيتان لعبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل وكان وزيراً للملك الافضل قال (١):

ممسحةٌ نهارُها يجنّ ليلَ الظُلَمِ
كأنها من طرفها منديلُ لفّ القلمِ

اما القلم فأشرف آلات الكتابة واعلاها رتبة اذ هو المباشر للكتابة دون غيره . لان غيره من آلات الكتابة يعدّ بمثابة الاعوان والخدم له. وحسْب القلم فخراً ان القرآن اورد ذكره غير مرة كقوله: «ن والقلم وما يسطرون (٢)» . وقوله: «اقرأ وربك الاكرم . الذي علمّ بالقلم (٣)» .

ولله ابو الفتح البستي حيث يقول :

اذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم وعدّوه مما يُكسِب المجد والكرَم
كفى قلمَ الكتّابِ عزاً ورفعةً مدى الدهرِ ان الله أقسم بالقلمْ

ورحم الله امية بن عبد العزيز بن ابي الصلت وهو القائل :

وما مقلّمُ اظفاري سوى قلمي وما كتائبُ اعدائي سوى كتبي

ومن ابدع ما نُظم في الكتب والقلم ايضاً قول احمد بن رضي المالقيّ :

ليس المُدامة مما استريحُ لها ولا منادمة الاوتار والنّغَمِ
وانما لذتي كتبٌ أطالعها وخادمي ابداً في خلوتي قلمي

واثبت ياقوت الرومي في مقدمة كتابه «معجم الادباء» يصف ما سطره فيه من حكم وامثال واخبار واشعار ونثر وآثار وغيرها فتطرق لذكر القرطاس والقلم بقوله (٤) :

---

(١) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير : لابن الساعي الخازن : جزء ٩ صفحة ٢٨
(٢) القرآن : سورة القلم : الآية الاولى
(٣) القرآن : سورة العلق : الآية ٣ و ٤
(٤) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١ صفحة ٨

من كل معنىً يكاد الموتُ يفهمُهُ حسناً ويعبده القرطاسُ والقلمُ

ووصف ابن سناء الملك قلمهُ بهذين البيتين قال (١) :

ولي قلمٌ في أنملي ان هززته فما ضرني الا اهزّ المهنّـدا
اذا صال فوق الطِرس وقعُ صريره فان صليلَ المشرفي له صدى

وانشدَ بعضهم ملغزاً في قلم قال (٢) :

وساكن رمسٍ طعمهُ عند رأسه اذا ذاق من ذاك الطعامِ تكلما
يقوم ويمشي صامتـاً متكلماً ويرجعُ من في القبر منه مقوّما
وليس بحيٍّ يستحقّ كرامـةً وليس بميتٍ يستحقّ الترحّما

وانشد ابو هلال العسكري صاحب الصناعتين يشكو حالته ويلعن القرطاس والحبر والقلم بهذه الابيات (٣) :

اذا كان مالي مالَ من يلقطُ العجمْ وحاليَ فيكم حالَ من حاك اوحجمْ
فاين انتفـاعي بالاصالة والحجى وما ربحت كفي على العلم والحكمْ
ومن ذا الذي في الناس يُبصر حالتي فلا يلعنُ القرطاس والحبر والقلمْ

٤ ـ مشاهير الوراقين

تسهيلًا للاحاطة بجميع اطراف الموضوع الذي نبحثه رأينا ان نثبت في هـذا الفصل اسماء بعض مشاهير اهل الوراقة وما تفرع منهـا . فقد برّز في عهد حضارة العرب رجال برعوا بحرفة الوراقة التي راجت اسواقها في العراق وسوريا ومصر

(١) جريدة منبر الشرق : لعلي الغاياتي في القـاهرة : مجلد ٢٠ سنة ١٩٤١ عدد ١٤٨ صفحة ٧

(٢) مجاني الادب : للاب لويس شيخو : جزء ٢ صفحة ١٤١

(٣) بغية الوعاة : لجلال الدين السيوطي : صفحة ٢٢١

والغرب وبلاد الاندلس . وارتقت الوراقة قديماً بعناية العرب حتى صارت منتوجاتها تباع في اقطار ما بين النهرين وايران والهند وغيرها .

ومن اقدم الورّاقين واشهرهم نذكر : سليمان الورّاق ومحمد بن عمر الورّاق وكلاهما من علماء القرن الثاني للهجرة (١) . وفي اوائل القرن الثالث عاش سلمة الوراق وابو نصر الوراق (٢) . ومحمد بن يوسف الوراق القيرواني ولد سنة ٢٩٢ للهجرة وألف اخبار سلجماسة ونكور والبصرة تآليف حساناً كما قال ابن حزم (٣)

وجاء بعد هؤلاء محمد بن عبدالله الكرماني المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة . ومسند بغداد ابو جعفر محمد البختري وابرهيم بن صالح الوراق تلميذ الفارابي وقد توفيا كلاهما سنة ٣٣٩ للهجرة . وعاش بعدهم ابن النديم الوراق البغدادي صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٧٥ للهجرة . وابو بكر بن اسماعيل الوراق (٤) . وعلي بن عيسى الوراق (٥) .

ومن الورّاقين في القرن الرابع ايضاً مطر الوراق واحمد بن ملّوك وابو الحسن علي بن لؤلؤ الثقفي وثلاثتهم من مشاهير الوراقين في القرن الرابع للهجرة . وابو علي المصيصّي الوراق (٦) والحسن بن احمد الوراق من صلحاء دمشق (٧) . ثم ابو القاسم الاخفش الوراق (٤٦٠ هـ) وهو ثالث الاخفشين من النحاة . وابو اسحق ابرهيم بن سعيد الوراق المصري (٨) ونحوي بغداد ابو الحسن محمد بن

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ١ صفحة ٢٤٩
(٢) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ١٤ صفحة ١٤٩
(٣) اتحاف الناس في اخبار مكناس : جزء ١ صفحة ١٠
(٤) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ١٤ صفحة ٤٤٥
(٥) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ٢١٤
(٦) التاريخ الكبير لابن عساكر : مجلد ٤ صفحة ١٥٠
(٧) التاريخ الكبير لابن عساكر : مجلد ٤ صفحة ١٥٢
(٨) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ٣٦٠

هبة الله ابن الوراق الضرير (١) من حفـــاظ القرن الخامس للهجرة . ومن اشهر الوراقين ايضاً : ابو بكر الساوي الوراق (٢) وابن عبد ربه الوراق (٣) .

وروى ياقوت الرومي في معجم الادباء اخباراً شتى عن علان الوراق الشعوبيّ قال : كان علان قبيح الصورة ومرّ يوماً بمخنث يغزل على حائط فسأله المخنث : من اين انت ؟ قال علان : من البصرة . قال المخنث : لا اله الا الله ! تغير كل شيء حتى هذا ؟ كانت القرود تُجلب من مكة واليمن والان تجيء من العراق ! (٤) .

ومن مشاهير الوراقين ابو محمد البكري الشنتويني الوراق المتوفى سنة ٥١٧ هـ . كان شاعراً مفلقاً مليح الكتابة قليل الحظ نسخ الكثير بالاجرة . ومن شعره هذان البيتان نظمهما في حرفته قال :

اما الوراقة فهي انكد حرفةٍ ... اوراُقها وثمــاُرها الحرمانُ
شبّهتُ صاحبها بصاحب ابرةٍ ... تكسو العراةَ وجسمها عريانُ

ومن مشاهير الوراقين ايضاً ابو محمد سفيان التجيبي كان من اهل المعرفة التامة بعلوم اللسان على تفاريقها حسن الوراقة ذا حظّ صالح من الكتابة توفي سنة ٥٤٦ للهجرة (٥)

وقس على من سبق ابا الحسن اللخمي الغرناطي (٤٩٧-٥٥٦ هـ) ورد عنه في تاريخ غرناطة انه : «كان وزيراً فقيهاً نبيلاً جواداً اديباً عارفاً بالعروض والنحو واللغة والطب سيد الشعر حسن الخط والوراقة» . ومثله عبد الرحمن بن المنـذر قاضي الاسكنـدرية ويعرف بالابخر . كان واسع الاطلاع في علم الوراقة ومات

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ٣٣٧
(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر : مجلد ٢ صفحة ٧٢
(٣) معجم البلدان : جزء ٤ صفحة ٣٦٠
(٤) معجم الادباء : جزء ١٢ صفحة ١٩٢
(٥) بغية الوعاة : صفحة ٥٨

سنة ٥٦٨ للهجرة (١) . ثم جعفر اللخمي الاسكندراني الوراق (٥٧٥ - ٦١٣ هـ) . ومحمد ابو نصر البغدادي الوراق (٥٤٣ - ٦٢٠ هـ) . ومحمد ابو العباس الاحول ذكره الزبيدي في طبقة المبرد وثعلب وقال عنه : «كان يورق بالاجرة وكان قليل الحظ من الناس وجمع دواوين مائة وعشرين شاعراً» .

ونذكر بعد هؤلاء جمال الدين الانصاري الكتبي الوراق المعروف بالوطواط (٦٣٢ - ٧١٨ هـ) (٢) . ومحمد بن حمدون الغافقي القرطبي الوراق . والشهاب احمد الوراق (٣) . وغانم الوراق تلميذ ابو نواس . وياقوت الرومي الذي تعاطى نسخ الكتب وتاجر بها . وابا بكر التميمي الوراق . ولله در الشاعر سراج الدين الوراق الذي اجاد في وصف صناعته بهذين البيتين قال :

يا خجلتي وصحائفي قد سُوّدت ... وصحائف الابرار في الاشراق
وموبّخٍ لي في القيـامة قائلٍ ... أكذا تكون صحائف الورّاق

ومن لطيف ما نظمه لسان الدين الخطيب عن براعة الوراق قوله (٤) :

يمضي الزمان وكل فانٍ ذاهبٌ ... الا جميلُ الذكر فهو الباقي
لم يبقَ من ايوان كسرى بعد ذا ... كَ الحفل الا الذكر في الاوراقِ
هل كان للسفاح والمنصور والـ ... مهدي من ذكرٍ على الاطلاقِ
او للرشيد وللامين وصنوهِ ... لولا شباةُ براعة الوراقِ

٥ - القاب خاصة ببعض الوراقين

أطلق اسم الوراق ايضاً على مشاهير تجار الكتب والمشتغلين بها فلقّبوا بالكتبيين.

---

(١) بغية الوعاة : صفحة ٢٩٧
(٢) معجم المطبوعات العربية : ١٩٢٠
(٣) سلك الدرر في اعيان القرن الحادي عشر للمرادي : جزء ٤ صفحة ٩٩
(٤) نفح الطيب : جزء ٤ صفحة ٢٤

وممن عُرفوا بهذه الحرفة ابن شاكر الكتبي مؤلف كتاب «فوات الوفيات» فرُزق منها مالاً وافراً. ومنهم الشمس علي بن الكتبي الخازن. وابن الكتبي الطبيب. وابن صورة الكتبي بالقاهرة. وصلاح الدين الكتبي صاحب التاريخ (١) والاسكندراني الكتبي (٢). واطلق لقب «فخر الكتّاب» على ابي علي الحسن وكانت تباع كتبه باغلى الاثمان (٣)

وكان «ظفر البغدادي» من رؤساء الوراقين المعروفين بالضّبط وحسن الخط كعباس بن عمر الصقلي ويوسف البلوطي وطبقتهما. واستخدمه الحكم المستنصر بالله في الوراقة لشدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها. وسكن ظفر في قرطبة واليه اشار حيّان الاندلسي في كتاب «المقتبس» (٤).

واطلق على بعض الوراقين لقب «قراطيسي» نسبة الى القراطيس وهو جمع قرطاس اي الصحيفة التي يكتب فيها. وممن اشتهر بهذا اللقب يوسف بن يزيد القراطيسي (٥) احد علماء مصر. وفي دمشق حتى يومنا هذا اسرة قديمة كنيتها «القراطيسي» لم يزل بعض افرادها يتعاطون تجارة الورق.

ونذكر من هذا القبيل لقب «الكراريسي» نسبة الى الكراريس جمع كراس (٦) وأطلق على بعضهم لقب «مصحفي» نسبة الى المصحف. وهم الذين اشتهروا بكتابة المصاحف دون سواها. نذكر منهم الحاجب جعفر المصحفي وزير المستنصر بالله الحكم الثاني سلطان قرطبة (٧). وكان ذا ادب بارع ونظم رائع.

---

(١) خطط الشام: جزء ١ صفحة ١٦ وخزائن الكتب في دمشق وضواحيها: صفحة ٣
(٢) تذكرة الحفاظ: جزء ٤ صفحة ٢٣٦
(٣) وفيات الاعيان: جزء ١ صفحة ١٨١
(٤) نفح الطيب: جزء ٢ صفحة ١٠٣
(٥) نفح الطيب: جزء ١ صفحة ٥٨٢
(٦) مجلة المشرق: مجلد ٣٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ٣٧١
(٧) نفح الطيب: جزء ١ صفحة ٢٧٧

وأطلق لقب «كاغديّ» على بائع الكاغد اي القرطاس . وهو لفظ فارسي معرب (١) . وممن عرف بهذا اللقب قديماً الحسين بن علي بن ابرهيم الجُعل (٣٠٨ - ٣٩٩ هـ) الكاغدي (٢) . وعُرف بعده بهذا اللقب ابو الفضائل عبد الرحيم الكاغدي. ومن القاب بعض الوراقين لقب «ناسخ» لمن امتاز بالنسخ كأبي عبد الله الناسخ الذي خصصه صاحب «تاج العروس» بهذا اللقب . وقس عليه لقب «نسّاخ» لمن اشتهر بكثرة النسخ كعبد السلام النساخ (٣) . واطلقوا لقب «خير النساخ» على من اجاد النساخة واحكمها وبرع فيها . وقد كني بهذا اللقب ابو الحسن محمد بن اسمعيل (٤).

وتشمل الوراقة ايضاً جميع المشتغلين بادوات الكتابة كما سلف الكلام . هكذا أطلق لقب «حبّار» على صانع الحبر الذي يُكتب به وعلى بائعه والمتعاملين به . ومن اشهر الحبارين الذين ورد ذكرهم في التاريخ حسين المصري ابو علي بدر الدين الذي صار يجلس بعد ذلك في زاوية بظاهر القاهرة ويعظ الناس (٥) . وممن يصح ان يطلق عليه لقب «حبّار» ابو محمد البتجيبي المعروف بابن الحجاج .فانه اقتنى كتباً كثيرة من جميع العلوم وزنها سبعة قناطير كلها بخطه وربما كان يصنع له مطرة من الحبر لاجل كثرة كتاباته !! (٦)

٦ - بعض مؤلفات في الوراقة والكتابة

لا تخلو المكتبات من تآليف تبحث في الوراقة والكتابة وآدابها ككتاب

---

(١) معجم «اقرب الموارد» لسعيد الشرتوني : صفحة ١٠٩٠

(٢) الاعلام : لخيرالدين الزركلي : جزء ١ صفحة ٢٥٤

(٣) اتحاف اعلام الناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ٥ صفحة ٤٨١

(٤) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٢ صفحة ٤٨

(٥) تاريخ ابن الفرات : نشره الدكتور قسطنطين زريق : مجلد ٩ جزء ١ صفحة ١٧٣

(٦) معالم الايمان في معرفة اهل القيروان : جزء ٣ صفحة ٧٠-٧٢

«ادب الكاتب» لابن قتيبة (١) المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة . وكتاب «الرأي الصائب في ما لا بد منه للكاتب» تأليف عماد الدين الكناني (٢). وكتاب «تحفة اولي الالباب» في صناعة الخط لابن الصائغ . وفيه صور الحروف وموازينها . وكتاب «لمحة المختطف في صناعة الخط الصلف» لابن يس . وكتاب «شرح ابن وحيد على ارجوزة ابن البواب» في الخط . وكتاب «عمدة الكتاب» في الخط والمداد والاقلام . وكتاب «النجوم الشارقات في عمل الليقات» لابن ابي الخير الحسيني . و«رسالة في صناعة الاحبار» وهذان الاخيران هما من ملحقات كتب الخط (٣) . ومنها كتاب «الخراج وصناعة الكتابة» لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ للهجرة. وكان قدامة نصرانياً فأسلم (٤). ومنها رسالة في الكتابة والخط انشأها ابو العباس احمد بن محمد ثوابة توفي سنة ٢٧٧ للهجرة . وكتاب «تنويق النطاقة في علم الوراقة» تأليف الشيخ عبد الرحمن بن احمد بن مسك السخاوي المتوفى نحو السنة ١٠٢٥ للهجرة (١٦١٦ م). وذكر ابن النديم في فهرسته ان ابا دلف كان ممن تكلموا في فضل الخط .

اخيراً لا يسعنا السكوت عن «المترجم» وهو يطلق على كتابة سرية اصطلح عليها العرب ويقال لها الآن «الشفرة» عند الفرنج . وفي الخزانة التيمورية نسخة من «قصيدة ابن الدريهم في المترجم» نشر عنها تيمور باشا مقالة ممتعة (٥) وفي الخزانة الزكية بالقاهرة مجموعة رسائل في «المترجم» تعد من اثمن الكنوز (٦)

٧ ـ اسواق الورّاقة والورّاقين

من اقدم اسواق الورّاقين الوارد ذكرها في التاريخ «سوق البصرة» وقد

---

(١) تاريخ ابي الفداء : جزء ٢ صفحة ٥٤

(٢) مخطوط في الخزانة البارودية ببيروت

(٣) نوادر المخطوطات بقلم احمد تيمور باشا (الهلال : مجلد ٢٨ : صفحة ٣٢٧)

(٤) معجم المطبوعات العربية والمعربة : صفحة ١٤٩٤-١٤٩٥

(٥) الهلال : مجلد ٢٤ صفحة ٣٦٤ (٦) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٨

اشتهر امره منذ القرن الثاني للهجرة . وممن اكثر التردد اليـــه محمد بن القاسم ابو العيناء في ايام الخليفة العبـاسي الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ و٨٤٢ - ٨٤٧ م) بن المعتصم (١) .

وروى شهاب الخفاجي في كتابه «ريحانة الالباء» (٢) ترجمة ابرهيم بن المسلط الذي عُدّ من عيون ادباء عصره . وذكر انه كان شيخ سوق الوراقة في مدينـة القاهرة . ولابن مسلط شعر لطيف . من ذلك قوله :

ياعايبـاً لسواد قهوتنـا التي   فيها شفاءُ الناس من أمراضِها
أفلا تراها وهي في فنجانها   تحكي سوادَ العين وسط بياضِها

واتى ابن بطوطة في كتاب رحلته على وصف سوق الورّاقـين في دمشق . واراد بهم باعة الكاغد والمداد والاقلام وما يتبعها. وفي السنة (٧٤٠ هـ - ١٣٣٩ م) احترق سوق اللبّادين وسوق الورّاقين الواقعان شرقي الجامع الاموي (٣).

وليوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرّد مخطوطٌ عنوانه «نزهة الرفـاق عن شرح حـال الاسواق» يقع في خمس عشرة صفحة . وقد سرد فيه مؤلفه اسماء الاسواق التي كانت على عهده بدمشق في القرن التاسع للهجرة اي الخامس عشر للميلاد. فعدّد منها مائةً وخمسين سوقاً مختلفة الاسماء لمائة وخمسين حرفة او صناعة. وقد جاء فيها تحت الرقم التاسع اسم «سوق الورّاقين» في باب البريد (٤) .

وكان في تونس كما في سائر البلدان سوق للورّاقين ايضـاً . ويروى انه لما تحركت الاقطار التونسية على امير المؤمنين زكريا ابي يحيى اللحيـاني في اوائل القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) جمع كتبه وباعها في الورّاقين (٥)

---

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٣ صفحة ١٧٣
(٢) ريحانة الالباء : مخطوطة في خزائن دار الكتب اللبنانية ببيروت
(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧
(٤) الخزانة الشرقية : لحبيب زيات : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨-٢٨
(٥) المؤنس في اخبار افريقية وتونس : لابن ابي دينار : صفحة ١٣٤

٨ - تجهيز الادباء لحفاً في منازلهم للورّاقين واهل العلم

تفرد رهطٌ من أهل الادب بعطفٍ خاصٍ على الغرباء من الورّاقين واهل العلم . فلم يكتفوا بان يرفدوهم بالمال والكسوة والضيافة والجرايات وهلمّ جراً . بل ذهبوا الى اقصى من ذلك اذ جهزوا لهم افرشة ولحفاً للمبيت عندهم . وعلى سبيل المثال نذكر يعقوب بن شيبة السدوسي المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة . فقد أعدّ في منزله اربعين لحافاً لمن كان يبيت عنده من الورّاقين لتبييض الكتب (١)

وحدّث القاضي ابو عبدالله الصيمري انه سمع محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ للهجرة يقول : «كان في داري خمسون ما بين لحافٍ ودواجٍ معدةٍ لاهل العلم الذين يبيتون عندي (٢)» .

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ١٤ صفحة ٢٨١

(٢) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٣ صفحة ١٣٥

الفصل الثالث

مشاهير الخطاطين

١ ـ الخطاطون الاولون واشكال الاقلام القديمة

كان الخطاطون في العصور الغابرة يتنافسون في اجادة الكتابة ويبالغون حتى درجة الابداع في تنميق الكتب وزخرفتها . ولعظيم اجلال داود الملك للكاتب فقد انشد عنه في مزاميره قائلاً : «لساني قلم كاتب بارع» (١) ومن طريف ما نظمه الشعراء في الكتبة قول احدهم (٢) :

ما الناس الا الكَتَبَهْ　　هم فضةٌ في ذَهَبَهْ
قد أحرزوا دنياهمُ　　من شقّ تلك القَصَبَهْ

ومن مشاهير الخطّاطين الاقدمين نذكر : مالك بن دينار . وقُطبة الذي عُدّ أكتب اهل زمانه فكان يكتب المصاحف لخلفاء بني امية . وبعد قطبة يأتي الضّحاك بن عجلان الكاتب. ثم اسحق بن حماد في عهد الخليفتين المنصور والمهدي. وكان له عدة تلاميذ وضعوا الخطوط الاصلية الموزونة في اثني عشر قلماً وهي : قلم السجلات . قلم الديباج . قلم الجليل . قلم المفتح . قلم الحرم . قلم العهود . قلم الحرفاج . قلم المدامرات . قلم القصص . قلم اسطورمار الكبير . قلم الثلاثين . قلم الزنبور (٣).

---

(١) مزمور ٤٤ عدد ٢
(٢) محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء : للراغب الاصبهاني : صفحة ٤٥
(٣) الحضارة الاسلامية : لاحمد زكي باشا المصري : صفحة ٦٨

ثم قام الفضل بن سهل الوزير الكاتب . واسحق بن ابرهيم التميمي مؤلف رسالة «تحفة الرامق» . والعلامة الجليل احمد بن يوسف خطّاط الخليفة المأمون .

٢ ـ ابن مقلة

اول من نال القدح المعلّى في اجادة الخط علي بن محمد بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة . كان وزيراً للخليفة جعفر المقتدر بالله(١) وهو اول واشهر من كتب الخط البديع . نقل طريقته عن خط الكوفيين وابرزها في هذه الصورة . ويروى عن القطب الكبير السيد عبد القادر الجيلاني (٤٩١ ـ ٥٦١ هـ) مؤسس الطريقة القادرية انه كان يجلّ ابن مقلة ويثني عليه ويقول : « ان في يده سراً من اسرار الله » . وفي ابن مقلة انشد ابو عبيد البكري الاندلسي صاحب التآليف المشهورة قوله (٢) :

خطّ ابن مقلةَ من أرعاه مقلتَهُ ودّت جوارحه لو أصبحتْ مُقَلا
فالدرّ يصفرّ لاستحسانهِ حسداً والوردُ يحمرّ من إبداعهِ خجلاَ

وانشد شاعرٍ ثانٍ هذين البيتين معرضاً فيها بابن مقلة قال :

وعهدي بالصبا زمناً وقدّي حكى ألِفَ ابن مقلة في الكتابِ
وصرتُ الآن منحنياً كأني أفتّشُ في المقابرِ عن شبابي

غير ان ابن مقلة لم يسلم من حسادٍ اخصهم ابن رايق وشوا به الى الخليفة الراضي بن المقتدر . فامر بقطع يده في منتصف شهر شوال عام ٣٢٦ للهجرة . ثم عاد ابن مقلة يسعى في الوزارة وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب . ولما نمي الى ابن رايق ان ابن مقلة يدعو عليه وعلى الخليفة الراضي كرّر الوشاية به . فأمر الخليفة

---

(١) صلة تاريخ الطبري : جزء ١٢ صفحة ٦٩

(٢) قلائد العقيان : للفتح ابن خاقان : صفحة ١٩٩ طبعة مصر

بقطع لسانه فقطع (١). وضيّق عليه في الحبس فأصابه ذَرَب اودى بحياته سنة ٣٢٨ للهجرة (٢).

وقال ابن مقلة ينوح على يده اليمنى: «خدمتُ بها الخلفاء وكتبتُ القرآن الكريم دفعتين تُقطع كما تُقطع ايدي اللصوص». ثم أنشد (٣):

ما سئمتُ الحياةَ لكن توثقتْ — بايمانهم فبانت يميني
بعتُ ديني لهم بدنياي حتى — حرموني دنياهمُ بعد ديني
ولقد حفظتُ ما استطعتُ بجهدي — حفظَ ارواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذّةُ عيشٍ — يا حياتي بانت يميني فبيني!

حدّث ابو القاسم بن الرقيّ منجّم سيف الدولة بن حمدان أنه سمع سيف الدولة يقول وقد عاد مكسوراً من احدى مواقعه: هلكَ مني مما كان في صحبتي خمسة آلاف ورقة بخط ابي علي بن مقلة. وكان لابن مقلة شيءٌ للنسخ وحوضٌ فيه محابرُ واقلامٌ فيقوم ويتمشى في الدار اذا ضاق صدرهُ. ثم يعود فيجلس في بعض تلك المجالس وينسخ ما يخفّ عليه. ثم ينهض ويطوف جوانب البستان ثم يجلس في مجلس آخر وينسخ اوراقاً أخر. فاجتمع من خطه ما لا يُحصى (٤).

٣ - ابن البوّاب

بعد ابن مقلة ظهر صاحب الخطّ الجميل عليّ بن هلال المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة. قال عنه ابن خلكان: «لم يقم بين المتقدمين والمتأخرين من كتَب مثل ابن البوّاب ولا قاربه. وان كان ابن مقلة اوّل من نقل هذه الطريقة عن الكوفيّين فان ابن البوّاب هذّب طريقته ونقحها وكساها حلاوةً وطلاوةً».

---

(١) زبدة الصحائف في اصول المعارف: صفحة ١٢٢

(٢) تاريخ ابي الفداء: جزء ٢ صفحة ٨٥

(٣) تاريخ ابن الوردي: جزء ١ صفحة ٢٧٠

(٤) معجم الادباء: لياقوت الرومي: جزء ٩ صفحة ٣١-٣٢

وروى ياقوت الرومي في «معجم الادباء» عن ابن البوّاب ما نصه قال (١) : «كان ابن البوّاب مزوّقاً يصوّر الدور ثم صوّر الكتب. ثم عانى الكتابة ففاق فيها المتقدّمين واعجز المتأخرين» .

ولسنا نرى ان تفوتنا قصيدة طريفة جزيلة الفائدة نظمها عليّ ابن البوّاب في صناعة الخط قال (٢) :

يا من يُريد إجادةَ التحريرِ ... ويروم حسنَ الخطّ والتصويرِ
ان كان عزمُك في الكتابة صادقاً ... فارغبْ الى مولاك في التيسيرِ
أعْدِدْ من الأقلام كلّ مثقّفٍ ... صُلبٍ يصوغُ صياغةَ التحبيرِ
واذا عمدت لبريهِ فتوخّه ... عند القياس باوسط التقديرِ
انظر الى طَرفيهِ فاجعلْ بريهُ ... من جانب التدقيق والتحضيرِ
واجعل لجلفتهِ قواماً عادلاً ... يخلو عن التطويلِ والتقصيرِ
والشقّ وسّطْهُ ليبقى بَرْيُهُ ... من جانبيه مُشاكلَ التقديرِ
حتى اذا اتقنتَ ذلك كلّهُ ... اتقانَ طَبٍّ بالمرادِ خبيرِ
فاصرف لرأي القطّ عزمَك كلهُ ... فالقَطّ فيه جملةُ التدبيرِ
لا تطمعنْ في ان ابوحَ بسرهِ ... إني أضنُّ بسرّهِ المستورِ
لكنّ جملةَ ما أقول بانهُ ... ما بين تحريفٍ الى تدويرِ
وألِقْ دواتكَ بالدخانِ مُدبّراً ... بالخل او بالحصرمِ المعصورِ
وأضِفْ اليه مغرةً قد صُوِلتْ ... معَ اصفرِ الزَرنيخِ والكافورَ
حتى اذا ما خُمّرتْ فاعمد الى الـ ... ـوَرَقِ النقي الناعمِ المخبورِ
فاكبسهُ بعد القطعِ بالمعصار كي ... ينأى عن التشعيثِ والتغبيرِ
ثم اجعلِ التمثيلَ دأبَكَ صابراً ... ما أدركَ المأمولَ مثلُ صبورِ
إبدأ به في اللوح منتضياً له ... عزماً تجرّدهُ عن التشميرِ

---

(١) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ١٢٠-١٢١

(٢) مجاني الادب : للاب لويس شيخو : جزء ٤ صفحة ١٥٩-١٦٠

لا تخجلنَّ من الرديّ تَخطّهُ	في اول التمثيلِ والتسطيرِ
فالامرُ يصعُبُ ثُمَّ يَرجعُ هيّناً	ولرُبَّ سهلٍ جاء بعد عسيرِ
حتى اذا أدركتَ ما أمّلتَهُ	اضحيتَ ربّ مسرةٍ وحُبورِ
فاشكرْ الهكَ واتّبعْ رضوانَهُ	إنَّ الالهَ يُحِبُّ كلّ شكورِ
وارغبْ لكفّكَ ان تخُطّ بنانهُ	خيراً تُخلّفُهُ بدار غُرورِ
فجميعُ فعل المرءِ يلقاهُ غداً	عند التقاء كتابهِ المنشورِ

٤ – كبار الخطاطين بعد ابن مقلة وابن البوّاب

وممّن احرز قصبة السبق بعد ابن مقلة وابن البوّاب بين مشاهير الخطّاطين نذكر ابا الحسين بن ابي عليّ. وكان حفيداً لابن مقلةٍ فاحكم صناعة الخط مقلداً فيها اسلوب جدّه. ومنهم ابو العباس عبدالله بن اسحق اشتهر ايضاً بجودة الخط بين معاصريه (١).

وروى ياقوت الرومي عن ابي نصر الفارابي قال: «كان من اعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلماً. وكان اماماً في اللغة والادب وخطهُ يُضرَب به المثل لا يكاد يفرق بينه وبين خط ابن مقلة».

وعُرف في القرن السادس للهجرة عمر بن الحسَن الذي اتخذ طريقة علي بن هلال البوّاب. فاجاد في ذلك كل الاجادة واشتهر خطه عند كتّاب الآفاق. وكان له من آلات الكتابة ما لم يكن لاحد قبله. قيل انه بيع في تركته آلات للكتابة في جملتها دواةٌ بازهار اشتراها بعض وُلدِ زعيم الدين بن جعفر صاحب المخزن بتسعمائة دينار. وبيع باقي التركة من سكاكين واقلام وبراكر (جمع بركار) بمبلغ آخر. وتوفي عمر بن الحسن الخطاط سنة ٥٥٢ للهجرة (٢).

---

(١) الفهرست لابن النديم

(٢) معجم الادباء: لياقوت الرومي: جزء ١٦ صفحة ٣٠٦

ومن ابرع الخطاطين في القرن السابع للهجرة ابو الفضل زهير (٥٨١-٦٥٦ هـ) ولقبه بهاء الدين الكاتب. كان من فضلاء عصره ونبغ في حسن الخط نبوغه في النظم والنثر (١).

ومن افذاذ الخطاطين كمال الدين عُمَر بن احمد هبة الله العقيليّ المشهور بابن العديم (٥٨٨-٦٦٦ هـ). كان راساً في الخط المنسوب ولا سيما في النسخ والحواشي. وهو أكتَبُ من تقدمه بعد ابن البوّاب صنّف كتاب «ضوء الصباح في الحث على السماح» للملك الاشرف. وكان الملك قد سيّر من حرّان بطلبه. فلما وقف الاشرف على خطه اشتهى ان يراهُ فقدُمَ ابن العديم عليه. فاحسن الملك اليه واكرمه وخلع عليه وشرّفه. وشاع ذكر ابن العديم في البلاد واشتهر خطهُ بين الحاضر والباد. فتهاداهُ الملوك معجبين ببراعته في صناعته (٢).

وانتهى حسن الخط بعد من تقدم ذكرهم الى جمال الدين المستعصمي المتوفى سنة ٦٩٨ للهجرة. وهو ابرع الخطاطين غير مدافَع واجودهم خطاً غير معارَض. وقد كتب نسخة من كتاب «الشفاء» لابن سيناء في مجلد واحد. ثم اهداه الى الشاه محمد طفلق احد ملوك الهند فأنعم عليه بألف مثقال من الذهب. ولياقوت المستعصمي مؤلفات نذكر منها: كتاب «اسرار الحكماء» طبع سنة ١٣٠٠ للهجرة في الاستانة. وكتاب «اخبار واشعار ومِلَح وحكم ووصايا منتخبة» طبع كذلك في الاستانة سنة ١٣٠٢ للهجرة. وختم ياقوت المستعصمي فن الخط واكمله وادرج جميع قوانينه في بيت شعر فقال:

اصولٌ وتركيبٌ كراسٍ ونسبةٌ　　صعودٌ وتشمير نزولٌ وارسالُ

ومن معاصري ياقوت المستعصمي عبد المؤمن صفي الدين الذي لم يكن في زمانه من يكتب المنسوب مثله. ففاق فيه الاوائل والاواخر وبه تقدم عند الخليفة.

---

(١) مجاني الادب في حدائق العرب: للاب لويس شيخو: جزء ٦ صفحة ٣٠٦
(٢) ابن العديم وتآليفه: لمحمد كرد علي (مجلة الرسالة: سنة ٥ صفحة ١٥٣٥-١٥٣٧)

ولما انتهت الخلافة الى المستعصم عمرّ خزانة كتب وامر ان يُختار لها خطاطان يكتبان ما يختاره . ولم يكن في ذلك العهد اعظم شهرة في تجويد الخط من عبد المؤمن المشار اليه والشيخ زكيّ الدين فصار تعيينهما لتلك الوظيفة . وقد رتب الخليفة لعبد المؤمن خمسة آلاف دينار كل سنة وامر له برزق وافر . وبعد سقوط الدولة العباسية ساءت احوال عبد المؤمن وتراكمت عليه الديون لانه كان ينفق ماله على الملاذ . ومات محبوساً سنة ٦٩٣ للهجرة على دَينٍ مبلغه ثلاثمائة دينار (١) .

واشتهر بحسن الخط في القرن التاسع للهجرة احمد بن يوسف بن محمد الدمشقيّ . فانه بعدما فقد يده اليمنى راح يكتب باليسرى . وقد اشار الى ذلك في هذين البيتين قال (٢) :

لقد عشتُ دهراً في الكتابة مفرداً ... اصوّر منها احرفاً تشبه الدرّا
وقد صار خطي اليوم اضعف ما ترى ... وهذا الذي قد يسّر الله لليسرى

فما كان من قاضي القضاة الا ان انشده البيتَين التاليَين ليشجعه ويسرّي عنه همّه قال :

لئن فقدت يمناك حسن كتابةٍ ... فلا تحتمل هماً ولا تعتقدْ عُسرا
وأبشِر ببشرٍ دائمٍ ومسرّةٍ ... فقد يسّر الله العظيم لك اليُسرى

٥ ـ الخلفاء والملوك المبرزون في جودة الخطّ

لم يكن الخلفاء والملوك اقلّ رغبةً من الرعية في تجويد الخط والتأنق فيه . فان الخليفة عثمان بن عفان (٦٤٥-٦٥٧ م) كتب بيده اربع نسخ من القرآن ، واقتفى اثره الحجاج بن يوسف الثقفيّ وأهدى ما كتبه بيده من نسخ هذا

---

(١) فوات الوفيات : لابن شاكر : جزء ٢ صفحة ١٨
(٢) شذرات الذهب

المصحف الى عواصم المملكة . وكان السلطان ابرهيم بن يمين الدولة محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) سلطان بخارا يُجيد الخط ويكتب كل سنة نسخة من القرآن يبعث بها الى مكة .

وروى ابن خلدون أن ابا الحسن سلطان افريقيا كتب نسخة من القرآن بيده وبعث بها الى مكة . وكتب نسخة اخرى انفذها الى المدينة المنورة . وكان ينوي كتابة نسخةٍ ثالثةٍ يوجهها الى القدس فقضى نحبه قبل انجاز نيّته .

وكان غياث الدين ملك الغورية ذا فضلٍ غزيرٍ وادبٍ مع حسن خطٍ وبلاغةٍ . وكان ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها في المدارس التي بناها (١) .

وسبق لنا في اثناء بحثنا عن خزانة كتب المسجد الاقصى بالقدس ان وصفنا مصحفاً نسخ بحبر احمر وازرق واخضر وقرمزيّ مُزج بالزعفران والمسك . وقد كتبه بيده عبدالله ابن امير المسلمين ابي سعيد عثمان سلطان الجزائر . وفي خزانة المسجد الاقصى ايضاً مصحف عريق في القدم نسخه بيده على رق غزال ابن عبد الحق سلطان المغرب الاقصى .

٦ - نوابغ الخطاطين في القرون الاخيرة

قام في القرون الاخيرة خطاطون جديرون بالوصف رفعوا شأن هذا الفن بذكائهم وتفننهم وجلادتهم . ذكر الشيخ حسن البوريني بعض الخطاطين من آل المقدسي الدماشقة كالشيخ ابرهيم المقدسي كاتب المصاحف التي يتغالى بثمنها الناس ولا سيما اهل دمشق لحسن الخط ودقة الضبط . وقد كتب منها الشيخ ابرهيم ما يزيد على مائة مصحف . ثم نوه البوريني بالشيخ خليل المقدسي ومن مخلفاته مصحفٌ مسبّعٌ كتبه بخطه سنة ٨٠٩ للهجرة .

---

(١) المختصر في اخبار البشر : لابي الفداء : جزء ٣ صفحة ١٠٤

واشتهر بنو الحموي في دمشق اشتهار آل المقدسي بجودة الخط . ومن نوابغهم احمد بن محمد بن عبدالله . وقد اطلعنا في خزانة عيسى المعلوف على نسخة من المقامات الحريرية كتبها احمد الحموي سنة ١١٤٨ للهجرة (١٧٣٥ م) . وهي بديعة الخط والضبط والنقش والتذهيب (١) .

ومن مشاهير الخطاطين محمد الطاراني الدمشقي الذي كان يكتب اشكال الخطوط باجمعها ويقلّد اقسامها على اختلاف اجناسها . ولما سافر من دمشق الى وادي النيل وُشي به الى حاكم مصر انه قلّد الطغراء السلطانية . فاستحضره الحاكم وألحّ عليه بالاقرار فأقرّ فقُطِعت يمينه . وصار الطاراني يلف بعد ذلك خرقة على يده ويمسك بها القلم ويكتب .

ومن معاصري محمد الطاراني نذكر ابن هلال الحمصيّ (٩٢٠ - ١٠٠٤ ه) الذي ضاهاه بجودة الخط. قيل انه كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم فوضعه النصارى الروم في كنيسة قسطنطينية . وكانوا يبرزونه في المواسم ويتخذونه من جملة ضروب الزينة لمزيد اعجابهم من حسنه واتقانه . وقد تقلبت على ابن هلال الحمصي احوالٌ ومِحن ادت الى قطع يده اليمنى . ومن نكد الدنيا ان مثل تلك اليد النفيسة تُقطع . ومن اعجب عجائبها ان ابن هلال كتب باليسرى بعدما قطعت يده اليمنى (٢) ولم يكن بدمشق في زمانه اعلم منه بالفقه واقدر على استخراج النقول من محالها . وقد قال فيه الشيخ ابو الفتح المالكي :

ان الكتابة للفتاوى لم تجد … احداً سواك يحلّ من اشكالها
حملتك مقلتها فيا انسانها … انت ابن مقلتها وإبنُ هلالها

واشار الناظم بالشطر الاخير الى ابي علي بن مقلة الوزير والى علي بن هلال المشهور بابن البوّاب . وهما الخطّاطان الممتازان اللذان اثبتنا اخبارهما في بدء هذا الفصل .

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧
(٢) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٣٤١

ولا يقلّ عن ابن هلال الحمصي شهرةً في براعة الخط الشيخ سعدي العمري الذي كان نادرة عصره وَحَسَنَةً من حسنات مصره . وُلد بدمشق بعد السنة الثمانين والالف للهجرة فطلب العلم على شيوخها وُوّلي دار الحديث فيها . تفرّدَ بالشعر الحسن والنثر البديع والخط المعجب حتى اصبح يشار اليه بالبنان بين أقرانه . ويروى عنه انه لما ارتحل الى بلاد الروم خدم سلطانها احمد خان الثالث (١١١٤ - ١١٤٣ هـ و ١٧٠٢ - ١٧٣٠ م) بقصيدة نمّقها بخطه الرائع . وضمّن كلّ بيت منها تاريخاً لتأسيس خزانة الكتب التي انشأها السلطان المشار اليه (١) . وممن امتاز بحسن الخط من أسرته عبد الرحمن بن محمد العمري الذي اشتهر بالخط المنسوب وتخرّج عليه خلق كثير (٢) .

ومن مشاهير خطّاطي القرن الثاني عشر للهجرة عبد اللطيف بن عبد القادر الزوائدي خَطيب جامع الخسروّية في حلب. كان فقيهاً حافظاً خطّاطاً ذا صوتٍ حسنٍ شجي وقلّ ان تجتمع هذه المزايا في عالم . نشأ في فقرٍ حالك لان والده عاش وهو يحترف الصباغة . فكان المترجم لشدة فقره لا تصل يده الى شراء ورق لتعلّم الكتابة . ففتقت له الحيلة ان يقصد الى القصاب ويأخذ منه ألواح الغنم فيفركها بالرماد لتزول منها الزهومة ثم يكتب عليها . وقد فتقت له الحيلة ايضاً ان يجمع اوراق شجر التين فيلصق بعضها ببعض ويصقلها ويتعلم بها الكتابة . هكذا حسن خطّه وصار ينسخ بالاجرة لجودة كتابته واتساق سطورها ويتفنن في شتى اساليبها . فانتعش حاله بعد الفقر المهلك واصبح في يسرٍ من العيش . وعلى اثر ذلك وُجّهت اليه خَطابة جـامع الفرمانية وإمامته . وظلّ بهذه الوظيفة حتى فاجأته المنية عام ١١٣٢ للهجرة اذ سقط ميتاً عن ظهر البغلة بالقرب من باب النصر (٣).

وآخر من برع بالخط في دمشق السيد محمود حمزة الحسيني (١٢٣٦ - ١٣٠٥

---

(١) سلك الدرر : جزء ٢ صفحة ١٥١

(٢) سلك الدرر : جزء ١ صفحة ٢٧٥

(٣) سلك الدرر : جزء ٣ صفحة ١٢٦

و١٨٢٠ - ١٨٨٧ م) مفتي الديار الشامية . فانه على تبحّره بالعلم واشتغاله به وبمهام منصبه كان آية الزمان بالكتابة . وقد أتقن انواع الخطوط بغاية الدقة والضبط والجمال فضلاً عن تفننه العجيب بهذه الصناعة . ومن أغرب ما نمقته يده كتابته على ورقة بحجم فص الخاتم اسماءَ شهداء وقعة بدر الكبرى وهم ثلاثمائة وسبعة عشر شهيداً (١) .

وندمج بمن اثبتنا اسماءَهم بعض نوابع الخطّاطين في عصرنا كجميل بك العظم. ومصطفى السباعي الحمصي المشهور بخطه الفارسي في دمشق . والشيخين مراد الشطي وحسن الشطي والشيخ حسين الباغجاني وممدوح افندي في دمشق ايضاً . ومسعود الكواكبي ومحمد علي الخطيب في حلب . ونسيب مكارم في لبنان وله آيات مدهشات في فنون الخط على حبات الأرز وفصوص الخواتم وبيض الدجاج وغير ذلك (٢) . وفهد العنداري خطاط الجمهورية اللبنانية وكامل البابا في بيروت الخ الخ

٧ ـ شذرات شعرية في الخطّ

أنشد احمد بن احمد المكنى بابي العنايات ابن عبد الكريم النابلسي يصف خطّه وحظّه قال :

زاد خطّي وقلّ حظّي فمن لي | نقلُ نقطٍ من فوق خاءٍ لطاءِ
وبشِعريَ الغالي ترخّص سعري | وبطبّ الفنون متّ بدائي

وقال آخر في المعنى ذاته :

لا تحسبوا أنّ حسن الخطّ يُسعدني | ولا سماحة كف الحاتم الطائي
وانما انا محتاج لواحدةٍ | لنقل نقطة حرف الخاءِ للطاءِ

---

(١) تراجم مشاهير الشرق : تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٧٩
(٢) المشرق : مجلد ٢٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٩٤٠

وقال الخليل :

كتبتُ بخطّي ما ترى في دفاتري عن الناس في عصري وعن كل غابرِ
ولولا عزائي أنهُ غيرُ خالدٍ على الارض لاستودعتهُ في المقابرِ

ومن لطيف ما نُظم في الخطّ ما أنشده ابو محمد عبدالله بن البياسي لنفسه بالاسكندرية قال :

يمدّ الدهر من أَجلي وعمري كما أني امدّ من المدَادِ
لنا خطّانِ مختلفانِ جداً كما اختلف المُوالي والمُعادي
فاكتبُ بالسوادِ على بياضٍ ويكتب بالبياض على السوادِ

وهذا يُشبه ما نظمه شاعر آخر بقوله :

ولي خطّ وللايام خطّ وبينهما مخالفة المدَادِ
فاكتبُه سواداً في بياضٍ وتكتبُه بياضاً في سوادِ

الفصل الرابع

غرائب الخطاطين والخطاطات

روى فريق من المؤرخين شيئاً كثيراً من غرائب الخطّاطين ونوادر الخطاطات قديماً وحديثاً. وقد اطّلعنا على طائفة منها فانتقينا ما ألفيناه ذا فائدة. ويطيب لنا الآن ان نُثبت ملحاً من تلك الغرائب والنوادر استكمالا للموضوع الذي يدور عليه محور بحثنا .

١ ـ الخطاط حسين البيهقيّ

وُلد الحسين بن احمد قُطيمة في بيهق من نواحي نيسابور واليها يُنسب . وكان الحسين شيخاً مسناً رائع الخط كثير السماع من تلاميذ الامام ابي بكر البيهقي . أصيب بعلة في يده فقُطعت اصابعه التي اعتاد ان يكتب بها . فصار يضع الكاغد على الارض ويمسك قلماً برجله وينسخ خطاً مفرداً. ووافته المنية سنة ٥٣٦ للهجرة في بلدة خَرْوْجِرْد (١) .

٢ ـ الخطاط الفتح بن شخرف الكسيّ

حدّث ابو محمد الحريري ان الفتح بن شخرف الكسي قال له : عندي قلم كتبت به مدة اربعين سنة . فكنت اكتب به نهاراً واكتب به على ضوء القمر ليلا .

---

(١) معجم البلدان : لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٤٧

واثناء ارتفاع القمر كنت أجلس الى سلم في دارنا أرتقي عليها مرقاةً مرقاةً حتى أنتهي الى اعلاها . فاذا تشعّث رأس القلم قططْتُه وهو لم يزل محفوظاً عندي . وللحال احضر انبوبة واخرج منها القلم وأرانيه (١).

٣ ـ الخطاط بي دست

قرأنا في كتاب «تاريخ الخط العربي وآدابه» لمؤلفه محمد طاهر بن عبد القادر الكرديّ المكيّ عن رجل يسمى «بي دست» ما نصّه : «جاء الى مصر القاهرة في السنة ٥٧٦ للهجرة رجل عديم اليدين وأظهر كثيراً من الفنون والمعارف . وكان يعرف جميع الخطوط فكتب برجليه جملة اسطر بالقواعد التامة . فكان موضع الاعجاب وأقر له من كان موجوداً من الخطّاطين ذلك الوقت . واقبلوا عليه وجمعوا له مالاً كثيراً» .

٤ ـ الخطاطة بنت خداوردي

ورد في كتاب «اخبار الأول» للاسحاقيّ ما حكايته : «في زمن الملك الكامل في شهر شوال سنة ٦٢٤ للهجرة أحضِرَتْ من الاسكندرية امرأة خُلِقتْ من غير يدَين وفي موضع ثدييهَا مثل الحلمتَين . فجيء بها بين يدي الوزير رضوان فعرّفَتْهُ انها تعمل برجلَيها ما تعمله النساء بايديهنّ من خطّ ورقم وغير ذلك . فأحضر لها دواةً فتناولت برجلها اليسرى قلماً ولم ترضَ شيئاً من الاقلام المبرية التي أحضروها . فاخذت السكين وبرَتْ لنفسها قلماً وشقّتْه وقطّتْه . وأخذت ورقة فأمسكَتْها برجلها اليسرى وكتبتْ باليمنى احسن ما يكتبه الكتّاب بيمينهم . ثم ناولت الوزير تلك الرقعة فاذا فيها السؤال بالزيادة في راتبها فزادها الوزير وأعادها الى بلدها» .

---

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ١٢ صفحة ٣٨٥

وأخبر الاسحاقيّ ان لهذه الخطّاطة قبراً مشهوراً في الاسكندرية يُزار . وهو الآن بباب رشيد على يمين الداخل الى المدينة ويُعرَف بمقام «بنت خداوردي» . ولها اوقاف وأطيان ويُصرَف لها من ديوان الاسكندرية في كل سنة ثلاثة آلاف نصف فضة .

٥ ـ الخطاطة الست نسيم

اشتهرت الست نسيم البغدادية بخطها في عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٦ ـ ٦٢٢ هـ) . وكان هذا الخليفة قد أصيب بفقد البصر واضطُرّ ان يحتجب عن وزراء الدولة وعن الناس . ومما ساعده على مواصلة سياسة المملكة انه استعان بالست نسيم المشار اليها لكتابة مراسيمه واوامره لانها كانت تقلّد خطه فكتبت كتابةً لا تتميّز عن كتابته قط . فقرّبها الناصر اليه وأفضى اليها باسراره وجعل يستكتبها كلّ ما شاء واراد. وكانت اذا وصلت المراسيم الى الوزير نفّذها فوراً لجهله داء الخليفة واعتقاده ان المراسيم هي خطّه لا خط الست نسيم (١).

٦ ـ الخطاطان محمد الطائي وبديع الزمان الهمذاني

امتاز محمد بن سعيد الطائي بجمال الخَلق والخُلق واناقة الملبس والخط وكان سريع الكتابة . ومما تفرّد به انه كان ينسخ الكتاب معكوساً من حَسْبَلته الى بَسْمَلته (٢) . فاذا اراد نسخ كتاب بدأ به من آخر لفظة حتى ينتهي الى اول لفظة منه . وكان المخطوط يبرز من بين يدي الطائي في غاية الظرافة والاتقان كانه قد نُسخ من البسملة الى الحسبلة لا من الحسبلة الى البسملة كمألوف العادة . فبهذه

---

(١) تاريخ الدول : لابن العبري : صفحة ٤٤٩ طبعة بيجان بباريس

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٥ صفحة ١٦

الطريقة المبتكرة تفرّد الطائي عن جميع النسّاخ فأثار ببراعته اعجاب الرفيع والوضيع والقريب والغريب .

ولا يُعرف احدٌ قبل محمد الطائي نهج هذا الاسلوب في النساخة المعكوسة الا بديع الزمان الهمذانيّ (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ) . فقد ورد عنـــه في « معجم الادباء » لياقوت الرومي ما نصّه : « وكان بديع الزمان ربما كتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخره ثم هلم جرّاً الى اوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحهِ (١) » .

٧ ـ الخطاط عماد الدين التيرباج (توفي سنة ٨٥٥ للهجرة)

حلّت وفاة عماد الدين سنة ٨٥٥ للهجرة . وكان رائع الخط حسن المحاضرة والمفاكهة . ونظم ديوان شعر أتلفه وهو حي يرزق ضناً بكرامته وإعلاءً لشأن الادب على زعمه . ولما سُئل عما حمله على اتلاف الديوان قال : «كان الشاعر قديماً اذا نظم قصيدة ومدح بها احداً أجيز على قصيدته بمنحة سخية . اما انا فأنظم القصيدة وأرسل معها الخدم والعسل وغير ذلك لكي تحوز القبول . وقد اغناني الله سبحانه عن الاستجداء فأريد قبل وفاتي ان اتصرّف في ديواني حرصاً على كرامتي ولئلاّ يقال بعدي : ما اكثر ما سأل بقصائده ! » (٢) .

٨ ـ الخطاط ابرهيم الشيبانيّ

روى المقري في «نفح الطيب» عن ابي اليسر ابرهيم بن احمد الشيباني انه نسخ كتاب سيبويه كله بقلم واحد . وظلّ يبريهِ ويستعمله في نساخة الكتاب المذكور حتى قصر . فأدخله في قلم آخر وكتب به الى ان فني بتمام الكتاب (٣).

---

(١) معجم الادباء : جزء ١ صفحة ٩٦

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جزء ٥ صفحة ٢٥٤

(٣) نفح الطيب : للمقري : جزء ٢ صفحة ١١٥

٩ ـ خطاط بلا يد ولا رجل

عثرنا في هامش «تحفة الخطاطين» على ما يلي : «جاء الى الديار القسطنطينية رجل بلا يد وبلا رجل وذلك سنة ١٠٨٢ للهجرة . فاخذ يتعلم الخط على مشق الاستاذ صيولجي زاده والاستاذ مصطفى . فلما حسن خطه كتب سورة الانعام ثم كتب سطراً واحداً بالثلث وسطرين بالنسخ . وقدّم ذلك الى السلطان (محمد بن ابرهيم ١٠٥٨ ـ ١٠٩٩ ﻫ) فأجزل له العطاء» .

١٠ ـ احمد بن محمد الصخري

كان يكتب الكتاب مبتدئاً بآخر سطر حتى ينتهي الى السطر الاول فيخرجه مستوفى الالفاظ والمعاني. وانتُدب الصخري على لسان الشيخ ابي الحُسين السهيلي ان يكتب في معنى مؤلف الكتاب كتاباً الى الدهخدا ابي سعيد محمد بن منصور الحوالي يذكر فيه أن اخبار فلان تأتينا ثم تشوقنا الى مشاهدته وبديع تأليفاته . فأخذ الصخري القلم والقرطاس وبدأ يكتب من السطر الاخير ثم لم يزل يمضي قدماً في الكتاب ويرتفع عن عجزه الى صدره ومن أسفله الى اعلاه ويصل اواخره باوائله حتى أتم المعنى الذي اقتُرح عليه . وفرغ من الكتاب في زمان قصير المدة (١) .

(١) معجم الادباء : جزء ٥ صفحة ٢١

الفصل الخامس

النساخة والطباعة

اولاً : حرص العرب على صيانة مؤلفات السلف

لا غرو ان العرب الاولين في ايام سؤددهم كانوا احرص الناس على تراث آبائهم ومؤلفات علمائهم . وقد احدث ملوكهم وأمراؤهم دواوين خاصة لنسخ الكتب في القصور والمساجد ودور العلم وبيوت الحكمة . وعينوا لتلك الدواوين كتّاباً ونسّاخاً من اهل الضبط والخط الحسن قام بينهم علماء وشعراء ومؤرخون وفلاسفة. فأكرمهم أولئك الملوك وجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم ورتبوا لهم الجرايات الكافية . وكان في كل ديوان عشرات من النسّاخ وذوي الشهرة البعيدة في الثقافة ينصرفون الى هذا العمل ويعيشون في كنف الملوك والأمراء من تلك المهنة الشريفة .

وفي التاريخ امثلة من هذا القبيل لا تحصى ولا تعد. فمنها ان الوزير بن كلس كان يجمع في قصره بالقاهرة عدداً كبيراً من الموظفين يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن . وكان بعضهم ينسخ شيئاً من كتب الحديث والفقه والادب وبعض كتب العلوم حتى الطب. وكان هؤلاء النساخ يراجعون ما يكتبونه ويضيفون اليه علامات الشكل والنقط (١).

---

(١) الفاطميون في مصر : صفحة ٢٣٦

ومن ذلك ان المستنصر بالله الحكم الثاني سلطان قرطبة (٩٦١ - ٩٧٦ م) جمع بداره الحذاق في صناعة النسخ والمهارة في الضبط (١) . ومنها ان مائة وسبعين امرأة كن يكتبن المصاحف بالخط الكوفيّ بالربض الشرقي من قرطبة احدى عواصم الاندلس (٢) .

وكان ديوان موفّق الدين ابن المطران المتوفىّ سنة ٥٨٧ للهجرة (١١٩١ م) حافلاً بالنسّاخ يكتبون له دون انقطاع . فكان يجزل لهم في العطاء ولهم منه الجامكيّة والجراية (٣) .

وحكي عن يوسف بن صبيح انه توجّه الى جزيرة تُنَيْس الواقعة في بحر مصر بين دمياط والفرَما . وهناك شاهد خمسمائة صاحب محبرة يكتبون الحديث . فدعاهم الى بعض نواحي الجزيرة وصنع لهم وليمة توفّر فيها الطعام لجميعهم (٤) .

وناهيك ان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (٥٢٩-٥٩٦ هـ) بلغ عدد مجّلدات مكتبة بالقاهرة مائة واربعة وعشرين الفاً فيها نساخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون (٥). وقد سبق لنا القول ان الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود ملك اليمن (٦٩٥ - ٧٢١ هـ) كان عنده اكثر من عشرة نسّاخ ينسخون الكتب ويضمونها الى خزائنه بعد التدقيق فيها ومقابلتها على الاصل . اما الطبيب الاسرائيلي افرائيم بن الزفان فكان النسّاخ يزاولون له النسخ ابداً ولهم منه ما يقوم بمؤونتهم (٦) ويروى عن الصاحب امين الدولة السامري ان النسّاخ لا يفارقون خزائن كتبه. ولما اراد احراز نسخة من تاريخ الشام في ثمانين مجلداً لابن عساكر كلّف عشرة نسّاخ

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٧-٦٩
(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥
(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء : مجلد ٢ صفحة ١٧٨
(٤) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٢ صفحة ٤١٩
(٥) خطط المقريزى : جزء ٤ صفحة ١٩٩
(٦) طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ١٠٥

ان ينقلوه فكتبوه بمدة سنتين (١) وروى المؤرخون ان مائة من الخطّـاطين كانوا يدأبون في نساخة الكتب بدار العلم في طرابلس الشام على عهد قضاتها آل عمّار .

ثانياً – اساليب القدماء في ضبط النساخة

استعمل كبار النساخ في عهدٍ مضى اساليب خصوصيـة لاناقة الخط وتجويد النسخ وضبطه في كل وجوهه . وتفنن العرب في ذلك تفنناً غريباً حتى برّزوا على جميع الامم في ما خلفوه من المخطوطات البديعة واشكال الكتابات المبتكرة التي لا يحصى لها عدد . فكان الناسخ اتقاناً لعمله يستحضر مقوّى (كرتون) يعادل حجمه حجم الكتاب المنوي نسخه . ثم يثقب في طرفي ذلك المقوّى ثقوباً متوازية يشد فيها خيوطاً يساوي عددُها عددَ سطور كلّ صفحة من صفحات الكتاب . ويجعل الفرق بين الخيطان متناسباً مستقيماً طبقاً للاصول المرعية في فن الكتابة . وبعد تهيئـة تلك «المسطرة» يأتي الناسخ بالكاغد المعد للنسخ ويضغطُه على الخيوط المشدودة في ذلك المقوّى . فتطبع عليـه اسطراً بيضاء لا تكادُ تنظر بالعين المجرّدة وتزول بتوالي الايام. وعلى هذا الاسلوب يستسهل الناسخ كتابة ما أزمع ان يكتبه بنظام ودقة فوق تلك الاسطر المعتدلة البيضاء . فتخرج نسخـة الكتاب من بين يديه ظريفة الشكل متقنة الكتابة محدودة الاسطر كاملة الاوصاف منسّقة تنسيقاً واحداً في جميع الصفحات دون زيادة ولا نقصان .

وقد شاهدنا نماذج من ذلك المقوّى كبيرةً وصغيرةً محفوظةً في المكتبات القديمة وفي ديورة الرهبان . وشاهدنا كذلك عدة صحائف في مخطوطات لم تزل آثار سطورها البيضاء باقيةً لهذا العهد .

ومن استعرض المخطوطات القديمة ثبت له مقدارُ عناية اربابهـا بصناعة النسخ . فكان هؤلاء يختارون لكتابة المخطوطات ورقاً صقيلاً صفيقاً ولا يستعملون الا

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٤

حبراً ثابتاً باشكاله من أسودَ واحمر واخضر وأصفر وزعفرانيّ وضفدعيٍّ ومذهّبٍ . وكانوا يتفنّنون بتجويد الحروف على اختلاف انواعها ويعتنون كثيراً باتقان العناوين وزخرفة الصفحات وضبط الحواشي وتنميق الهوامش مما يأخذ بمجامع الابصار .

ومن أهم ما يجب ان يتحلّى به الناسخ من المزايا امانةُ النقل ودقة النظر في صيانة أصل ما ينسخه ويضبطه طبقاً لنسخة المؤلف عينه . ويُطلب من الناسخ علاوةً على ذلك ان يراعي عبارة الكتاب وحركاته وابوابه وفصوله حرصاً على آداب المؤلف الذي أحيا الليالي في التفكير والبحث والتدوين .

وقد تنافس الشعراء قديماً في مدح الكتّاب والنسّاخ فاجادوا . ومن أفصح ما مُدح به كاتبٌ من الكتاب قول ابن المعتزّ :

إذا أخذَ القرطاس خِلتَ يمينَهُ   تُفتّحُ نَوْراً او تنظِّمُ جوهرَا

وأنشد شاعرٌ آخر هذين البيتَين :

إن هزَّ أقلامَهُ يوماً لِيُعملِها   أنساك كلَّ كميٍّ هزَّ عاملَهُ
وإن أقرَّ على رَقٍّ أنامِلَهُ   أقرَّ بالرقِّ كتّابُ الأنام لهُ

وكما أجاد الشعراءُ في مدح خيرة الكتّاب والنسّاخ كذلك راح بعضهم يذمُّ حمقى الكتّاب ويلهج بهجوهم . من ذلك قول أحدهم في كاتبٍ جاهلٍ (١) :

حمارٌ في الكتابة يدّعيها   كدعوى آل حربٍ في زيادِ
فدَعْ عنك الكتابةَ لستَ منها   ولو غرقتْ ثيابُك في المدادِ

ثالثاً — نشأة الطباعة العربية في الغرب

اذا تحرّينا الكلام عن الطباعة العربية تبيّن لنا ان الغرب كان المجلّي في

---

(١) صبح الاعشى : جزء ١ صفحة ٤٧

ابرازها للوجود منذ مطلع القرن السادس عشر . وغير خافٍ ان للطباعة شأنها الخطير في عالم الحضارة بتوفير نسخ الكتب واغناء المكتبات بحيث يصحّ ان نطلق عليها لقب «امّ الكتب الولود» . تلك حقيقة نثبتها بالشكر لابناء الغرب عموماً وللمستشرقين خصوصاً . لانهم هم الذين استنبطوا حروف الطباعة العربية وهذّبوها ونشروها في جميع الاصقاع . ولم يقصروا همّتهم على ذلك بل بعثوا مخطوطاتنا العربية القديمة من دفائنها . فطبعوها في بلادهم وعلّقوا عليها الشروح وأردفوها بالفهارس ثم ترجموها بلغاتهم وعلّموها في مدارسهم وزينوا بها خزائن كتبهم .

على ان البحاثة الاب لويس شيخو تفرّغ للتدقيق في تاريخ فن الطباعة العربية شرقاً وغرباً واستوفى البحث عنها في مجلة المشرق (١) . فرأينا ان ننقل ما دوّنه عن المطابع العربية في بلاد المغرب ونلخّصه بما يلي :

اوّل كتابٍ عربيّ ظهر في عالم الطباعة نشرته مطبعة «فانو» العربيّة وهو كتاب «صلاة السواعي» حسب الطقس الاسكندريّ . وظهر بعده في جنوا عام ١٥١٦ كتاب «مزامير داود» باربع لغات وهي : العربيّة والسريانيّة والعبرانيّة واليونانيّة .

وفي السنة ١٥٣٨ نشر الطبّاع بوستل في باريس مبادىء اثنتي عشرة لغة شرقية في جملتها اللغة العربيّة .

وطبع الاب يوحنا اليان عام ١٥٦٦ كتاب «اعتقاد الامانة الارثوذكسيّة في كنيسة رومية» بمطبعة المدرسة الرومانيّة .

وفي السنة ١٥٨٤ نشر دومينيك باسا اوّل كتاب علميّ عربيّ وهو كتاب «البستان في عجائب البلدان» تأليف سلامش بن كندغديّ الصالحيّ .

ونشر آل ميديسيس عام ١٥٩١ كتاب «الاناجيل» بحرف مُشرق وتصاوير انيقة على الخشب . وطبعوا في السنة التالية كتاب «نزهة المشتاق في ذكر الامصار

---

(١) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٠-٨٥

والآفاق» لابي عبدالله محمد المعروف بالشريف الادريسي . ثم نشروا عام ١٥٩٣ «قانون ابن سينا» وألحقوه بكتاب «النجاة» وطبعوا كذلك في السنة ١٥٩٥ كتاب «تحرير أصول اوقليدس» تأليف نصير الدين الطوسي .

ونشرت مطبعة سافاري دي براف في رومة سنة ١٦٢٤ كتاب « نحو اللغة العربية » وكتاب « الايساغوجي » في المنطق عام ١٦٢٥

ونشرت مطبعة البروبغندا في رومة عدة كتب دينية وتاريخية وعلمية ولغوية نذكر منها قاموساً عربياً ايطالياً طبعته عام ١٦٣٧

اما مطبعة ليدن فقد امتازت بكثرة مطبوعاتها العربية . ومن جملتها امثال لقمان الحكيم عام ١٦١٥ وقصّة يوسف الصديق نقلاً عن القرآن عام ١٦١٧ وهو اول كتاب عربي ضبط بالشكل الكامل . ونشرت هذه المطبعة نفسها تاريخ ابن العميد عام ١٦٢٥ ومجموع امثال علي بن ابي طالب عام ١٦٢٩ و « عجائب المقدور في اخبار تيمور » لابن عربشاه عام ١٦٣٦ وطائفةً من مقامات الحريري عام ١٧٤٠ و « معلّقة طرفة » عام ١٧٤٢ وديوان الامام علي عام ١٧٤٥ ولاميّة كعب بن زهير عـــام ١٧٤٨ وسيرة صلاح الدين الايوبي لابن شدّاد سنة ١٧٥٥ وقصيدة البردة سنة ١٧٦١ وكليلة ودمنة سنة ١٧٨٥ ونخبة من امثـال الميدانيّ عام ١٧٩٥ الخ الخ . هكذا نالت مطبعة ليدن المقام الاول بين زميلاتها في اوروبا بمطبوعاتها النفيسة .

اما مطبعة باريس الملكيّة فقد اجادت كل الاجادة بطبع نسخة الكتاب المقدس المشهورة بالبوليغلوتا في تسعة مجّلدات ضخمة تتضمن جميع اسفار العهدين القديم والجديد بستّ لغات وهي : العربية والعبرانية والسامرية والسريانية واليونانية واللاتينية واستغرقت طبعتها ثلاث عشرة سنة (١٦٢٣ ـ ١٦٤٥) وهي من ابدع واجمل ما طبع لذلك العهد (١) .

---

(١) اول طبعـــة من «البوليكلوت» باليونانية والسريانية واللاتينية والعربية ظهرت في ايطاليا عام (١٥١٤-١٥١٧) ثم في البندقية عام ١٥١٨ (المشرق ٣٨ : ١٩٤٠ : ٢٦٥)

ونشرت مطبعة لندن «تاريخ الدولة الخوارزمية» لابي الفداء سنة ١٦٥٠ وطبعت «التوراة المقدسة» بتسع لغات في ستة مجلدات ضخمة سنة ١٦٥٧ ورسائل طبية للرازي سنة ١٧٦٦ و كتاب «الجراحة» لابي القاسم سنة ١٧٧٨. و «المعلّقات» سنة ١٧٨٣

ونشرت مطبعة اوكسفرد نبذة في تاريخ العرب سنة ١٦٥١ ومقالات لموسى بن ميمون عام ١٦٥٥ و«تاريخ سعيد بن بطريق» عام ١٦٥٨ و«لاميّة الطغرائي» عام ١٦٦١ وتاريخ «مختصر الدول» لابن العبري عام ١٦٦٣ و«رسالة حيّ بن يقظان» عام ١٦٧١ و«السيرة النبوية» من تاريخ ابي الفداء سنة ١٧٤٣

ونُجمل الكلام عن سائر المطابع الاوروبيـة فنقول : نشرت مطبعة البندقية كتاب «القرآن» سنة ١٥٣٠ وطبعت في بادوا سنة ١٦٩٨ «تفاسير القرآن» للبيضاويّ والزمخشريّ والسيوطيّ. وطُبع في ابسالا عام ١٧٥٧ كتاب «خريدة العجائب» ونشرت في ليبسيك عام ١٧٥٥ «رسالة ابن زيدون» . وطبع في هودرفيغ كتاب «مقصورة ابن دريد» في السنتين ١٧٦٨ و١٧٨٦ وفي فرنكفورت كتاب «لاميّة الطغرائيّ» عام ١٧٦٩ وفي غوتا كتاب «وصف مصر» عام ١٧٧٦ وتاريخ ابي الفداء في كوبنهاغ عام ١٧٨٩ اما كتاب عبد اللطيف في «الامور المشاهدة بمصر» فقد طبع اولاً في توبنغ عام ١٧٨٩ وثانياً في اوكسفورد عام ١٨٠٠ وطبع في صقليـة عام ١٧٩٠ كتاب «آثار العرب في بالرمة». ونشرت في ليبسيك عام ١٧٩١ منتخبات من كتاب «تقويم البلدان» لابي الفداء و«معلقة زهير» عام ١٧٩٢ ونُشر في رستك عام ١٧٩٧ كتاب «النقود الاسلامية» للمقريزيّ الخ الخ . ومنذ افتتاح القرن التاسع عشر دخلت المطبوعات العربية في طور جديد بحيث صار عددها يربي في اوروبا على المئات . وفي ما ذكرناه كفاية .

انما لايسعنا السكوت عن الاشارة الى بعض كتبٍ عربيّة نُشرت بحرف عبرانيّ في مدينة القسطنطينية بمطبعة المربي اسحق جرسون اليهودي في اواخر القرن الخامس عشر. وقس على ذلك كتباً عربيّة جمّة نُشرت في مطابـع اوروبا بحروف سريانيّة .

رابعاً : ظهور الطباعة العربية وذيوعها في الشرق

١ - بواكير المطابع النصرانية في الشرق

اذا انتقلنا من البحث عن المطابع العربية في الغرب الى البحث عنها في الشرق قلنا ان جبل لبنان هو السبّاق الى ذلك. لانه فيه تأسست اوّل مطبعة عربية. وامتدّت الطباعة بعد ذلك الى سائر انحاء الشرق كسوريا ومصر وفلسطين والعراق وما بين النهرين وغيرها.

فاقدم مطبعة برزت للوجود في الشرق هي مطبعة دير قزحيا بلبنان. وقد نشرت عام ١٦١٠ كتاب «المزامير» في حقلين متقابلين : احدهما في اللغة العربية بحروف كرشونية والآخر في اللغة السريانية.

واوّل مطبعة عربية أنتجت في الشرق كتباً عربية بحروف عربية هي المطبعة التي جلبها الى حلب بطريرك الروم الملكيين اثناسيوس الثالث (١٦٨٥ - ١٧٢٤) من آل دباس. فانه سافر عام ١٦٩٨ الى بلاد الفلاخ واستحضر تلك المطبعة من عاصمتها بكرش (بخارست) الى حلب. ثم نشر فيها عام ١٧٠٦ كتاب الانجيل مزيناً بصور الانجيليّين الاربعة (١).

وبعد مطبعتي قزحيا وحلب قامت مطبعة دير الشوير بلبنان. أسسها وحفر حروفها الشمّاس عبد الله زاخر (١٦٨٠-١٧٤٨) العلّامة النابغة. وكان باكورة مطبوعاتها كتاب «ميزان الزمان» سنة ١٧٣٤ وقد اتيح لنا ان تعهّدنا هذه المطبعة القديمة التي توقفت عن العمل. فأعجبنا حرص الرهبان على صيانة مطبوعاتها وجميع ادواتها وعلى حفظها سالمة دون ان يفقد شيء من بقاياها. وهي مرتّبةٌ في غرفها الاصلية ترتيباً تاماً يستوجب الثناء على القائمين بحراستها.

---

(١) اطرب الشعر واطيب النثر : للاب شيخو : قسم ٢ صفحة ١٩٣

ورابع مطبعة عربية عرفها الشرق هي مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثذكس في بيروت . انشأها الشيخ يونس نقولا جبيلي المشهور بابي عسكر (+ ١٧٨٧) وكان ذا ثروة واسعة ونفوذ عظيم لدى الجزّار . واوّل ما نشرته هذه المطبعة هو كتاب المزامير فالسواعية فالقنداق سنة ١٧٥١

وخامس مطبعة في الشرق أنشئت في الاسكندرية سنة ١٨٠٠ في اثناء الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال نابليون بونابرت . وبها طُبعت جريدة «التنبيه» بتاريخ ٦ كانون الاول سنة ١٨٠٠ وهي باكورة جميع الجرائد العربية في العالم اجمع .

اما سادس مطبعة عربية في الشرق فقد جلبها عام ١٨١٦ من لندن الى دير الشرفة-بلبنان المطران بطرس جروة الذي نُصب بعد ذلك بطريركاً انطاكياً (١٨٢٠ - ١٨٥١) على السريان الكاثوليك . ومن مطبوعاتها العربية كتاب «مجمع الشرفة» المعقود سنة ١٨٨٨ و كتاب «المباحث الجلية في الليترجيات الشرقية والغربية» للبطريرك اغناطيوس افرام رحماني .

٢ - بواكير المطابع الاسلامية في الشرق

اول مطبعة اسلامية نشرت كتباً عربية هي مطبعة سعيد افندي في الاستانة . فقد استعان بابرهيم آغا المجري واصدر فيها عام ١٧٢٨ تاريخ الحاج خليفة (١٠٠٤ - ١٠٦٧ هـ) بعنوان «تحفة الكبار في اسفار الابحار» وهو باكورة مطبوعاتها العربية . اما اشهر المطابع العربية في تلك العاصمة فمطبعة «الجوائب» أسسها عام ١٨٦١ احمد فارس الشدياق اللبناني ونشر فيها تصانيف عربية جليلة كالجاسوس على القاموس وديوان البحتري وديوان الطغرائي ورسائل الخوارزمي والهمذاني ومنتخبات الجوائب الخ .

وأقدم مطبعة اسلامية عربية في القطر المصري هي مطبعة بولاق الذائعة الصيت .

انشأها عام ١٨٢٢ محمد علي باشا راس العترة المالكة. ونستغني عن تعداد مطبوعاتها الوافرة لانها اشهر من نار على علَم.

وأقدم مطبعة اسلامية عربية في بلاد المغرب اسسها عام ١٨٦٠ محمد الصادق باشا باي تونس (١٨٦٠ - ١٨٨٢). وتعد باكورة منشوراتها جريدة «الرائد التونسي» التي برزت للوجود بتاريخ ٢٠ تموز ١٨٦٠ (١٢٧٧ هـ). وقد كلف الباي المشار اليه مستعرباً فرنسياً يقال له منصور كرلتي لاخراج مشروع المطبعة والجريدة الى الوجود (١).

واقدم المطابع الاسلامية العربية في دمشق مطبعة ولاية سوريا جرى تأسيسها في السنة ١٨٦٤ وكانت باكورة نشراتها رسالة الشيخ عمر العطّار في المنطق وقواعد الاوقاف تأليف السيد محمود حمزة مفتي دمشق.

اما المطابع الاسلامية العربية في العراق فأقدمها مطبعة الزوراء أنشئت عام ١٨٦٩. ومن بواكير مطبوعاتها بعد جريدة «الزوراء» سالنامة ولاية بغداد وقانون الجزاء الهمايوني وقانون الاراضي.

وأقدم المطابع الاسلامية في بيروت «مطبعة جمعية الفنون» انشأها سنة ١٢٩٢ للهجرة (١٨٧٤ م) الشيخ عبد القادر قباني. ونشر فيها جريدته «ثمرات الفنون» وهي باكورة جميع الصحف الاسلامية في هذه الحاضرة. واوّل ماطبع فيها كتاب «كشف الارب عن سر الادب» نظم الشيخ ابرهيم الاحدب. وكتاب «اطواق الذهب في المواعظ والخطب» للزمخشري شرحه الشيخ يوسف الاسير.

٣ - بواكير المطابع الحجرية في الشرق

يكاد لا يتجاوز عدد المطابع الحجرية في الشرق عدد الانامل. واقدمها عهداً «المطبعة

---

(١) تاريخ الصحافة العربية: جز ١ صفحة ٦٥

الكاثوليكية » التي اسسها الآباء اليسوعيون في اول تشرين الاول ١٨٤٨ ببيروت. وتألفت في بداية امرها من مطبعة حجرية صغيرة . ثم اضاف اليها مؤسسوها ادوات خشبية للكبس والخياطة والتجليد صنعها فرديناند بوناجينا (+ ١٨٦٠) احد رهبانهم الايطاليّ الاصل . ومن اقدم مطبوعاتها براآت بابويّة وديوان المطران جرمانس فرحات وامثال لقمان الحكيم. ولما استحضر الآباء اليسوعيون عام ١٨٥٤ مطبعة عربية على الحروف أهملوا المطبعة الحجرية. فارسلوها الى مدرستهم في غزير حيث طبعوا كتاب « نخب الملح وغرة المنح » وجدّدوا فيها طبع « امثال لقمان الحكيم » .

وثانية المطابع الحجريّة انشأها الشاعر اللبنانيّ صاحب السيف والقلم حنا بك الاسعد (١٨٢٠-١٨٩٧) المنتمي الى آل ابي صعب وهم من مزرعة بيت ابي صعب في البترون (١) . وقد نشر فيها سنة ١٨٥٣ بخطه الجميل شرح المعلقات للزوزني . واتخذ مركزاً لها قصر «بتدّين» دار الامارة اللبنانية في عهد الامير بشير الكبير (١٧٨٨-١٨٤٠). وكان حنا بك الاسعد متولياً الكتابة في ديوان الامير المشار اليه باللغتين العربية والتركية . وقد ذهب في خدمته الى مالطا والاستانة ولم يرجع الى لبنان الا في السنة ١٨٤٩ اي قبيل وفاة مولاه الامير الكبير (+ ١٨٥٠). وقد وصفه احد الشعراء بهذين البيتين :

لحَنّا قد أقرّ العُربُ طُراً   بفوزٍ بالسّباقِ لدى الرهانِ
له شهدَ اليراعُ بحسن خطٍّ   كما سجد الحُسَامُ مع السنانِ

ثم توفرت المطابع العربية الحجرية في العراق. واقدم مطبعة عُرفت فيه «مطبعة كربلاء» جلبها من بلاد ايران عام ١٨٥٦ احد اعيانها ونشر فيها مقامات ابن الالومي المشهورة بمقامات الجدّ. وجرى ذلك في ايام محمد رشيد باشا والي بغداد وكان من اعظم انصار الادب .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية : لفيليب دي طرازي : جزء ١ صفحة ١٢٥-١٢٨

وانشئت في بغداد بعد مطبعة كربلاء ثلاث مطابع حجرية : أقدمها «مطبعة كامل التبريزيّ» التي اسسها الميرزا عباس سنة ١٨٦١ ونشر فيها بعض الكتب . نذكر منها : «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» للسويديّ . و«المقامة الطيفيّة» لجلال الدين السيوطيّ . وكتاب «الطرائف واللطائف» للشيخ ابي نصر احمد بن عبد الرزاق المقدسي الخ . ثانيتها مطبعة حجرية فاخرة ابتاعها من باريس سنة ١٨٦٩ والي بغداد احمد مدحت باشا الوزير العثماني الشهير وألحقها بمطبعة الولاية وثالثتها «المطبعة الحميدية» لصاحب امتيازها عبد الوهاب افندي وكان عضواً في مجلس المبعوثان العثماني الاول بالاستانة . ومما طُبع فيها كتاب «بحر الكلام» لسيف الحق ابي المعين النَسَفيّ . ورسائل فقهية وغير ذلك .

٤ ـ اقامة بطريرك الاقباط مهرجاناً في الشوارع ابتهاجاً بمطبعته

من اروع ما أثبته التاريخ من مجالي التجلّة والاعتبار للمطابع تلك الحفاوة الكبرى التي احتفل بها الانباء كيرلّس الرابع بطريرك الاقباط (١٨٥٤ ـ ١٨٦١) ترحيباً باول مطبعة اقتناها لابناء ملّته . فانه وجّه الامر الى المطارنة والكهنة والشمامسة ولفيف الاكليروس ان يقيموا لاستقبالها مهرجاناً فخماً . فخرجوا قاطبة الى محطة القاهرة في الصلبان والمجامر والشمعات والصنوج . وتوشّحوا باثوابهم البيعيّة وجعلوا ينشدون الترانيم الرخيمة جذلين مسرورين . وتبعهم القوم بالاهازيج والزغاريد حتى بلغوا بالمطبعة الى الدار البطريركية . وعندذلك هرع البطريرك الى استقبالها متهلّلا وهو يقول : « لولا الخوف من لوْم الجهّال لخرجت الى الطريق ورقصت امام المطبعة كما رقص داود امام تابوت العهد (٢ ملوك ٦ : ١٤» (١) . وظلّ القوم في جميع انحاء القطر المصري يتحدثون زمناً طويلاً عن ذلك الاستقبال الغريب الذي لم يُسمع بمثله في التاريخ (٢) .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية : جزء ٣ صفحة ٩ـ١٠

(٢) تراجم مشاهير الشرق : تاليف جرجي زيدان : جزء ١ صفحة ٢٧٨

٥ ـ مطبعة عربية تصدر كتاباً بعشرين لغة

لم يقتصر ارباب المطابع العربية في الشرق على نشر الكتب باللغة العربية فقط بل نشطوا الى تجهيزها بحروف اغلب اللغات الشائعة شرقاً وغرباً . واول مطبعة احرزت قصبة السبق بتفننها في ذلك هي المطبعة الكاثوليكية ببيروت . فقد نشرنا فيها منذ السنة ١٨٩١ كتابنا « القلادة النفيسة في فقيد العلم والكنيسة » بعشرين شكلاً من الحروف الشرقيـة والغربيـة في ٢٠٤ صفحات . وهو اول كتاب اصدرته المطابع العربية في الشرق بهذا العدد الوافر من اللغات (١) .

٦ ـ تقلص ظل المخطوطات العربية بانتشار المطابع

على اثر توفّر المطابع العربية انتشرت الطباعة رويداً رويداً في جميـع ارجاء الشرق الادنى . فعمّت او كادت تعم المدن والدساكر من شاطىء دجلة حتى وادي النيل . وقد اكتفينا بذكر النزر من بواكير المطابع العربيـة في الشرق تنويراً لمن تهمه معرفة ذلك .

وبداعي اختراع الطباعة أخذ يتقلّص ظل المخطوطات تدريجـاً بزيادة انتشار المطابع . وصار عليها وحدها المعوّل في تجهيز خزائن الكتب بمختلف التصانيف . ومن ذلك الحين قلّت المخطوطات في انحاء الشرق بعد ما كانت حافلة بها خزائن اديارە ومساجده ومدارسه وبيوت علمائه . ذلك إما لانها تلفت لكثرة ما تداولتها الايدي . وإما لانها نُقِلت الى مكتبات الغرب ومتاحفه . فغدت من دواعي التفاخر والزينة في مكتباتنا لندرتها وقدامة عهدها وتفنن الخطاطين في نساختهـا وزخرفتها .

---

(١) مجلة المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٧١٥

الفصل السادس

مشاهير الكتاب والنساخ المسلمين والمسلمات

١ ـ نوابغ الكتاب في القرون الاولى للهجرة

أقدم من أطلق عليه في الاسلام لقب «كاتب» فيما نرجح هو عبد الحميد الكاتب قُتل في الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة . وكان على قول مؤلف «العقد الفريد» اول من فتّق أكمام البلاغة وسهّل طرقها وفك رقاب الشعر . ضُربت الامثال ببلاغته . والى ذلك اشار البحتري في قصيدته الى محمد بن عبد الملك قال (١) :

وتفنّنتَ في البلاغة حتى　　　عطل الناسُ فن عبد الحميدِ

وجاء بعد عبد الحميد مئات ومئات من العلماء والنساخ تغلّب عليهم لقب «كاتب» نكتفي بذكر بعضهم في ما يلي : ايوب بن محمد الكاتب (٢) وكان صديقاً لابي نواس (١٤٥ ـ ١٩٥ هـ) وخالد بن يزيد الكاتب الذي أنشد هذين البيتين في تفاحة كتب عليها الخليفة هرون الرشيد بغالية قال (٣) :

تفّاحة خرجتْ بالدر من فيها　　　أشهى اليّ من الدنيا وما فيها
بيضاءُ من حمرةٍ غَلـَت بغاليةٍ　　　كأنما قُطِفَت من خدّ مهديها

---

(١) محاضرة عن عبد الحميد الكاتب : لمحمد كرد علي (مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٥١٣ فما بعد

(٢) اخبار ابي نواس : لابن منظور المصري : سفر ١ صفحة ١٤٣

(٣) مروج الذهب : للمسعودي : جزء ٢ صفحة ٢٢٣

وممن تفرد في عصره بحسن الخط وكثرة النسخ الامام البخاري الشهير . فانه أتقن الكتابة بكلتا يديه اليمنى واليسرى . وحلت منيته عام ٢٦٥ للهجرة .

وحدّث ابو الحسين علي بن هشام الكاتب قال : « سمعت الوزير ابا الحسن يقول لابي عبد الله احمد بن محمد بن ثوابة متولي الديوان في خلافة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) ما نصه : ما احدٌ على وجه الارض أكتبُ من جدّك . وكان ابوك أكتبَ منه وانتَ أكتَبُ من أبيك (١) .

ومن مشاهير الكتّاب ابو علي الحصاري الكاتب عاش في القرن الثالث للهجرة. وقد وُلّي ابوه إمرة دمشق في ايام المعتصم (٢) . وقدامة بن جعفر (٣١٠ هـ) الكاتب البغدادي (٣) ومحمد بن بحر الاصبهاني الكاتب (٢٥٤ - ٣٢٢ هـ). وسهيل بن هرون الكاتب المتوفى سنة ٣٨٠ للهجرة واخوه سعيد بن هرون الكاتب (٤٠٠ هـ) وكانا خازنين لبيت الحكمة في بغداد . والمسبّحيّ الكاتب الحرّاني مؤلف كتاب « السوأل والجواب » (٤) توفي سنة ٤٢٠ للهجرة . وابو صالح النيسابوري الكاتب (٣٨٨ - ٤٧٠ هـ) .

٢ - نوابغ الكتاب في القرنين السادس والسابع للهجرة

ممن اشتهروا بلقب كاتب في القرن السادس نذكر : ابا عباس الانصاريّ الخزرجي (٤٩٢ - ٥٦٩ هـ) الكاتب خازن مكتبة الحكمة في مراكش . ومحمد السالميّ الاندلسيّ الوزير الكاتب (٥) . كان حياً بعد السنة ٥٥٠ للهجرة . وعلي

---

(١) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ٤ صفحة ٢٤٣
(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر : مجلد ٤ صفحة ١٧٢
(٣) معجم المطبوعات العربية والمعربة : صفحة ١٤٩٤-١٤٩٥
(٤) كشف الظنون : لحاجي خليفة : مجلد ٢ صفحة ٢٨١
(٥) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : لجلال الدين السيوطي : صفحة ١٥

بكري خادم مكتبة المدرسة النظامية في بغداد المتوفى سنة ٥٧٥ للهجرة . وابا حامد عماد الدين الكاتب (١) الاصفهاني الشافعي (٥١٩ - ٥٩٧ هـ) .

واشتهر في القرن السابع : محمد ابن عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله الشاعر والكاتب (٢). وابوالحسين بن دينار الكاتب الذي قتله التتر سنة ٦١٧ للهجرة (٣). وابو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب . واحمد بن يوسف الكاتب (٤) . وابو الفرج بن الجوزي الكاتب الذي صرح في آخر عمره على المنبر قائلاً : « كتبتُ باصبعيَّ هاتين ألفي مجّلدة (٥) » . وجمال الدين المعروف بابن الجمّالة الكاتب . وابن الوحيد وغيرهم .

وممن تفرّد بجودة الخط وكثرة النسخ في تلك الحقبة ابو عمرو بن قدامة (٥٢٨-٦٠٨ هـ) . قال عنه الحافظ الضياء المقدسي في رسالته : « كتب الكثير بخطه مثل (الحلية) لابي نعيم و(الابانة) لابن بطة وتفسير (البغوي) و(المقنع) في الفقه . وكان يكتب لاهله المصاحف وينسخ (الخرقي) للناس بلا اجرة . وكان يقول : ربما كتبت في اليوم كراسين بالقطع الكبير (٦) »

واشتهر بعد ذلك احمد بن عبد الدائم (٥٧٥-٦٦٨ هـ) المولود في جبل نابلس . ارتحل الى بغداد وكتب بخطه المليح السريع ما لا يوصف لنفسه او بالاجرة . وكان اذا تفرغ كتب في اليوم تسعة كراريس . ولازم الكتابة مدة خمسين سنة فبلغ مجموع ما كتبه في حياته ألفي مجلدة كما ورد في شعرٍ له قال (٧) :

---

(١) الخزانة الشرقية : لحبيب زيات : جزء ٢ صفحة ٣٩
(٢) الخزانة الشرقية : لحبيب زيات : جزء ٢ صفحة ٣٩
(٣) بغية الوعاة : صفحة ١١
(٤) صبح الاعشى : للقلقشندي : جزء ٢ صفحة ٤٦٤
(٥) نفح الطيب : جزء ٣ صفحة ٨٧
(٦) المدرسة العمرية : بقلم محمد اسعد طلس (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد ٧ صفحة ٢٢ في ١ تموز ١٩٤٠)
(٧) نكات الهميان : صفحة ٩٨

عجزتُ عن حمل قرطاسٍ وعن قلمٍ   من بعد إلفيَ بالقرطاس والقلمِ
كتبتُ ألفاً وألفاً من مجلدةٍ   فيها علومُ الورى من غير ما ألمِ
العلم زينٌ وتشريفٌ لصاحبه   فاعملْ به فهو للطلاب كالعَلَمِ
ما زلتُ اطلبهُ دهري واكتبُهُ   حتى ابتُليتُ بضعف الجسم والهرَمِ

٣ ـ نوابغ الكتاب في القرن الثامن فما بعده للهجرة

من اصحاب هـذا اللقب في القرن الثامن : علاء الدين الكندي الدمشقي الكاتب ابن وداعة (٦٤٠ـ ٧١٦ هـ) (١) . وابن الفوطي الصابوني الكاتب (٦٤٢ ـ ٧٢٣ هـ) والخازن البغدادي (٦٧٨ ـ ٧٤١ هـ) الكاتب . وابو زكريا بن سرّاج الكاتب . واحمد بن المنان الكاتب من علماء القرن الثامن للهجرة (٢) .

ونضم الى من تقدم ذكرهم : ابا عثمان سعيد بن حميد الكاتب (٣) . وابا الفتح الاطرابلسي المقري الكاتب (٤). وابن سعد الكاتب . والعمّار الكاتب . وابا القاسم عبيد الله النردشيريّ الكاتب . وابرهيم بن احمد بن الليث الازدي اللغوي الكاتب . واحمد بن اسكندر الرومي الكاتب . ورشيد الدين الوطواط الكاتب . وابا القاسم خلف الغافقيّ القبتوريّ الكاتب (٥) . ومحمد بن موسى الكاتب . وابرهيم بن قاسم الكاتب . وعليّ اللواتي الابياريّ الكاتب (٧٥٠ ـ ٨١٤ هـ) وغيرهم .

٤ ـ رؤساء الكتاب والمكتبون

بين الكتّاب مَن فاق غيره بالذكاء والتفنن واناقة الخطّ وغير ذلك من مزايا

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٨٦
(٢) اتحاف اعلام الناس في اخبار مكناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ١ صفحة ٢١٢
(٣) الفهرست لابن النديم
(٤) التاريخ الكبير : لابن عساكر : جزء ٣ صفحة ٤١٨
(٥) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٦٢٤

الكتابة . وقد أطلق عليهم الملوك والامراء نعوتاً خاصة ولقبوا بعضهم بلقب «رئيس الكتّاب» تمييزاً له عن سائر اصحاب هذه المهنة . ومن اشهر «رؤساء الكتّاب» نذكر : ابا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البخاري . وابا محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي . وذا الوزارتين ابا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم (١) وابا الحسن بن الجياب (٢).

ويقال عند العرب لمعلم الكتابة « المكتّب ». واشهر من عُرف بهذا اللقب بل أقدمهم هو الحجاج بن يوسف (٤١ - ٩٥ هـ) وكان مكتّباً بالطائف (٣) . وممن عُرف بهذا اللقب ايضاً ابو ابرهيم بن محمد البذيخوني المكتب (٤) ومحمد بن اسماعيل المكتب في بغداد (٥) . وابو الطيب محمد بن جعفر المكتب المتوفىّ سنة ٣٧٧ للهجرة (٦).

وأطلق لقب «المكتبي» على صاحب المكتب او على المعلم في المكتب . وممن اشتهر بهذا اللقب محمد بن احمد المكتبي في حلب . المتوفى سنة ١١٧١ للهجرة . اشتغل اولاً باقراء الاطفال ثم عاشر العلماء ودرس عليهم (٧) . وممن اطلق عليه اللقب عينه الشيخ ابرهيم المكتبي الحفني وتربتُهُ في باب النيرب بحلب (٨)

٥ - اشهر النساخ المسلمين في الازمنة السالفة

كما أطلق لقب «كاتب» على مَن امتاز بالكتابة أطلق كذلك لقب «ناسخ»

---

(١) نفح الطيب : جزء ٣ صفحة ٢٦١ (٢) نفح الطيب : جزء ٣ صفحة ٢٩٨

(٣) اقرب الموارد : لسعيد الشرتوني : جزء ٢ صفحة ١٠٦٤

(٤) معجم البلدان : لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٩٤

(٥) تاريخ بغداد : لابي بكر الخطيب البغدادي : جزء ٢ صفحة ٥٢

(٦) تاريخ بغداد : لابي بكر الخطيب البغدادي : جزء ٢ صفحة ١٤٦

(٧) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : لراغب الطباخ : جزء ٦ صفحة ٥٤٠-٥٤٤ ومنظومة الشيخ وفا في اولياء حلب : رقم الشعر ١٩٩ للاب فرديناند توتل

(٨) منظومة الشيخ وفا : رقم الشعر ١٧٨

على من تفرد بالنساخة . وأقدم من عرّفه التاريخ بهذا اللقب علان الشعوبي الذي كان ينسخ في «بيت الحكمة» للرشيد والمأمون والبرامكة (١) . واشهر النساخ من بعده ابو جعفر الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) المؤرخ المشهور . فقد قيل انه قضى اربعين سنة يكتب كل يوم اربعين صفحة (٢) . ثم ابو عبد الله الناسخ وقد ورد في «تاج العروس» انه نسخ بخطه ألف مصحف . وجاء بعده جمال الدين المزّي القضاعي الذي نسخ المليح المتقن كثيراً لنفسه ولغيره . وكان ذا مروءة وسماحة باذلاً لكتبه (٣) .

اما ابو بكر الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ للهجرة . فلم يكن يفارق النسخ بل كان يسوّد او يبيّض (٤) . وروى ابو جعفر القصري المتوفى سنة ٣٢١ للهجرة أنه ما جفّ له قلم مدة اربعين سنة لكثرة ما نسخه من الكتب (٥) . وبلغت كتب ابي العرب التميمي المتوفى سنة ٣٣٣ للهجرة ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب كلها بخط يده (٦) . وكان عبدالله بن سليمان الحارثي بارعَ الخط يكتب بيده اليسرى لتعذر اليمنى . ولم يكن يخرجها من ثوبه ولم يعرف احد ُعذرها (٧) .

ويُحكى عن الامام ابي عبد الله محمد الازديّ الحميديّ الاندلسيّ تلميذ ابن حزم انه كان كثير الاجتهاد في نسخ الكتب . فلما ارتحل الى مكة صار ينسخ الكتب بالليل من شدة القيظ وهو جالس في إجانة ماء يتبرد به . وحلّت وفاة الامام ابي عبدالله سنة ٤٩١ للهجرة (٨) . واشتهر بعده شجاع بن فارس الذهلي

---

(١) الفهرست : لابن النديم : صفحة ١٠٥
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٩٨
(٣) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٨٠-٢٨١
(٤) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري : صفحة ٢٧٤-٢٧٥
(٥) معالم الايمان في معرفة اهل القيروان : للشيخ عبد الرحمن الدباغ : جزء ٣ صفحة ١١
(٦) معالم الايمان في معرفة اهل القيروان : جزء ٣ صفحة ٤٣
(٧) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : لجلال الدين السيوطي : صفحة ٢٨٣
(٨) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٣٧٥

(٤٣٠ ـ ٥٠٧ هـ) الذي نسخ بخطه من التفسير والفقه ما لم ينسخه احدٌ من النساخ . وقلّما وُجد بلد من بلاد الاسلام الا وفيه شيءٌ من خط شجاع (١) .

ومَن كتب ونسخ كثيراً بين فلاسفة الاسلام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٦ للهجرة . فانه عُني بالعلم منذ صغره الى كبره ولم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل الا ليلة وفاة ابيه . وقيل انه سوّد في ماصنّف وقيّد وألّف وهذّبْ واختصر نحو من عشرة آلاف ورقة (٢) .

ومن اهل النسخ ايضاً ابو علي محمدبن الحسن بن الهيثم انتقل من البصرة الى مصر وسكنها الى آخر عمره . فاقام في الجامع الازهر حيث اشتغل بالتأليف والنسخ . وكان يبيع في كل سنة ثلاثة كتب من نسخه وهي : كتاب « اقليدس » وكتاب « المتوسّطات » وكتاب « المجسطيّ » . وكان ثمن تلك المخطوطات محدّداً بمائة وخمسين ديناراً مصرياً لا يقبل فيه مواكسة ولا معاودة قول . وكان يجعلها ابن الهيثم مؤونة حياته طول سنةٍ وظلّ كذلك الى حلول أَجله (٣) .

وجارى فخر الدين المارديني من تقدم ذكرُهم من فلاسفة الاسلام في كثرة النسخ وجودة الخط . فانه جمع في حياته خزانة كتب عظيمة نسخَ اغلبها بخط يده وغالى في ضبطها واتقانها .

ومن كبار النسّاخين مهذّب الدين عبد الرحيم الدخوار المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة . اليه انتهت رئاسة صناعة الطب في زمانه . وواظب على النساخة وكان خطّه منسوباً . وقد كتبَ كتباً كثيرة بخطه رأى منها ابن ابي أصيبعة نحو مائة مجّلد واكثر في الطب وغيره (٤) . ومنهم ابن الجوهري المحدّث المتوفىّ سنة ٦٤٣ للهجرة .

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٣٦-٣٧

(٢) تاريخ فلاسفة الاسلام : تاليف محمد لطفي جمعة : صفحة ١٢٣

(٣) تاريخ فلاسفة الاسلام : تاليف محمد لطفي جمعة : صفحة ٢٢٧

(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء : لابن ابي اصيبعة : جزء ٢ صفحة ٢٣٩

كتب ما لا يُوصَف كثرةً واستنسخ وأنفق ميراثه في هذا الشأن (١) . ومنهم عزّ الدين ابو اسحق ابرهيم بن محمود بن السويديّ . وُلد بدمشق سنة ٦٠٠ للهجرة ودرس الطب على الدخواز . وخدم المستشفى النوري الكبير ونسخ بخطه كتباً كثيرة (٢) .

وعُرِف في القرن السابع للهجرة كمال الدين الحلبي الشهير بابن العديم . صنّف تاريخاً لحلب وطنهِ سماه «بغية الطلب في تاريخ حلب» في اربعين مجلداً . وهو معدود كمؤرّخ صادقٍ ثبت الرواية بليغ العبارة . وكان كمال الدين لا ينقطع عن النساخة والتأليف حتى في اسفاره . فاذا سافر جلس في محفّة يحملها بغلان فينسخ ويصنّف او يطالع ويبيّض كأنهُ في مكتبهِ . وقد اختصر تاريخه المذكور بتاريخ آخر دعاه «زبدة الطلب في تاريخ حلب» ثم توفي سنة ٦٦٠ للهجرة (١٢٦٢ م) . وقد عُنِي الاوروبيّون بنقل هذا التاريخ الى اللغة الفرنسية وطبعوه لكثرة فوائده (٣) . وله مصنّفات شتى منها كتاب في «الخط» وعلومه وآدابه ووصف ضروبه واقلامه على ما ذكر ابن شاكر في كتاب «فوات الوفيات» .

وممن اشتهر بالاجادة في نسخ الكتب ابو السعود بن الكازرونيّ (٩٨٠-١٠٥٨) . كان له همة عظيمة في النسخ لم يضيع اوقاته سدًى فجمع بذلك مكتبة نفيسة بخطه (٤) . ولم يقل شهرةً عنه محمد بن عبد الوهاب الوزير الغسّانيّ الاندلسي الفاسيّ المتوفى سنة ١١١٩ للهجرة . فانه ظلّ مدةً طويلةً يكتب لمولاي اسمعيل سلطان المغرب الاقصى (١٠٨٢ - ١١٣٩ هـ) . وكان نجيباً في ذلك . وتولى نساخة جميع الاوامر السلطانية واستوفاها دون ان يغرب عنه شيء منها على كثرتها . وكانت له سرعة في نساخة الكتب لا تُعرف لغيره (٥) .

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٤٢

(٢) عيون الانباء في طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ٢٦٦

(٣) اطرب الشعر واطيب النثر : للاب شيخو : قسم ٢ صفحة ١٨٣-١٨٤

(٤) خلاصة الاثر : جزء ١ صفحة ١٤٤

(٥) رحلة الوزير في افتكاك الاسير : المقدمة صفحة ١٠ واتحاف اعلام الناس : جزء ٤ صفحة ٦١

وروى الجبرتي عن رضوان الفلكيّ مؤلف «الزيج الرضوانيّ» انه خلّف مصنّفات وتحقيقات لا يمكن ضبطها لكثرتها . وقد كتب رضوان بخطه ما ينيف على حمل بعيرٍ من مسودّات وجداول وحسابات وغير ذلك . كانت سكناه ببولاق وتوفي سنة ١١٢٢ للهجرة (١) .

٦ - اشهر النساخ المسلمين في الازمنة الحاضرة

ممن اجاد النساخة وأتقنها وضبطها واكثر منها بين المسلمين في الازمنة الاخيرة نذكر :

اولاً : المكيّ بن المختار الخنّاش المفوّه الجليل كان أوحد زمانه في الادب والانشاء نساخاً للكتب شديد المحافظة والضبط والاتقان . انتقاه مولاي عبد الرحمن بن هشام سلطان المغرب الاقصى لينسخ الكتب الخطيرة لخزانته السلطانية . وتوفي في حدود السنة ١٢٧٠ للهجرة (٢) .

ثانياً : الشيخ ابرهيم الاحدب (١٢٤٢ - ١٣٠٨ هـ) الذي سبق لنا وصف مكتبته بين المكتبات الاسلامية الخاصة ببيروت. فانه نسخ بيده ما أربى على الف كتاب ورسالة (٣) في جملتها نسخٌ شتى كتبها لفائدة تلاميذه كما روى لنا نجله حسين بك الاحدب . أخصها « حاشية الصبّان » فقد نسخها اربع مرات متوالية . وكان الشيخ ابرهيم لا يكلّ ولا يملّ من التأليف والنساخة ليله ونهاره (٤) .

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : للجبرتي : جزء ١ صفحة ٧٧

(٢) اتحاف اعلام الناس : جزء ٤ صفحة ٣٠٩

(٣) فرائد اللآل في مجمع الامثال : المقدمة : صفحة ٣ وتراجم مشاهير الشرق : لجرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٦٦

(٤) الشيخ ابرهيم الاحدب والنهضة العلمية في القرن التاسع عشر : لفيليب دي طرازي : صفحة ٤

ثالثاً : من ابرع النسّاخين في دمشق الشيخ رضا البابا (١٢٨٠ - ١٣٥٥ هـ) أطلق على اسرته لقب « البابا » لان احد اجداده كان شيخاً للدباغين . وغير خافٍ ان كل من تولى رئاسة حرفة الدّباغين في دمشق لُقّبَ بالبابا . وأولع الشيخ رضا منذ صباه بالخط فصار يتردّد على المكتبة الظاهريّة وينسخ نفائس مخطوطاتها. ومن آثار براعته التي اطّلَعنا عليها كتاب « الشطرنج » وكتاب « ارسطوطاليس » وكتاب في الطبّ وغير ذلك .

رابعاً : الشيخ محمد نعسان الوردي الحموي كان من اجود الخطّاطين في القرن الثالث عشر للهجرة. نسخ بيده على ما روى لنا ابن حفيدهِ نحواً من مائة مصحف أتقن زخرفة فواتحهـا وعناوين سُوَرِها . واشتهر بعده ابنه الشيخ مصطفى في تنميق المصاحف الشريفة ونساخة التآليف القديمة . وبرع خصوصاً في كتاباته التاريخيـة على الاضرحة والجسور والمباني العامة مما يشهد له بالتفوّق في صناعة الخط .

خامساً : اشتهر بالنساخة في المغرب الاقصى عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد المالك بن زيدان . وكان وجيهاً ظريفاً لَسِناً ذا خط بارع. نسخ كثيراً من الكتب التاريخية والفقهية والادبية وتولى ايضاً نساخة كتب مهمة لخزانة مولاي السلطان حسن (١٢٩٠ - ١٣١١ هـ) الذي أجازه على ذلك بأعطيات سخية . وحلّت وفاة عبد القادر عام ١٣٢١ للهجرة (١) .

سادساً : من انشط النسّاخين الدمشقيّين الذين تعرّفنا اليهم واطّلعنا على آثارهم محمد صادق فهمي ابن السيد امين المالح . تولى النساخة في المكتبة الظاهرية فكتب بخطه الانيق عدداً وافراً من المؤلفات القديمة أحيا بها ذكرى مصنّفيها . واقتنينا لمكتبتنا الخاصة بعض مخطوطات قلمه نذكر منها : كتاب « التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار » مزداناً بنقوش جميلة . منه نسخة فريدة في المكتبة الظاهرية المشار اليها. اما مؤلف هذا الكتاب فهو الشيخ محمد بن خليل الاسديّ. وقد اهدينا

---

(١) اتحاف اعلام الناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ٤ صفحة ٢٥٣

المخطوط المذكور الى مكتبة دير الشرفة (١) في جملة ما اهديناه اليها من الكتب المخطوطة والمطبوعة .

٧ ـ اشهر النساء المسلمات الكاتبات

في تواريخ العرب اسماء فئة كبيرة من النساء الكاتبات اللواتي تفرّدنَ بالثقافة العالية وجودة الخط وجمال الادب . ومن شهيراتهن عائشة بنت احمد القرطبيـة لم يكن في زمانها بين حرائر الاندلس مَن عادلهاعلماً وفهماً وادباً وفصاحةً وشعراً . مدحت ملوك الاندلس وخاطبتهم بما عرض لها من حاجة . وكانت حسنة الخط كتبت المصاحف وماتت عذراء عام ٤٠٠ للهجرة (٢)وقد خطبها بعض الشعراء ممن لم تَرْضهُ فاعرضت عنه ثم كتبت اليه تقرّعه بهذين البيتين :

انا لبوةٌ لكنني لا ارتضي	نفسي مناخاً طول دهري من أحدْ
ولو انني أختار ذلك لم أجِبْ	كلباً وكم غلّقتُ سمعي عن أسدْ

وفي القرن السادس للهجرة برعت امرأة من فضليات النساء اخذت الخط عن محمد بن عبد الملك تلميذ ابن البوّاب حتى انتهت اليها هذه الصناعة في عصرها . وهي الشيخة المحدِّثة الكاتبة «زينب» الدينورية الملقبة بشهدة بنت الابريّ . وعنهـا اخذ امين الدين ياقوت وغيرُه من نوابغ الخطاطين (٣) . وقد انافت الى التسعين من سنها وتوفيت ببغداد في ١٣ محرّم ٥٧٤ للهجرة .

وذكر احمد ابن ابي خالد جاريةً كاتبة فقال في وصفها : «كان خطهـا اشكال صورتها ومدادُها سواد شعرها وقرطاسهـا اديم وجهها وقلمها بعض أناملها وبيانُها سحر مقلتها (٤) .

---

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٩٦ ٤

(٢) نفح الطيب : مجلد ٢ صفحة ٤٩٢-٤٩٣

(٣) رسالة الخط بقلم الشيخ احمد رضا : صفحة ١٩

(٤) محاضرات الادباء : للراغب الاصبهاني : جزء ١ صفحة ٧ ٤

ومن شهيرات الكاتبات اللواتي كنّ يكتبن للامراء نذكر : مزينة كاتبة الامير الناصر (١) . ولبنى بنت عبد المولى وكانت كاتبة الخليفة المستنصر بالله وقيل بل كانت جاريتَه . وكانت تكتب الخط الحسن وتجيد قواعده . وكانت حاذقةً بصيرةً بالحساب والعروض شاعرةً وُلدت في الاندلس وتوفيت سنة ٣٩٤ للهجرة .

وفي السنة ٤٨٠ للهجرة توفيت فاطمة بنت الحَسن بن عليّ الاقرع . ولعلّ كنيتها أمّ الفضل البغدادية الكاتبة التي جوّدوا على خطها . وكانت تقلد طريقة ابن البوّاب المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة . ويُحكى انها كتبت ورقة للوزير الكندريّ فنفحها بالف دينار .

ونضمّ اليهنّ الكاتبة «بادشاه خاتون» . وهي ابنة محمد بن حميد تابنكو . كانت فاضلةً اديبةً شاعرةً وكانت تكتب الخط الحسن . وقد كتبت من المصاحف الشريفة ما لا نظير لها وقد جاء ذكرها في مرآة الادوار .

وسبقنا فروينا في غير هذا المحلّ نقلاً عن تاريخ ابن فياض «انه كان بالربض الشرقيّ في قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن كلهُنّ المصاحف بالخط الكوفيّ» . فاذا كان ذلك كذلك فكم كان من النساء الكواتب في جميع ارباض قرطبة التي بلغت ثمانية وعشرين ربضاً ؟ (٢) .

---

(١) رحلة الاندلس للبتنوني : صفحة ٣١

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥

الفصل السابع

مشاهير الكتاب والنساخ النصارى

١ - نساخة الكتب في الاديار النصرانية

مثلما اشتهر المسلمون بالكتابة والنساخة في عصورهم قام كذلك بين النصارى رهط عظيم من الكتّاب والنسّاخ خدموا الآداب العربية ورفعوا ألويتَها شرقاً وغرباً . وتجلّى هذا الامر بكل وضوحه خصوصاً في الصوامع والمناسك والإديار التي بلغ عددها الالوف في الاصقاع الشرقية . وكان الرهبان مع اعتكافهم على الزهد والقنوت ينصرفون ايضاً الى كتابة الاسفار الدينية ونساخة المؤلفات العلمية والادبية والفلسفية والتاريخية . فزينوا المكاتب العربية بآثارهم القلمية وأدوا للمعارف اعظم خدمة يردّدها لهم التاريخ جيلا بعد جيل .

وإلى اولئك النساك المجتهدين يرجع الفضل في صيانة كتب شتى كانت لولاهم مفقودة لا اثر لها . تلك حقيقة ناصعة أيدها مؤرخو جميع الاعصار والامصار . نذكر منهم البحاثة المصري محمد فريد وجدي قال : فلما جاءت القرون الوسطى كانت المكتبات القديمة بين يونانية وورومانية قد ادركها العطب . فلم يبقَ منها الا عدد نزر من المؤلفات القديمة . فكان للكنيسة المسيحية الفضل في الاستيلاء عليها وحفظها بين جدرانها بعيدة عن الضياع . . . وما بقي من آثار الاقدمين لم يوجد الا في الكنائس المسيحية (١) .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦١

٢ - نقل مخطوطات ثمينة من تكريت الى اديار مصر

وتأييداً لذلك نروي خبراً من الوف الاخبار يبرهن عن شديد حرص الرهبان على خزائن مخطوطاتهم . وهو ان مفارنة (١) السريان انشأوا في تكريت مركزهم مكتبة عامرة بالكتب والآثار الثمينة . غير ان الرزايا تتابعت عليها بتوالي القرون ولا سيما عندما غزا الطاغية تيمور سنة ١٣٨٧ م تلك النواحي . فأنزل فيها ضروب النكبات وأهدر دماء العباد ودمّر كل ما صادفه فيها من مظاهر الحضارة والعمران . واجهز على مكتبة تكريت المشار اليها فلم يسلم من مخطوطاتها وآثارها الا ما استطاع الرهبان اخفاءه . وحذراً من ان تلفح الكوارث المتواصلة تلك البقية الثمينة نقلها رهبان تكريت وتجارهم على ظهور البهائم الى دير السيدة في وادي النطرون بمصر . وقد عانوا مشقات اسفار طويلة حتى أوصلوا تلك الذخائر الكتابية الى الدير المذكور الذي اعتادوا الاختلاف اليه منذ القرن السابع للميلاد . ونظراً الى خطورة تلك المخطوطات المكتوبة على الرقوق فان المتحف البريطاني اشترى سنة ١٨٤٢ طائفة منها بما وازى ثقلها ذهباً كما سبق القول في غير هذا الفصل .

٣ - ذكر بعض اديار الشرق وانتشار النساخة والوراقة فيها

لما كان يصعب احصاء النساخ في كل دير من الاديار المسيحية لسبب كثرتها نجتزىء بالقول ان عدد تلك الاديار في مصر وحدها كما اثبت الانبا مكاريوس بلغ ستمائة دير (٢) . واربى عددها في الرها على ثلاثمائة دير (٣) سكنها تسعون الف

---

(١) المفارنة جمع مفريان وهو لقب ديني محصور في الملة السريانية اليعقوبية يتمتع صاحبه بامتيازات دون البطريرك وفوق المتربوليت (راجع كتاب Primat d'Orient, par Paul Hindo, 1936)

(٢) كتاب « وادي النطرون » : صفحة ١٦١

(٣) صبح الاعشى : مجلد ٤ صفحة ١٣٩

راهب (١) وبلغ عدد الديورة في سوريا الجنوبية واطراف دمشق مائة واربعة وعشرين ديراً (٢) . وورد في كتاب العفة للمؤرخ يشوع دناح البصري اسماء نيف ومائتي دير شيدها المسيحيون في الاقطار العربية والفارسية (٣) . واحصى الاب شيخو اديارا وافرة العدد في جزيرة العرب وغسان وحوران والغور وشبه جزيرة سينا والعراق والجزيرة وشرقي بلاد الشام وجبال طي (٤) . وكان في طورعبدين شرقي مدينة ماردين اكثر من مائتي دير لم تزل آثار بعضها ماثلة حتى الآن . وحباً للايجاز نضرب صفحاً عن مئات من الاديار انتشرت واشتهرت في فلسطين وجبل لبنان وضواحي انطاكية وبلاد ما بين النهرين وغيرها .

وتعاقب في تلك الاديار ايام عزها عشرات بل مئات الالوف من الرهبان العلماء يدرسون ويبحثون ويؤلفون ويترجمون . ومنهم رهبان كانوا ينسخون الكتب وينقحونها وينمقونها ويضبطونها ويجلدونها . وكان فريق آخر يتعاطى بري الاقلام وأرياش الطير ويقوم بصنع الحبر المختلف الالوان . وفريق يهيّىء الرقوق والجلود والكاغد لكتابة المخطوطات وتنميتها وزخرفتها . ويشاهد حتى في يومنا هذا فئة من الرهبان الكلدان ينسخون الكتب ويجلدونها في اديارهم المجاورة لمدينة الموصل .

٤ - وصف انجيل منسوخ بحروف ذهبية وغلافه مدّبج بالجواهر

من المقرر اذن لو سلمت تلك الاديار العديدة ممّا اصابها من الرزايا والكوارث على توالي الازمان لحوت خزائنها في يومنا ملايين من المخطوطات النفيسة التي لا

---

(١) تاريخ الرهاوي : صفحة ١٠٨ (طبعة البطريرك افرام رحماني في دير الشرفة)

(٢) فهرس مخطوطات المتحف البريطاني : رقم ٧٥٤ صفحة ٧٠١ و ٧١٤

(٣) كتاب العفة : سنة ١٩٠١ طبعة بيجان

(٤) نحيل القارىء الى مطالعة اسماء تلك الاديار في كتاب « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » للاب شيخو

تقدَّر بثمن . وعلى سبيل المثال نذكر نسخة من كتاب الانجيل كبيرة الحجم قديمة العهد كُتبَت حروفها كلها بالذهب والفضّة . وزُيّنَت صفحاتُها من اوّلها الى آخرها بنقوش رائعة . وكان غلاف هذا الانجيل البديع مدبجاً بالجواهر واللآلىء النفيسة . وقد وقع في يد الاتراك لدى استيلائهم على جزيرة قبرس فنقلوه الى القسطنطينية وانتزعوا الجواهر عن غلافه الثمين . وفي اوائل القرن السابع عشر حمله احدهم الى حلب فاشتراهُ بطريرك السريان اغناطيوس بطرس الخامس (١٥٩٨ - ١٦٣٩) المعروف بابن هدايا وضمّه الى مكتبته في حلب (١) .

٥ - البطريرك يوحنا برشوشن ونسخه الكتب حين اسفاره

لسنا نرى ان نغمض عن ذكر كاتب شهير ثابرَ على نسخ الكتب طول مدة رهبنته وبطريركيّتهِ معاً . وهو البطريرك يوحنا برشوشن (١٠٦٤ - ١٠٧٣ م). فقد اثبت عنه ابو الفرج ابن العبري انه كان متضلعاً من العلوم المنطقية والبيعية ومولعاً بالتأليف ونسخ الكتب . ومما يؤثر عنه انه كان اذا ارتحل من بلدٍ الى بلدٍ وجلس للاستراحة أخذ القلم وجعل يسوّد ويبيّض . هكذا نسخ برشوشن ونقّح كتباً وافرة ما برح بعضها مكنوزاً الى هذا اليوم في اشهر الخزائن ولا سيما في مكتبة لندن .

٦ - بعض النساخ في الكنائس والاديرة

اقدم ناسخ نصراني عربي عثرنا على كتابةٍ له بخطّهِ « اصطفاني بن حكم المعروف بالرملي في سيق ماري خريطن (٢) » . فانه نسخ بخطه مجلداً يشتمل على تأليفين

---

(١) الآثار الخطية للاب انطون رباط : صفحة ٣٨٨ و ٣٨٩

(٢) اعني : اسطفانس بن حكيم الرملي في دير مار خريطون منشىء الحياة النسكية في الديار الفلسطينية

لثئودورس ابي قرة (+ ٨٢٠ م) اسقف حرّان الملكيّ . احدهما في عبادة الصوَر وثانيها في ملخص العقائد النصرانية . وقد انجزهما في كنيسة القيامة ببيت المقدس سنة ١١٨٨ من سنيّ الاسكندر (الموافقة للسنة ٨٧٧ م) . وهذا المخطوط محفوظٌ منذ السنة ١٨٩٥ في المتحف البريطانيّ بلندن (١) .

ومن قدماء النساخ في الكنائس والاديار دويد (داود) العسقلاني الذي كان يكتب على رقّ بالقلم الكوفي . ومن آثاره الباقية الى يومنا كتاب مواعظ نسخهُ في كنيسة القيامة بالقدس سنة ٦٤١٧ للعالم (الموافقة للسنة ٩١٠ م). واشتهر بعده بزمن قليل القس بقطر الدمياطي المترهب بدير سينا . ولم يزل في خزائن هذا الدير مخطوطات جمة نسخها بيده . نذكر منها اناجيل الآحاد والاعياد مكتوبة بالعربية واليونانيـة في حقلَين متقابلَين يرتقي عهد نساختها الى السنـة ٣٨٥ للهجرة (٩٩٥ م) (٢) .

وُعرف في القرن الثالث عشر للمسيح الراهب بيمين الدمشقي الذي لم يتفرّد بحسن الخط العربي فقط بل امتاز بفنّ التصوير ايضاً . ومن مخلّفاته كتاب « العهد العتيق » فانه نسخهُ سنة ١٢٣٦ م ووشّاهُ بصورٍ بديعةٍ (٣) . وكتاب « العهد العتيق » هذا منقول عن النسخة الاصلية المكتوبة في انطاكية سنة ٦٥٣٠ للعالم (١٠٢٢ م) .

وللراهب بيمين الدمشقي بعض مخطوطات نسخها سنة ٦٧٤٥ للعالم (١٢٣٧ م) وهي محفوظة في المتحف البريطاني (Catal. II N° 79) وهو ايضـاً ناسخ تآليف يوحنا الدمشقي المصونة في المكتبة الواتيكانيـة (Mai N° 79) سنـة ٦٧٣١ للعالم

---

(١) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١٠١١

(٢) مكتبـة دير سيناء : بقلم يسى عبد المسيح (مجلة الراعي الصالح بالاسكندرية مجلد ١ سنة ١٩٤٠ صفحة ٤٧-٤٩

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية في المكاتب البطرسبرجية : بقلم اغناطيوس كرتشقوفسكي

(١٢٢٣ م (١)) . ويُقرأ في تلك المخطوطات اسم « سابا السيقيّ » مضافاً الى اسم بيمين الدمشقي .

ونسخ الراهب صفرونيوس بن موسى ابن الحاج سليمان الطرابلسي « الرسالة اللاهوتية التاريخية في مذاهب النصارى » في امطوش القيامة المقدسة سنة ١٦٤٢ ميلاديّة (٢) .

٧ – مشاهير النساخ النصارى في سالف الازمنة

ممّن عُرف بين نسّاخ النصارى سوى الرهبان رجلٌ يقال له «الازرق» كان يكتب لحنين بن اسحق شيخ تراجمة الاسلام في صدر الخلافة العبّاسيّة . روى ابن ابي اصيبعة انه رأى اشياء كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخط الازرق . ورأى بعضها عليه تنكيت بخط حنين بن اسحق وعلى تلك الكتب علامة المأمون (٣) .

ومن مشاهير نسّاخ النصارى ايضاً يحيي بن عدي السريانيّ اليعقوبيّ (٨٩٣ – ٩٧٤ م) كان كثير الكتابة ووُجدتْ بخطه كتبٌ كثيرة . قال ابن النديم البغداديّ في الفهرست : وقد عاتبت يحيي بن عدي على كثرة نسخه . فاجابني : من اي شيءٍ تعجب في هذا الوقت من صبري ؟ قد نسختُ بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما الى ملوك الاطراف . وقد كتبتُ من كتب المتكلمين ما لا يُحصى . ولعهدي بنفسي انا اكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقل (٤) . اما ابو الفرج الملطيّ المعروف بابن العبريّ فقد روى عن يحيي بن عدي قوله :

---

(١) المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ صفحة ٦٧٨
(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : بقلم الاب لويس شيخو : صفحة ١٤٨
(٣) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ١٨٧
(٤) طبقات الاطباء : جزء ١ صفحة ٢٣٥

كان ملازماً للنسخ بيده . كتب كثيراً من الكتب وكان يكتب خطاً قاعدياً بيّناً في اليوم والليلة مائة ورقة واكثر (١) .

واشتهر بعد يحيي بن عدي التكريتي ابو الحسن بن دنحا الطبيب الكاتب . وعظم أمره في ايام بهاء الدولة بن بويه في اواخر القرن العاشر للميلاد (٢) . ونضم الى هؤلاء الطيفوري النصراني الكاتب الذي كان يحسد حنين بن اسحق ووشى به الى الخليفة المتوكل عداوةً وزوراً (٣) . واشتهر ايضاً ابو الفرج جرجس بن يوحنا بن سهل بن ابرهيم اليبرودي (+ ١٠١٠ م) الذي نسخ الشيء الكثير من مؤلفات الطب (٤) . ثم يحيي بن يحيي بن سعيد المسيحي (+ ١١٩٣ م) المشهور بابن ماري مؤلف المقامات الستين . فانه كان كاتباً ماهراً نسخ بيده الشيء الكثير من كتب الادب والطب وغيرها (٥) . وفي السنة ١١٩٥ م توفي صاعد بن هبة الله بن المؤمل ابو الحسن النصرانيّ الحظيريّ المتطبب . وهو اخو الجاثليق المعروف بابن المسيحي كان ينسخ بخطه كتب الحكمة (٦) .

وذكر ابن ابي اصيبعة اسم الكاتب النصرانيّ الشيخ موفق الدين بن البوريّ الذي عاش في ايام صلاح الدين الايوبي . ومن كتّاب النصارى في ذلك العهد ايضاً والد المهذب المعروف بالخطير . وقد أسلم هو واولاده على يد اسد الدين شيركوه بمصر . وما عتم ان صرفه اسد الدين عن ديوانه فقال فيه ابن الذروي (٧) .

لم يُسلم الشيخ الخطيـ ـرُ لرغبةٍ في دين أحمدْ
بل ظنّ انّ محالهُ يبقي له الديوان سرمدْ
والان قد صرفوه عنْـ ـهُ فدِينهُ فالعود احمدْ

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٩٧
(٢) اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ٢٦٣
(٣) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٥٢
(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء : مجلد ٢ صفحة ١٤٠-١٤٣
(٥) معجم الادباء : جزء ٢ صفحة ٤٠ (٦) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٤١٦
(٧) كتاب «القديم والحديث» بقلم محمد كرد علي : صفحة ٣٠٤

وفي القرن الثاني عشر امتاز موفّق الدين ابن المطران (+١١٩١) بجودة الخط وكثرة ما نسخه واستنسخه من الكتب فزيّن بها خزانته. وكان يشتغل في ديوانه دون انقطاع ثلاثة نسّاخ يجزل لهم العطاء وينفق عليهم بكل سخاء. قال ابن ابي أصيبعة: كتب ابن المطران بخطه كتباً كثيرة وقد رأيت عدّةً منها. وهي في نهاية حسن الخط والصحة والاعراب... واكثر الكتب التي كانت عنده قد صححها واتقن تحريرها وعليها خطه بذلك (١). ولا يخفى ان موفق الدين هذا كان طبيباً نصرانياً ثم أسلم.

ونبغ في اوائل القرن الثالث عشر للميلاد سعيد بن ابرهيم بن يوحنا الجوخي المسيحي المتطبب الذي كان ينسخ الكتب لأمين الدولة موفق الملك المفضل ابن ابي غالب ابن الماوَرْديّ المسيحي الموصلي. وكان امين الدولة هذا رئيس الحكماء وعمدة الاطباء في عهده. ومن آثاره الكتابية «المغني في تدبير الامراض ومعرفة العلل والاعراض» نسخه سنة ٦٠٧ للهجرة (١٢١٠ م) وهذا المخطوط محفوظ في الخزانة المعلوفية بزحلة.

وأنجبت مدينة قارة بضواحي دمشق نساخاً عديدين تسلسلوا فيها حقبة بعد حقبة اشهرهم الاسقف مكاريوس (٢) الذي عاش في القرن الخامس عشر. وذكر الاب يوسف نصرالله ان الاسقف المذكور واولاده وحفدته ترجموا كتباً كثيرة الى اللغة العربية. ونسخوا بايديهم كتباً جمة كما تتضح حقيقة ذلك من فهارس مخطوطات برلين وباريس (٣) واوكسفرد وغيرها.

وفي القرن الخامس عشر اشتهر في لبنان عددٌ جمّ من النسّاخ. قال البطريرك اسطفان الدويهي: «أحصينا اسماء من كانوا من النساخ في ذلك العصر ممن وقفنا على كتبهم فاذا هم ينيفون على مائة وعشرة نساخ (٤).

---

(١) عيون الانباء في طبقات الاطباء: جزء ٢ صفحة ١٧٨

(٢) مجلة الآثار الشرقية: السنة الثانية: صفحة ٣٥٦

(٣) Jos. Nasrallah : Manuscrits Melkites, Yabroud, Rome, page 85

(٤) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل: للمطران يوسف الدبس: عدد ٤٢ صفحة ٢٤٧

واشتهر في القرن السادس عشر الاسقف جبرائيل بن استيتة الاهدنيّ (+١٥٥٦). فانه لم يكن ينقطع عن نسخ الكتب فكثرت جداً كتبه في كنائس لبنان . ولم يدَع كنيسة اجداده مار جرجس باهدن تحتاج الى شيء من الكتب . فكافاه البطريرك موسى العكاري (١٥٢٤ - ١٥٦٧) بترقيته الى الاسقفية (١) . وعرفنا في القرن نفسه الخوري يوحنا الزطيمية بترتج الذي ارتحل مع عائلته عام ١٥١٠ الى قبرس في جملةٍ من اللبنانيين . وكان هذا الخوري عالماً فاضلاً نسخ كثيراً من الكتب البيعية . . . وجرت له مباحث دينية مع الروم بقبرس وكانوا يسمونه «كروكليا» لانه كان يعتمّ بعمامةٍ زرقاء . وخلفه ابناه القس يوسف والشماس الياس واشتهرا بنسخ الكتب البيعيّة (٢) .

وذكرت الصحف في القرن السابع عشر انطون الاهدني الصهيوني تلميذ المدرسة المارونية برومة . فانه نسخ بيده كتباً جمة اخصها : اسفار العهد الجديد . وبعض كتب ارسطو . واربعة كتب فلسفة ترجمها حنين بن اسحق عن اليونانية . وكتاب في الحساب والجبر لمحمد شهاب الدين . ومقالة في الخطوط الهندسية لاحمد بن علي وغيرها (٣) .

٨ - مشاهير النساخ النصارى في القرون الاخيرة

قام في القرون الاخيرة نساخ كثيرون أغنوا الخزائن الكتابية بما خطته اقلامهم من الاسفار الوافرة العدد . ففي القرن السابع عشر اشتهر «ثلجة» اخو البطريرك الملكي افتيموس كرمة (١٦٣٤ - ١٦٣٥) وكان من كبار النساخين (٤) . فانه

(١) الجامع المفصل : عدد ٥٤ صفحة ٣١٦ (٢) الجامع المفصل : عدد ٥٥ صفحة ٣١٦

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ١٣٦-١٣٧ وتاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس : مجلد ٧ صفحة ٣٤٤-٣٤٥ وتاريخ اهدن : تاليف سمعان الخازن : جزء ٢ صفحة ١٤١

(٤) الرسالة المخلصية : مجلد ٧ سنة ١٩٤٠ صفحة ٤١٠ ورحلة من حماة الى حلب : للاب لويس شيخو (المشرق : مجلد ٨ سنة ١٩٠٥ صفحة ٩٣٠)

ما عدا مخطوطاتـه العديدة في مكتبات الشرق قرأنا اسمه في فهارس مكتبة اوكسفورد والمتحف البريطاني. وجاء بعده البطريرك مكاريوس الثالث (١٦٤٧ – ١٦٧٢) ابن الزعيم وابنـه الارخدياقن بولس اللذان مرّ بنا ذكرهما في فصل سابق. فقـد احتوت بعض مكتبات الشرق والغرب كثيراً من مخطوطاتهما الانيقة.

وفي سلخ القرن السابع عشر اشتهر رزق الله امين خان مطران حلب (١٦٧٨ – ١٧٠١). الذي خلف مخطوطات شتى تومىءُ الى سلامة ذوقـه في الكتابة وجودة الخط. نذكر منها مخطوطاً في دير الشرفة مزداناً باربعين صورة ملونة (١) نسخه المطران رزق الله عام ١٦٩٠ · وفي مكتبـة الدير نفسه مدرجٌ بديع طوله نحو اربعة امتار كتبهُ سنة ١٦٨٥ المطران رزق الله عينه (٢).

ومن خطّاطي النصارى في الحقبة ذاتها بنو عطايا الاطبـاء بدمشق. وفي دار الكتب الظاهرية كتاب «تذكرة داود البصير» نسخه ميخائيل بن يوحنا عطايا الطبيب سنة ١٠٨٢ للهجرة (١٦٧١ م) في ٨٨٠ صفحة. ومنهم ايضـاً بنو صروف وجباره واليازجي والميداني وغيرهم ممن خلفوا مخطوطات بديعة في خزائن مختلفة (٣).

ومن نوابغ النسّاخ في صدر القرن الثامن عشر غريغوريوس نعمـة قدسي مطران دمشق (١٧٣٠ – ١٧٤٥) الذي كان ذا منزلة علميّة بين مشاهير عصره. أحكم فنون الخطابة والشعر والمعاني والبيان والمنطق فبرز في جميعها وصنّف كتباً في بعضها. وتفرّد بجودة الخط فنمّق بيده كتباً جمّة (٤). ونشاهد آثاره

---

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١٠٠-١٠١

(٢) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : بقلم فيليب دي طرازي: صفحة ٣٤

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧-٣٠٨

(٤) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : بقلم فيليب دي طرازي : صفحة ٢٧١-٢٧٥

الخطيّة النفيسة في بعض مكتبات الشرق والغرب من جملتها مكتبة الشرفة ومكتبة دير المخلص (١) .

واشتهر ايضاً في القرن الثامن عشر ثلاثة كهنة في جبل لبنان هم : سركيس محاسب وعون نجيم الغوسطاويّان وجرجس افرام الباني . وعُرف بمدينة حلب في القرن نفسه نسّاخ عديدون لا يُشقّ لهم غبارٌ في هذه الصناعة . نذكر منهم : مكرديج بن عبد الاحد الكسيح . ويوسف بن جرجس صقّال . وجرجس بن الياس لبّاد . ولا سيما الخوري بطرس الدويهي نزيل حلب . فانه خلّف شيئاً كثيراً من خطوطه القاعديّة البديعة رأينا منها في خزائن دير الشرفة وحدها اثني عشر مجلداً ضخماً حوت ستة آلاف وثمانمائة وعشر صفحات كبيرة الحجم (٢)

ومن مشاهير النسّاخ في تلك الحقبة ايضاً : زخريا بن سليمان الحوّام (٣) والياس بن عبود الفتال الحلبي (٤) . وحنا بن عبد المسيح الانطاكي الحلبي (٥) . وميخائيل بن جرجس شحادة صبّاغ الدمشقيّ (٦) . والشدياق يوسف الذي قضى حياته في النساخة وخلف ما لا يحصى من الكتب بخط يده (٧) .

وفي عهد الامير بشير الثاني الكبير (١٧٨٨ - ١٨٤٠) نبغ ميخائيل القماطي بجودة الخط. فاتخذه امير لبنان المشار اليه خطّاطاً له في قصر بتدّين . واطلَقَ عليه لقب « نقّاش » لتفوّقه بهذا الفن(٨) . ومن ذلك الحين غلبت كنية «نقاش»

---

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٣٤٤ و ٤٣٦ و ٥٠١ الخ.
(٢) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١٢٦ و ٣٢٠
(٣) الذكرى في حياة المطران جرمانوس فرحات : بقلم الاخ بولس مسعد : صفحة ١٠٨
(٤) مكتبة المتحف الاسيوي في لينغراد : مخطوط رقم ٢١ وغيره
(٥) مكتبة المتحف الاسيوي في لينغراد : مخطوط رقم ١٩١ وغيره
(٦) المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ صفحة ٦٧٨-٦٨٠
(٧) مخطوطات دير الشرفة : مجلد ٢٣
(٨) جريدة « لسان الحال » بيروت : مجلد ٦٤ عدد ١٣٨١٩

على سلالة ميخائيل القماطي وقام منها ادباء كثيرون : اشهرهم مارون نقّاش منشيء اول رواية تمثيلية مسرحية باللغة العربية (١) .

وفي مطلع القرن التاسع عشر تفرّد عبد الاحد كرجيّ اللبناني بجودة الكتابة ووفرة النساخة . وقد شاهدنا من آثار خطه الجميل ثمانيـــة مخطوطات في الخزانة المعلوفية بزحلة . منها ديوان «صفي الدين الحلّيّ» بحجم كبير واتقان غريب يقع في ٥٣١ صفحة (٢) .

ومن ابرع الكتبة في القرن المذكور : عبّود بك البحري (+ ١٨٤٣) الذي كان رئيس قلم الانشاء في ديوان ولاة الشام ولدى محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة المالكة في مصر . وقد رثاه المعلّم بطرس كرامة بقصيدةٍ طويلةٍ قال فيها (٣) :

يا للمَنيّةِ قد جازتْ وقد غدَرَتْ ... ببدرِ فضلٍ له الآدابُ هالاتُ
مولى اليراعةِ عبدُالله مَن فقدتْ ... بفقده وانقضتْ تلك اليراعاتُ
يا طالما سكبتْ اقلامُهُ دُرَراً ... تقلّدتْ بلآليها الرسالاتُ
وكم على وجنةِ القرطاس في يدهِ ... تفاخرتْ ببديعِ الخطّ لاماتُ
ما لاعبتْ قلماً يوماً انامِلُهُ ... الا انبَتتْ مشرفيّاتٌ صقيلاتُ
لمّا اتى الناسَ ناعيهِ بكتْ أسفاً ... من اليراعـةِ دالات وميماتُ

ونبغ رزق‌الله حسّون الحلبي (١٨٢٥ - ١٨٨٠) بخطه الجميل ووفرة الكتب التي نسخها . ولا تزال مخطوطاتُه الرائعة محفوظةً في مكتبات روسيا وفرنسا وانكلترا (٤) اذ كان يختلف اليها بلا انقطاع . وقد شاهدنا من مخطوطاته طائفـةً كبيرة في المتحف البريطاني بلندن وفي خزانة الدكتور لويس صابونجي باستنبول.

---

(١) تاريخ الصحافة العربية : جزء ٢ صفحة ١٢٢ وتراجم مشاهير الشرق : جزء ٢ صفحة ٢٠٥
(٢) فهرس مخطوطات الخزانة المعلوفية : رقم ١٨٠٧
(٣) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : تاليف الاب لويس شيخو : صفحة ٣٣ وسجع الحمامة في ديوان كرامة
(٤) تاريخ الصحافة العربية : تاليف فيليب دي طرازي : جزء ١ صفحة ١٠٩

واتحفنا نحن خزانة دير الشرفة بطُرَف من الكتب والرسائل والصحف منمّقة بخطّ يده (١) .

واعظم من برّز بجودة الخط ووفرة النسخ معاً العلاّمة الكبير الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) اللبناني . فانه كتب ونسخ ما لم ينسخه احد من معاصريه . وذهب بعضهم الى انه لو جُمع ما نسخه اليازجيّ بخط يده في حياته لما قلّ عن محمول جملَين (٢) .

وممّن يجدر ذكره بين النساخ كيرلّس الخامس بطريرك الاقباط (١٨٧٥ - ١٩٢٧) في مصر . فانه ترهب في دير والدة الله المعروف بدير السيدة بوادي النطرون وفيه تلقى العلوم في اواسط القرن التاسع عشر (٣) . وهناك أكبّ على النساخة فنمق بخطه الجميل طائفةً معتبرة من الكتب الدينية والقوانين الكنسية والمقالات العلمية ومواعظ يوحنا فم الذهب وغيرها . وقد جاءَت تلك المخطوطات آيةً في الظرافة والضبط لانه اعتنى بها اعتناءً فائقاً (٤) .

وُعرف في اواسط القرن التاسع عشر الشيخ حبيب عوّاد من حصرون . كان خطّاطاً مشهوراً في عصره يُجيد الخطين العربي والسرياني كما تدل عليه آثاره الخطيّة الرائعة . وقد خلّف منها الشيء الوافر في كنائس حصرون وفي بعض كنائس شمال لبنان وفي خزانة سليم طربيه من بسبعل (٥) .

وأنشط من عرفناه من نسّاخ القرن العشرين الخورفسقفوس اسحق ارملة السرياني الذي جمع الى سرعة النسخ اتقان الخط وامانة النقل . وهو يجيد الكتابة باليد اليسرى اجادته باليد اليمنى . ونشاهد آثاره الخطية في اغلب خزائن الشرق وبعض خزائن أوروبا واميركا . ولسنا نبالغ اذا قلنا انه لو حُصرت تلك الآثار القلمية في مكان واحد لتألفت منها خزانة مخطوطات معتبرة . وفي شتاء السنة ١٩٠٩

---

(١) خطوط مشاهير الشرق : جمع فيلبب دي طرازي : جزء ١

(٢) تاريخ الصحافة العربية : جز ١ صفحة ٨٨

(٣) بحث تاريخي عن السريان في القطر المصري : بقلم الخوري اسحق ارملة : صفحة ٤٧

(٤) مرآة العصر في تاريخ ورسوم اكابر رجال مصر : بقلم الياس زخورا

(٥) المشرق : مجلد ٣٣ سنة ١٩٣٥ صفحة ٩٣-٩٤

سافر الخوري اسحق الى القسطنطينيــة بخدمة البطريرك العلامة اغناطيوس افرام رحماني فنسخ له بعض مخطوطات ثمينــة ونادرة من خزائن سراي « طوب قبو » . وكان ذلك من اصعب الامور لان الدخول الى تلك الخزائن لم يكن مباحاً الا بارادة سلطانية . وكان فيها من المخطوطات ما لم تنظره عين ولا سمعت به اذن ولا خطر على قلب بشر (١) .

ومن اشتهر بحسن الخط في العصر الحـالي واجاده او تفوق فيه على خطّاطي العصور الغابرة نذكر ثلاثة خطاطين هم : علاّم علاّم الذي ذاعت دفاتر خطه في جميع مدارس الشرق . وابرهيم بن فارس يزبك نشر بخطه قانون الايمان مكتوباً باربعة عشر شكلاً من الخطوط العربية البديعة في طليعتها الخط الكوفيّ . وثالثهم نجيب بك هواويني خطاط ملك مصر وله آثار رائعة في هذه الصناعة (٢) .

٩ – شهيرات الخطاطات النصرانيات

مثلما سجّلنا اسماءَ فريق من الخطاطين اشتهروا بجودة خطوطهم يجمل بنا ان نسجّل ايضاً اسماء فئة من السيدات أحكمن صناعة الخط العربيــة . وقد شاهدنا لهنّ آثاراً جمة تدعو الى الاعجاب ببراعتهنّ في هذا الفنّ . نذكر منهنّ اربع كاتبات عِشن بحلب في اواخر القرن الثامن عشر وهنّ : مادلينا بنت اليان ومريم التائبة وسوسان بدوانية ومادلينا جروة شقيقـة البطريرك اغناطيوس ميخائيل الثالث (٣) .

وأنجب خطاطة عرفناها في عصرنا السيدة لبيبة هاشم اللبنانية وقد تلقنت الخط عن الشيخ ابرهيم اليازجيّ ونجيب بك الهواويني . وهي المنشئة والمربية والصحافية . وعندما عُقد معرض الخطوط الدولي عام ١٩١٢ في لندن لفت خطها الرائع ابصار الزائرين من جميع الطبقات .

---

(١) تابين احمد زكي باشا المصري للبطريرك رحماني (مجلة الآثار الشرقية : مجلد ٤ سنة ١٩٢٩ صفحة ٧١-٧٢)

(٢) المشرق : مجلد ٢٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٩٤٠-٩٤٢

(٣) محفوظات دير الشرفة : جزء ١٧ و ٢٣

الفصل الثامن

الضبط والاتقان في نساخة الكتب

١ ـ مزايا اهل الضبط والاتقان في النساخة

من القواعد الاساسية التي يعتمد عليها في الكتابة والنساخة حسن الخط وامانة النقل واتقان التقييد. فيُطلب من كل كاتب وناسخ ان يكون ضابطاً ثقة وحريصاً على اللغة ليأتي عمله صحيحاً كاملاً. وقد كان لكل خزانة كتب في سالف الزمان جماعة من النحويين واللغويين المشهورين بالضبط والتدقيق لا يتعاطون الا مراجعة المخطوطات وشكلها وتصحيحها وتنقيحها. وكانت مهمتهم تتناول خصوصاً مقابلة تلك الكتب على نسخ كتبها المؤلف بيده او وافق على صحتها بخطه او اجازها احد كبار العلماء بخاتمه ازالةً لكل شبهة والتباس.

والحكمة في ما سبق بيانه ان تكون جميع النسخ من الكتاب الواحد متشابهة متوافقة على حذو واحد طبقاً للنص الاصلي الذي وضعه المؤلف نفسه. لان النساخ اذا لم يكونوا من اهل الضبط والامانة في النقل أساؤا الى العلم فمسخوا الكتب وشوّهوها وحطّوا من قدر مصنّفيها.

٢ ـ مشاهير اهل الضبط والاتقان في النساخة

في تواريخ العرب اسماء طائفة معتبرة من اهل الاتقان والضبط نقتصر على ذكر بعضهم في ما يلي:

فمن ضباط القرن الرابع للهجرة ابو الحسن الجنديسابوري المتوفى سنة ٣٠٤ للهجرة . روى عنه الدارقطني انه كان ثقة مأموناً ما رأى اصح من كتبه (١) . وابو بكر العطار (٢٦٥ – ٣٥٥ هـ) كان ثقة اعرف الناس بالقراآت واحفظهم لنحو الكوفيين . قال عنه الداني الاصبهاني «عالم بالعربية حافظ للغة حسن التصنيف مشهور بالضبط والاتقان» . ومحمد ابو بكر اللوذري المتوفى سنة ٣٦٠ للهجرة . قال الداني ايضاً : «سكن اللوذري مصر وكان ضابطاً مشهوراً وثقة مأموناً» .

ومن اهل الضبط في القرن السادس ابو بكر الاموي المستوفي الاشبيلي (٥٠٢ – ٥٧٥ هـ) وصفه ابن الزبير بقوله : هو احد المقرئين المحدثين المشهورين بحسن الضبط واتقان التقييد مع معرفته بالعربية واللغة والادب والغريب . واسمعيل الجواليقي (٥١٢ – ٥٧٥ هـ) ذكره ياقوت بقوله : كان امام اهل الادب بعد ابيه منصور بالعراق واختص بتأدب اولاد الخلفاء . وكان له معرفة حسنة باللغة مليح الخط جيد الضبط (٢) .

واذا انتقلنا الى القرن السابع رأينا ابا الحسن اللازدي الغرناطي (٥٥٩ – ٦٣٩ هـ) لا يقل براعة ودقة عمن تقدمه . قال ابن عبد الملك : كان ابو الحسن من اعيان مصره وافاضل عصره تفنناً في العلوم وبراعةً في المنثور والمنظوم . وكان ضابطاً عدلا ثقة ثبتاً (٣) . وورد عن ابي بكر بن ابي الدودس انه كان من ابدع الناس خطاً واصحّهم نقلاً وضبطاً. اشتهر بالاقراء واقتصر بذلك على الامراء ولم يخطّ لسواهم (٤) . اما ابو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي البلنسي (٥٦٥ – ٦٣٤ هـ) فكان يتكلم عن الملوك في زمانه بالمجالس ويعبّر عنهم بما يريدون في المحافل على المنابر . وكان خطه لا نظير له في الاتقان والضبط (٥).

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ٤٤

(٢) بغية الوعاة : صفحة ١٩٩

(٣) بغية الوعاة : صفحة ٢٦٤

(٤) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ٣٥٩

(٥) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٠٢-٢٠٣

ولا يقلّ شهرة عمن سبق ذكرهم عبد الرحمن بن محمد الجزائري . فقد امتاز ببراعة الخط وحسن الضبط امتيازاً اهّله ان ُينظَم في سلك جهابذة الخطاطين في القرن السابع . وحلّت وفاته سنة ٦٢٩ للهجرة (١) .

وُعرف في القرن الثامن للهجرة بين اهل الضبط في النساخة ابو عبدالله المذحجي الملتماسي (٦٨٨ - ٧٣٤ هـ) قال عنه صاحب تاريخ غرناطة : «كان كاتباً بليغاً عارفاً بالقراآت بصيراً بالعربية ثقة ضابطاً حريصاً على العلم ... كثير العناية بالكتب» . ومثله محمد ابو الغنائم اللغوي الذي وصفه ياقوت بقوله : «جيد الضبط صحيح الخط معتمد عليه معتَبر» (٢) .

ومن اهل الضبط في القرن الحادي عشر للهجرة محمد الاحسائي المكي الشاعر المشهور. ذكر علي بن معصوم وقال في وصفه : «هو من ابدع الناس خطاً واتقنهم للكتب نقلاً وضبطاً كتب ما ينوف على الالوف (٣) » . وكتب عبد اللطيف المحبي (٩٦٦ - ١٠٢٣ هـ) كتباً كثيرة بخطه واعتنى بضبطها . وأحصي بين ممتلكاته التي وقفها في آخر حياته ما يقارب مائة وخمسين مجلدا معظمها بخطه وجميعها مصحح بقلمه (٤) . وكان ابن الكيال الدمشقي احد الافراد في جودة الخط وحسن الضبط وكان خطه في عهده اغلى من الجوهر. كتب انواع الاقلام على اختلافها وهو في كل منها محسن مجيد واستاذ وحيد . ونسخ كتباً كثيرة تغالى الناس في اثمانها وانتهى اليه الظرف في حسن التناسق. وجمع من خطوط اساتذة الكتاب من العجم والروم ما لم يجمعه غيره وحلت وفاته عام ١٠٢٧ للهجرة (٥) .

---

(١) تعريف الخلف برجال السلف : جزء ٢ صفحة ١٩٨
(٢) بغية الوعاة : صفحة ١٥
(٣) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٤٦٠
(٤) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ١٩
(٥) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٤٠٢

الفصل التاسع

التنافس في تأليف الكتب والاستكثار من نسخها

١ - تشويق الخلفاء والملوك الى التبسط في العلوم

لما اشتد ساعد العرب وقويت شوكتهم بعد احتلالهم اخصب الامصار الخاضعة لصولجان القياصرة وعرش الاكاسرة انصرفوا الى العلم ونشروا ألويته في طول البلاد وعرضها . واذا ألقينا نظرة عامة على سير المعارف بعد الفتح الاسلامي لمحنا حركة فكرية لم يألفها العرب قبل ذلك التاريخ . فانهم بعد ما كانوا في حال الخمول والجمود والشقاء ايام بداوتهم اصبحوا متوغلين في الترف ورغد العيش وانشأوا حضارة خاصة بهم . وقد ساعدهم على ذلك اندماجهم في شعوب عريقة في العمران والثقافة كالروم والفرس والسريان والاقباط . فأخذوا عن هؤلاء جميع ما كانوا محتاجين اليه من العلوم والفنون والصنائع وتلقنوها منهم واتقنوها وصنفوا الكتب الوافرة فيها .

ويعود الفضل في هذه النهضة الفكرية الى الخلفاء والملوك الذين مهّدوا للعرب سبل تحصيل المعارف . فانشأوا بيوت الحكمة وخزائن الكتب ودواوين الترجمة ودور الصناعة والمراصد الفلكية والمدارس والبيمارستانات الخ . وقد اسهبنا الكلام في الفصول السابقة عن جهود اولئك الملوك والخلفاء في تثقيف العرب وتهذيبهم ورفع مستواهم الاجتماعي . وكانوا يقرّبون التراجمة مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وينتقونهم من العلماء والشعراء والاطباء والفلاسفة . وينشطونهم ويجزلون لهم الأعطيات ويرقّونهم الى اعلى المناصب .

ذلك كله كان اكبر مشوّق للعرب الى التبسّط في العلوم والتنافس في تصنيف الكتب على تنوع موادّها واختلاف مواضيعها . فكانوا يتبارون في مضمار التأليف حتى انهم ما تركوا باباً من ابواب المعارف العقلية والنقلية الا طرقوه ووضعوا فيه مصنفات مفيدة دلّت على نبوغهم وعبقريتهم .

٢ ـ استكثار المسلمين نسخ الكتب

وكانت تلك المؤلفات تُنسَخ وتَستنسَخ بكثرة عظيمة سداً لحاجة اهل العلم وإشباعاً لشهوة الاغنياء في جمع الكتب (١) . وانفق الخلفاء اموالاً طائلةً في الاستكثار من الكتب وتعدّدُ نسخها . فكان سرورهم يزداد بازدياد عدد النسخ من الكتاب الواحد . بل كان يتضاعف ارتياحهم الى اقتناء غيرها وغيرها ولئن اجتمع لديهم منها اكثر من مائة نسخة وان شئت فقل اكثر من الف نسخة .

واثباتاً لذلك فان الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ – ٣٨٦ ﻫ) حوى في خزانته ثلاثين نسخة ونيفاً من كتاب «العين» للخليل بن احمد منها نسخة بخطّ الخليل نفسه. وذُكر يوماً امام هذا الخليفة «كتاب الجمهرة» لابن دُرَيد فاخرج منه مائة نسخة كانت محفوظة في خزانته (٢) . وحمل اليه رجلٌ نسخة من تاريخ الطبريّ فاشتراها بمائة دينار . ثم أمر خُزّانه فاخرجوا من خزانته ما يُنيف على عشرين نسخة من ذلك التاريخ احداها منسوخة بخط الطبريّ نفسه.

واستمر عدد النسخ المكررة يزيد بتوالي الازمنة في خزانة كتب الفاطميين الى حين انقراض دولتهم سنة ٥٦٧ للهجرة . وكانت تشتمل حين ذاك على الف ومائتي نسخة من تاريخ الطبري وعلى الفين واربعمائة ختمة قرآن في ربعات بخطوط

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٥

(٢) خطط المقريزي : جزء ٢ صفحة ٢٥٣-٢٥٤

منسوبة رائعة الحسن محلاة بذهب وفضة (١) . ذلك ما عدا نسخاً مكررة من سائر الكتب التي كانت تتداولها ايدي المطالعين في مختلف مواضيع العلوم .

ولم يكن العباسيون في بغداد والامويون في الاندلس والموحدون وبنو مرين في مراكش وبنو حمدان في حلب وبنو عمار في طرابلس وغيرهم اقل عناية بالاستكثار من النسخ لكتاب واحد . لان التهافت على التقاف العلم من كل صوب وناحية حملهم على الاستزادة من عدد النسخ تحقيقاً لاماني الطلاب وخدمة لاهل البحث . ومما يجدر بالذكر ان خزائن كتب جامع اصفهان احتوت على خمسمائة مصحف من المصاحف البديعة الخطوط المدبجة بالفضة والذهب . وروى سبط ابن الجوزي في تاريخه «مرآة الزمان» ان تلك المصاحف الثمينة التهمتها النيران حين احتراق الجامع المشار اليه سنة ٥١٥ للهجرة . واحتوت مكتبة ابي نصر سابور بن اردشير في بغداد على مائة مصحف بخط ابن مقلة (٢) .

وكان ابو عمرو الشيباني راوية واسع العلم باللغة ثقة بالحديث وقد جمع دواوين اشعار القبائل العربية وعنه أخذت . وذكر احد اولاده ان اباه جمع اشعاراً اكثر من ثمانين قبيلة . وكان كلما جمع اشعار قبيلة واخرجها للناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة . وحلت وفاته سنة ٢٠٦ للهجرة متجاوزاً المائة سنة (٣) .

وممن امتاز بجودة الخط وكثرة النسخ والضبط والاتقان ابو الحسن علي بن عبدالله بن ابي هاشم المعري . فانه لزم الشيخ ابا العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) ونسخ له كتبه باسرها . وكتب من كل منها نسخاً عديدة (٤) .

ويروى عن الامير ابي علي حسام الدين المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة أنه وقف

---

(١) خطط المقريزي : جزء ٢ صفحة ٢٥٠-٢٥٥
(٢) المجلة الزيتونية في تونس : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٧٢
(٣) ابن خلكان : جزء ١ صفحة ٦٥
(٤) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ١١١

كتباً نفيسة من كل فن على المدرسة الشرفية الشافعيـة بحلب .وكان بينها من كتاب « التنبيه » وحده اربعون نسخة (١).

ومن البراهين الصادقـــة على تعدد النسخ انه كان يجتمع في مجلس واحد من مجالس الحفّاظ ازيد من عشرة الاف محبرة يكتبون الآثار النبوية ويعتنون بتنميقها . بينهم نحو من مائتي إمام برّزوا وتأهلوا للفتيا (٢) .

وكان غلاة الكتب ينهجون هذا النهج في تجهيز خزائنهم الخاصة بنسخٍ مكررة للكتاب الواحد . ولنا على ذلك ادّلة جمة رواها فريق من المؤرخين في الازمنة الغابرة . منها ان ابا الغيث المعروف بالقشاش المغربي التونسي (٩٨١ - ١٠٣١ ﻫ) كان يميل الى اقتناء نسخٍ متعددة من كتاب «الجامع الصحيح» للامام البخاري . واعتاد ان لا يقبل من احد هدية الا اذا كانت الهدية نسخة من الكتاب المذكور . فكان يتقبّلها بترحاب ويقابل مهديها بضروب الاحسان . وقد جمع ابو الغيث من نفائس الكتب ولا سيما المكررة منها ما لا يُعَد ولا يُحصى . وَحسبُنا القول ان خزانته اشتملت بعد وفاته على الف نسخة من كتاب البخاري المذكور . وقس على ذلك كتباً اخرى (٣).

واحتوت خزانة شرف الدين زكريا الانصاري السنيكي (١٠٣٠ - ١٠٩٢ ﻫ) ثمانية وعشرين شرحاً على «البخاري» وثماني عشرة نسخة من «طبقات السبكي الكبرى» واربعين تفسيراً (٤) وغير ذلك.

٣ - استكثار النصارى نسخ الكتب

وكان النصارى كالمسلمين يكثرون من كتابة نسخ مكررة للكتاب الواحد

---

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٤٦٠
(٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٢ صفحة ١٠١
(٣) خلاصة الاثر : مجلد ١ صفحة ١٤٠-١٤٢
(٤) خلاصة الاثر : جزء ٢ صفحة ٢٢٢-٢٢٣

ويحفظونها في خزائنهم . ويُحكى عن ثئودوريط اسقف قورش (٤٢٠ - ٤٥٨ م) انه احرق مائتي نسخة بنّيف من كتاب «العهد الجديد» المسمى «دياطسرون» واحتذى به ربولا اسقف الرها (+ ٤٣٥ م) (١) .

وفي اواخر القرن العاشر للميلاد اشتهر في دير قرتمين بطور عبدين راهب اسمه عمانوئيل تفرّد باتقان الخط وزخرفة حروفه . فكتب على رق الغزال سبعين مجلداً من كتاب «العهد الجديد» وغيرها ثم وقفها للدير المذكور (٢) .

واشتملت مكتبة دير الزعفران المجاور لماردين على نسخ متعددة من اسفار «العهد الجديد» مكتوبة بيد اشهر الخطاطين . وروى السمعاني ان يوحنا اسقف ماردين (+ ١١٦٦ م) كتب اربع نسخ كاملة من كتاب «العهد الجديد» بحروف ذهبية وفضية وحبسها على مكتبة دير الزعفران المذكور (٣) .

وفي مكتبة دير الشرفة بلبنان لهذا العهد مخطوطات شتى متعددة النسخ اتى على وصفها البحاثة الخورفسقفوس اسحق ارملة في كتابه «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة» نذكر منها على سبيل المثال : تسعة وثلاثين مخطوطاً من كتاب «العهد القديم» وستة وثلاثين مخطوطاً من كتاب «العهد الجديد» واحدى وعشرين نسخة من كتاب «العلم اللاهوتي» للمعلم يوحنا كلوديوس واثنتي عشرة نسخة من «الصحيفة العبقرية في الاصول المنطقية» وخمس نسخ من «الايساغوجي» للتولاوي الى غير ذلك من مخطوطات في المعاني والبيان والاصول النحوية .

والخلاصة ان المكتبات العربية شرقاً وغرباً حوت نسخاً متعددة من المخطوط الواحد تزاحم روّاد البحث على اقتنائها لاجل درسها ومقابلتها والمقارنة بين غثّها وسمينها . فاقتصرنا من ذلك كله على ما رويناه وبه الكفاية .

---

(١) Rubens Duval : Littérature Syriaque, P. 41

(٢) المؤرخ الرهاوي ٥٢ : ١١٣

(٣) المكتبة الشرقية : للسمعاني : مجلد ٢ صفحة ٢١٦-٢٢٦

الفصل العاشر

صناعة التجليد عند العرب

١ ـ اتقان العرب تجليد الكتب وتذهيبها وصنع قماطرها

لم يكن المجلّدون اقلّ اتقاناً وتفنّناً في صناعتهم من الخطّاطين والورّاقين واهل الضبط . بل كانوا يتفاخرون بحسن تجليد المخطوطات وتلوينها وتذهيبها باساليب مدهشة . ومن مشاهير المذهّبين : اليقطيني وابرهيم الصغير وابو موسى بن عمار وابن السفطيّ ومحمد وابن محمد ابو عبد الله الخزيميّ وابنه (١) . وقد اصطنع هؤلاء لكل كتاب قمطراً خاصاً من جلد نفيس مجوّد الدبغ مزّين بالنقوش . وكان بعضهم يصطنع قماطر المخطوطات من حرير موشّى او خشب ثمين مرصّع بالدرر (٢) وقايةً لها من الغبار والعث والتلف لانها نادرة قليلة وفيها ثمرات العقول . والنادر تشدّ عليه يد الضنانة كي لا يناله سوء من عوادي الايام . وبهذه الوسيلة كانت تُصان المخطوطات كانها بعض المقدسات . او كأنّ الناس كانوا يتعبّدونها بحفظها وتجليدها وخدمتها واماطة الاذى عنها .

وكانت الكتب قبل اختراع القماطر تُلفّ في مناديل . واوّل من استعمل القمطر لحفظ المخطوطات محمد بن مسروق قاضي مصر . فكان اذا جلس للقضاء أحضر القمطر معه (٣) .

---

(١) الفهرست لابن النديم : المطبعة الرحمانية بمصر : صفحة ١٤

(٢) نحيل القارىء الى وصف مجموعة المخطوطات المرصعة بالدرر والجواهر في ترجمة سنان باشا وقد اثبتناها في باب « غلاة الكتب وهواة المكاتب » .

(٣) خزانة كتب جامعة ليدن في هولندا : المخطوط العربي : رقم ١٣٦٦ صفحة ١٢١-١٢٢

وكان القوم يتنافسون في تجويد صناعة تجليد الكتب تنافس غيرهم من سائر الامم في فنّ التصوير واتقانه . ذلك ان العرب قلّ ما انصرفوا الى فنّ التصوير لان الشرع الاسلامي حرّمه ونهى عنه . فأصبح لديهم مكروهاً او على الاقلّ غير مستحبٍ . وقد اعتاضوا عن التصوير برسم اشكال طريفة وعلامات ظريفة ينمّقون بها كتبهم ويوشّون قماطرها . ولم يشذّ عن هذه القاعدة الا الخلفاء الفاطميون «٣٥٧ - ٥٦٧ هـ» في مصر .

٢ - مشاهير المجلدين

اول من اشتهر بصناعة التجليد في « بيت الحكمة » ببغداد كان ابن ابي الحريش في عهدَي هرون الرشيد وابنه المأمون (١) . ويروى عن موفق الدين ابي طاهر انه كان يملك في « ساوة » مكتبة عامرة نادرة . وكان يتفاخر باتقان كتبها واجادة تجليدها والتفنن بالوانها . فكان كل صف من الكتب يختلف لونه عن لون الصف الاخر . فصّف احمر وصف اخضر وصف اصفر وصف اسود وهلمّ جرّاً .

وقرأنا في كتاب « معجم البلدان » لياقوت الحموي اسماء بعض من اشتهروا بتجليد الكتب في سالف الازمنة . نذكر منهم ابا بكر محمد الزاغوني الذي كان استاذاً حاذقاً ولاقى منيّته عام ٥٥١ للهجرة (٢) .

وممن ضربت الامثال بهم في حسن تجليد الكتب محمد بن ابرهيم الكتبي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة . وقد بلغ الاسى اشده عند اهالي حلب يوم فقدوه لانه لم يقم بينهم مثله في اتقانه تلك الصناعة وتجويدها (٣) .

---

(١) الفهرست : صفحة ١٠

(٢) معجم البلدان : جزء ٤ صفحة ٣٦٨

(٣) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٥ صفحة ٢٤٨

وفي السنة ٩٣٦ للهجرة توفي في حلب ايضاً مظفّر الكتبي وكان من عادته ان يلفّ رأسه بمئزر . وقيل له الكتبي لانه كان يجلد الكتب عند باب الجامع الكبير . وكانت له خبرة تامة خصوصاً بترميم المصاحف الرثّة (١) .

ومن مشاهير المجلدين في القرون المتأخرة عبدالله الاهدل وكان سيداً كامل المعرفة بالعلوم . ذكره ابو بكر بن ابي القاسم في « نفحة المندل » فقال : له همّة عليّة في تحصيل فنون العلم وخطه في نهاية الحسن وكذا تجليده الكتب . ويحسن غير ذلك من الصناعات كالصباغة لجودة فهمه وحدة ذكائه . وكانت وفاته في العُشر الاربعين بعد الالف للهجرة (٢) .

وكان يحيى بن بعث من ارباب الظرف واللباقة يتعاطى صناعة الحبر الجيّد وتجليد الكتب ومات سنة ١١٠٧ للهجرة (١٦٩٥ م) (٣) . ومنهم الشيخ عبد القادر التغلبيّ الدمشقيّ الذي كان يرتزق من عمل يده في تجليد الكتب ومات سنة ١١١٥ للهجرة (١٧٢٢ م) (٤) .

وفي السنة ١٢٠٢ للهجرة (١٧٨٧ م) توفيّ بالقاهرة الشيخ مصطفى بن جاد الذي اشتهر بتجليد الكتب وتذهيبها . ومارس هذه الصناعة عند استاذه احمد الدسوقيّ ثم فاقه ورجح عليه . ومهر بالتذهيبات ولا سيما النقوش بالذهب المحلول والفضة والأصباغ الملوّنة والجداول والطوابع والرسم وغير ذلك . وقد تفرّد الشيخ مصطفى بهذه المهنة الدقيقة بعد وفاة كبار المجلدين كأحمد الدسوقيّ استاذه وعثمان بن عبدالله عتيق ومحمد الشناويّ الخ (٥) .

وقد وقفنا على اسماء فريق من النصارى اعتنوا بتجليد الكتب في العصور

---

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٥ صفحة ٤٧٨
(٢) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٣٦-٣٧
(٣) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للمرادي : جزء ٤ صفحة ٢٣١
(٤) سلك الدرر للمرادي : جزء ٣ صفحة ٥٩
(٥) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : للجبرتي : جزء ٢ صفحة ١٨٠

الغابرة نذكرهم تتمّة للموضوع وهم : الخوري يحنّا بن جرجس ويُعرَف بابن الطبلة سنة ١٥٥١ للميلاد (١) . والراهب ملاتيوس سنة ١٦٦٣ (٢) . وتوما المارديني احد رهبان دير السيدة في وادي النطرون بمصر سنة ١٦٦٤ (٣) . ويوحنا بن الخوري كسّاب خادم كنيسة دمشق سنة ١٦٧٣ والخوري ابرهيم سمورروا سنة ١٧٠٥ وميخائيل مراد سنة ١٧١٠ وجبرائيل ابن الخوري شلش والقسيس سمعان ابن الخوري موسى من دير مياس سنة ١٧٤٥ (٤) .

وورد عن فريق من احبار النصارى انهم جلدوا كتباً اثبتوا فيها اسماءَهم . نذكر منهم ميخائيل السادس بطريرك الملكيين (١٥٣٤ - ١٥٤٣) المعروف بابن الصبّاغ . فقد قرأنا في مخطوط المتحف البريطاني بلندن ما نصه : « عرم هذا الكتاب . . . ميخائيل البطريرك الانطاكيّ في ١٠ تشرين الثاني (٥) » .

٣ - اسواق المجلدين

عدّد ابن المبرّد الدمشقي المتوفى سنة ٩٠٩ للهجرة « ١٥٠٣ م » صنّاع دمشق وباعتها في عصره (٦) . ولما اتى على ذكر الورّاقين ومجلدي الكتب المع الى الحسبة عليهم في التقوى والجودة والاتقان وعدم الغش وعدم السفتجة (٧) . وقد حصر

---

(١) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : تاليف حبيب زيات : صفحة ٢٤٩-٢٥٠

(٢) خبايا الزوايا : صفحة ٢٦٤

(٣) بحث تاريخي عن السريان في القطر المصري : تاليف الخوري اسحق ارملة : صفحة ٥٠

(٤) خبايا الزوايا : صفحة ٢٥٤-٢٦٦

(٥) فهرس مخطوطات لندن : رقم ٤١٨

(٦) كتاب « الحسبة » لجمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الصالحي الدمشقي المشهور بابن المبرد كما ذكرنا في المتن . وهو في سبع ورقات ضمت الى مخطوط بقلم المؤلف محفوظ في الخزانة الظاهرية بدمشق .

(٧) المراد بالسفتجة حشو التجليد بالسفاتج والاوراق .

ابن المبرّد اصحاب مهنة تجليد الكتب في سوقٍ خاصٍ بهم سماه « سوق المجلدين للكتب » عند باب البريد بدمشق (١) .

ومما يجدر بالذكر ان كبار المجلدين اعتادوا منذ العصور الغابرة ان ينقشوا اسماءهم على اغشية المخطوطات او السنة جلودها وكانوا يفعلون ذلك تباهياً باتقان حرفتهم وتخليداً لذكرهم . وفي دار الكتب المصرية طائفةٌ ثمينةٌ من جلود الكتب يُستنتَج منها كيف تدرّج فنّ التجليد في مختلف العصور السالفة (٢) .

وخلّف مؤلفو العرب كتباً في صناعة التجليد من اهمها مخطوط عنوانه « نظم تدبير التسفير » اقتناه احمد تيمور وضمه الى خزانته التيمورية بالقاهرة (٣).

٤ ـ نقل صناعة التجليد العربية الى اوروبا

لا ريب ان الحروب الصليبية كانت مثل ما كانت الاندلس وجزيرة صقلّية وسيلة الى خلق علاقات بين المسيحيين والمسلمين او العرب والافرنج . وكان من النتائج العملية انتشار التجارة وتبادل المنافع بين شعوب الشرق وجمهوريات البندقية وجنوا وبيزا . هكذا تيسر نقل بعض الفنون والصناعات العربية الى اوروبا مما نضرب صفحاً عن ذكره اذ هو خارج عن موضوع بحثنا . انما نحصر الكلام في صناعة التجليد التي شاعت هناك على يد بعض المجلدين العرب الذين انتزحوا الى مدينة البندقية في القرون الوسطى . وعلّموا البنادقة «اي سكان البندقية» اختراعات المسلمين وفنونهم . ومعروف ان البنادقة قد قلدوا صناعة التجليد الاسلامية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ثم نقلوا بعض اساليبها فنقلها

---

(١) المشرق : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨-٢٨
(٢) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢٧
(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٦

عنهم غيرهم من صنّاع الغرب . فلا عجب ان وجدنا حتى الآن في بعض صناعات التجليد الاوروبية اثراً من الصناعة العربية وزخارفها (١) .

٥ ـ تأثير الفنّ القبطيّ في فنّ التجليد الاسلامي

ونختتم هذا الفصل بما دوّنه الدكتور محمد حسن امين دار الآثار العربية بالقاهرة عن بعض التأثيرات القبطية في الفنون الاسلامية قال (٢) :

« ان صناعة تجليد المخطوطات بالجلود ذات الزخارف المضغوطة او البارزة فن مصري الاصل . وقد نسب الجاحظ الفضل في تعريف العرب بالمصاحف او الكتب المجلدة الى الحبش. ونحن نعرف العلاقة بين الحبش والقبط في الديانة ، وكل ما يتعلق بالانجيل والفنون المسيحية الشرقية .

« وقد كانت زخرفة الجلد واستخدامه في تغليف المخطوطات صناعة زاهرة في الفن القبطي . وعني بها الرهبان في الاديرة عنايتهم بنسخ الانجيل والكتب الدينية .

« ونقل المسلمون عن المسيحيين العناية بتجليد القرآن بالجلود الفاخرة على نسق الانجيل والكتب الدينية المسيحية . وكانت صناعة التجليد القبطية النواة التي تطورت منها صناعة التجليد في الاسلام وازدهرت ،حتى بلغت في العصور الوسطى غاية الجمال والاتقان ، وقلّدها الغربيون فيما أخذوه عن الفنون الاسلامية

« ومما ورثته صناعة التجليد الاسلامية عن الفن القبطي اللسان الذي عرفه

---

(١) اثر الفن الاسلامي في فنون الغرب بقلم الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية في القاهرة (مجلة الرسالة : سنة ٣ صفحة ٦١٥-٦١٩) .

(٢) مجلة جمعية محبي الفن القبطي : المجلد الثالث : سنة ١٩٣٧ صفحة ١٧-١٨

المجلدون في الاديرة القبطية ونقله عنهم المسلمون ثم الغربيون بعد ذلك . كما لا يزال ظاهراً في كتب المصارف المعروفة باسم Pass Books

«ومهما يكن من شيء فان جلود بعض المصاحف القديمة المحفوظة في دار الكتب المصرية تدل على تأثير قبطي . وهناك زخرفة نباتية قبطية الطراز محفورة على احدى هذه الجلود وأخرى صليبية الشكل على جلدة أخرى تذكّر بزخارف موجودة على قطعة من النسج القبطي محفوظة في فينّا

«وممّا يؤسف له اننا لا نستطيع ان نتتبّع تماماً تطوّر الفن في صناعة التجليد حتى أصبحت صناعة اسلامية بحتة في القرن الرابع عشر . لان اكثر ما وصلنا من جلود الكتب الاسلامية يرجع الى عصر المماليك . بينما لا نكاد نعرف شيئاً عن هذه الصناعة في العصر الفاطمي على الرغم من ان كل شيء يحمل على القول بانها كانت زاهرة متقدمة » .

الفصل الحادي عشر

اشهر اسواق الكتب

١ - اقبال العظماء على استنساخ المخطوطات واذدخارها

ما كادت تنشأ خزائن الكتب في الاقطار العربية ويُقبل الملوك والامراء والاغنياء والادباء على احراز المخطوطات او استنساخها حتى مسّت الحاجة الى تأسيس اسواق لمشتراها وبيعها . وراجت تلك الاسواق خصوصاً في عواصم البلدان وفي اهم المدن . فاصبح اهل الادب يتنافسون في اذدخار المخطوطات والكفّ عن بيعها عملاً بقول الشاعر :

هذا كتابٌ لو يباع بوزنهِ ذهباً لكان البائعُ المغبونا
او ما من الخسران انك آخذٌ ذهباً وتترك جوهراً مكنونا

ولم يكتفِ القوم بتهافتهم على اكتناز الكتب بل راح فريق منهم يعتزون بما احرزوا من العلم في صدورهم . وبهذا المعنى أنشد الامام ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي قال (١) :

علمي معي حيثما يممتُ يتبعني قلبي وعاءٌ له لا بطنُ صندوقِ
ان كنتُ في البيت كان العلم فيه معي او كنتُ في السوق كان العلم في السوق

---

(١) الحضارة الاسلامية : تاليف احمد زكي باشا المصري : صفحة ٨١

٢ ـ اسواق كتب الاندلس .

اشتملت الاندلس على اسواق شتّى لبيع الكتب في سالف الزمان اشهرها سوق قرطبة . يؤيد ذلك ما اثبته ابو الفضل التيفاشي بقوله (١) : جرت مناظرة امام المنصور يعقوب ملك المغرب بين الفقيه ابي الوليد بن رشد والرئيس ابي بكر بن زهر . فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة . ما ادري ما تقول . غير انه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حُملت الى قرطبة لتُباع فيها . وان مات مطربٌ بقرطبة فأريد بيع آلاته حُملت الى اشبيلية . ثم قال : قرطبة اكثر بلاد الله كتباً » .

وحدّثنا الحضرميّ عن سوق الكتب في قرطبة قال (٢) : « أقمت مرةً بقرطبة ولازمت سوق كتبها مُدّةً اترقبُ فيها وقوع كتابٍ كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح . ففرحت به اشد الفرح وجعلت ازيد في ثمنه . فيرجع اليّ المنادي بالزيادة عليّ الى ان بلغ الثمن فوق حدّه . فقلت له : يا هذا أرِني مَن يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغَهُ الى ما لا يُساوي . فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة فدَنوتُ منه وقلت له : أعزّ الله سيدنا الفقيه ! ان كان لك غرضٌ في هذا الكتاب تركتُهُ لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه . فقال لي : لستُ بفقيه ولا ادري ما فيه . ولكني أقمتُ خزانة كتبٍ واحتفلتُ فيها لأتجمّل بها بين اعيان البلاد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنتُهُ ولم أبال بما ازيد فيه . والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي : فأحرَجَني وحملني على ان قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً الا عند مثلك . يُعطى الجوز من لا اسنان له . وانا الذي اعلم ما في الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه » .

---

(١) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٧٥

(٢) نفح الطيب : مجلد ١ صفحة ٢١٥-٢١٦

٣ ـ اسواق كتب القاهرة

في اواخر القرن السادس للهجرة اشتهرت سوق الكتب في القاهرة بمصر. وكان سمسارها ابو الفتح ناصر بن ابي الحسن علي بن خلف الانصاري الوجيه المعروف بابن صورة واحرز في مهنته حظاً كبيراً. فكان يجلس في دهليز داره فيجتمع عنده يومَي الاحد والاربعاء من كل اسبوع اعيان الرؤساء والافاضل ويعرض عليهم الكتب للبيع. ويظلون كذلك الى انقضاء وقت السوق. وحلّت وفاة ابن صورة عام ٦٠٧ للهجرة (١٢١١ م) (١).

وكانت سوقٌ للكتب ايضاً بمدينة القاهرة تجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص في اول سوق القناديل بجوار دار عمرو. وكان فيه بقيةٌ بعد السنة الثمانين والسبعمائة للهجرة. ثم دثر فلا يُعرف موضعهُ. وروى ياقوت الحموي «ان زقاق القناديل محلةٌ بمصر مشهورة فيها سوق الكتب والدفاتر والظرائف كالابنوس والزجاج وغيره» (٢). وفي الزقاق المشار اليه كان مارستان الفسطاط الذي يُعَدّ من اقدم المارستانات الاسلامية. وقد بُني في عهد بني امية قبالة دار عمرو بن العاص فاتح مصر (٣). ولا يُعرَف عنه اكثر من ذلك.

وكان قد نقل سوق الكتبيين من موضعه بالقاهرة الى قيساريةٍ كانت في ما بين سوق الدجاجين المجاور للجامع الاقمر وبين سوق الحصريّين المجاور للركن المخلق. وكان يعلو هذه القيسارية ربعٌ فيه عدة مساكن فتضرّرت الكتب من نداوة اقبية البيوت وفسُد بعضُها. فعادوا الى سوق الكتب وما برح هذا السوق مجمعاً لاهل العلم يتردّدون اليه. وقد أنشِدَت فيه هذه الابيات (٤).

---

(١) الفاطميون في مصر : للدكتور حسن ابرهيم حسن : صفحة ١٤٠ وشرح مجاني الادب : للاب لويس شيخو : جزء ٤ صفحة ٦٢٠-٦٢١

(٢) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٤ صفحة ٣٩٦

(٣) الانتصار لواسطة عقد الامصار : لابن دقاق الحنفي : طبع بولاق سنة ١٣٠٩ هـ

(٤) الخطط المقريزية : جزء ٣ صفحة ١٦٥-١٦٦

مجالسة السوق مذمومـةٌ ومنهـا مجالسُ قد تُحتَسَبْ
فلا تقرُبنَّ غير سوق الجيادِ وسوقِ السلاحِ وسوقِ الكتبْ
فهاتيـك آلة اهل الوغى وهاتيك آلة اهل الأدبْ

وكان في القاهرة حتى القرن الثاني عشر للهجرة سوقٌ يقال لها سوق الكتبيين. روى الجبرتي عن احمد السنبلاويّ انه كان صالحاً عالماً عظيم اللحية درّس الفقه في الازهر وانتفع به الطلبة. وكان في الوقت نفسه يحترف بيع الكتب وله حانوتٌ بسوق الكتبيين. وقد توفي سنة ١١٨٠ للهجرة (١).

٤ ـ اسواق كتب بغداد والبصرة وسائر مدن الشرق

اشتملت بغداد وسائر مدن العراق كالنجف وكربلاء والكوفة والبصرة والموصل منذ ايام العباسيين على اسواق للكتب. لان اهل تلك الامصار كلفوا بجمع المخطوطات ولم يزل حفدتهم حراصاً عليها حرصاً غريباً.

وكانت البصرة في عهد الخلفاء العباسيين من اعظم حواضر الثقافة بل اكبرها بعد بغداد عاصمتهم. وكان فيها للكتب ايضاً سوق يجتمع فيها العلماء والشعراء ولا سيما النحاة واللغويون. واورد ياقوت الحموي ان الجاحظ بلغ من رغبته في الاكتساب والمطالعة انه كان يكتري دكاكين الوراقين بالبصرة ويبيت فيها للنظر (٢). واراد ياقوت بالورّاقين تجار الكتب كما هو واضح.

٥ ـ اسواق كتب الشام ومراكش والقسطنطينية وغيرها

ان ما اثبتناه آنفاً عن اسواق الكتب في البلدان المتقدم ذكرها يصدق بحذافيره في سائر الاقطار العربية. فان مدن الشام وتهامة واليمن وتونس والمغرب الاقصى وغيرها كان لها اسواق للكتب رائجة ومعتبرة يؤمّها رواد العلم من كل ناحية.

ومن اقوى الادلة على انتشار الكتب وازدهارها بين العرب ما دوّنه المهلّب

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : لعبد الرحمن الجبرتي : جزء ١ صفحة ٢٨٧
(٢) ارشاد الاريب : لياقوت الحموي : جزء ٦ صفحة ٥٦

لبنيه في وصيته قال : «يا بَنيّ لا تقوموا في الاسواق الا على زرّاد او ورّاق» وقد عنى المهلب بالزرّاد صانع الدروع المزرودة او بائعها ليدرّب بنيه على سماع اخبار الحرب. وعنى بالورّاق تاجر الكتب ليمرّنهم على تحصيل العلم في اسواق الكتب.

وروى ابن طولون الصالحيّ مؤرخ دمشق في كتاب له مخطوط عنوانه «المعزّة في ما قيل في المزّة» ما نصه : «وكانت سوق الكتب في دمشق تحت شبابك المدرسة الفاضلية بالكلاّسة» (١) . وانتقل هذا المخطوط من خزانة الشيخ عبد الرزاق البيطار بدمشق الى خزانة عيسى المعلوف بزحلة .

وكان بجوار محلّ مسجد او جامع كبير في اهمّ المدن العربية سوقٌ تكثر فيها حوانيت باعة الكتب. ففي جوار الجامع الامويّ بدمشق مثلًا «سوق الكتبية» ويقال لها ايضاً «سوق المسكيّة» اذ يغلب فيها بيع الكتب والمسك .

وفي حاضرة مراكش بالمغرب الاقصى «جامع الكتبيين» وهو جامع اثري عظيم يمثل في هندسته حسن الذوق المغربي وبراعة الصنّاع المغاربة في اتقان الفن العربي الجميل (٢) . وقد أطلق عليه هذا الاسم لان موقعه كان في سوق الكتبيين. وفي هذا الجامع عينه بويع بالملك سنة ١١٣٩ للهجرة مولاي محمد ابو عبدالله ابن السلطان الشهير ابي نصر اسمعيل سلطان المغرب الاقصى (٣) .

وورد تحت الرقم العاشر من كتاب «نزهة الرفاق عن شرح حال الاسواق» لابن المبرّد اسم «سوق الكتبيين» في باب البريد بمدينة دمشق (٤).

وكان عبد اللطيف الكيلاني الحلبي المتوفى سنة ١١٩١ للهجرة يتعاطى في قسطنطينية بيع الكتب وصنعة الصحافة (٥) . وظلّ الى زماننا الحاضر في تلك العاصمة سوقٌ اسمه «دَشْتْ» تباع فيه الكتب المخطوطة والمطبوعة .وقد اختلفنا نحن اليه مراراً يوم يمّمنا استنبول عام ١٩٠٠ وعام ١٩١٣ واشترينا منه مخطوطات نفيسة.

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧
(٢) الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة : لعبد الرحمن بن زيدان : صفحة ١٩٨
(٣) اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ٣ صفحة ١٥٤
(٤) المشرق : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨-٢٨ (٥) سلك الدرر : جزء ٣ صفحة ١٣٣

الفصل الثاني عشر

تجارة الكتب

١ ـ مشاهير تجار الكتب وسماسرتها

ممّن أثرى من تجارة الكتب واثرى معه كثيرون من الورّاقين احمد بن عبس الانصاري في الاندلس في عهد مجدها . ويقال انه جمع من الادوات السلطانية والكتب ودواوين الشعر ما لم يجتمع عند ملك . وقد توفي قتيلاً بامر باديس امير غرناطة عشية ٢١ من ذي الحجة سنة ٤٢٧ بالغاً الثلاثين من عمره (١) .

وذكر السلفيّ في «معجم السفر» عن احمد بن سرور بن سليمان السمسطاريّ قال : «رأيته بمكّة سنة ٤٩٧ للهجرة قد كُفّ في آخر عمره وكان عارفاً بالكتب واثمانها . وحلّت وفاة السمسطاري سنة ٥١٧ للهجرة في صعيد مصر (٢) .

ومن كبار تجار الكتب في بغداد علي بن احمد بن يوسف الشيخ زين الدين الآمدي . كان شيخاً مهيباً ذكياً صدوقاً فقدَ بَصَرهُ في اوائل عمره . وتعمّق في ألسن عديدة كالعربيّ والتركيّ والفارسيّ والمغوليّ والروميّ . واشتهر خصوصاً بتجارة الكتب فاقتنى منها ما لا يُحصى ولا يوصَف . واذا طُلب منه كتاب وكان يعلم انه عنده نهض الى خزائن كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعهُ لساعته . وان كان الكتاب عدّة مجلدات وطُلب منه المجلد الثاني مثلاً او الثالث

---

(١) الاحاطة في اخبار غرناطة : للسان الدين الخطيب : جزء ١ صفحة ١٢٩-١٣١

(٢) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٥ صفحة ١٢٦ ونكات الهميان : صفحة ٩٨

او الثامن عشر أخرجه بعينه واتى به . وكان لدى مسّه الكتاب يعرف ما اشتمل عليه من الكراريس . واذا أمرّ يده على صحيفة من الكتاب قال : عددُ اسطر هذه الصحيفة كذا . وفيها بالقلم الغليظ كذا . وهذا الموضع كُتب بالحبر الاحمر او الاخضر او الاصفر وهلمَّ جراً » . واذا اتفق ان الصحيفة الواحدة كُتِبت بقلمين او بثلاثة اقلام مختلفة قال : « اختلف الخط من هنا الى هنا » من غير إخلال بشيء مما يُمتحن به . وكان عارفاً باثمان جميع ما لديه من الكتب واحداً فواحداً . وتوفي في السنة ٧١٢ للهجرة (١) .

ونضيف الى من تقدم ذكرهم تاجراً رابعاً هو ابو عبدالله محمد بن بليش العبدليّ الغرناطي . فانه تميز في اول حياته بالتجارة في الكتب واثرى بها (٢) لكنهُ أغنى جهة وأفقر جهةً اخرى (٣) . وقد برع بالطب ومات سنة ٧٥٣ للهجرة .

وكان ياقوت الروميّ الحمويّ (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ و١١٧٨ - ١٢٢٨ م) صاحب معجم البلدان ذا خبرةٍ واسعةٍ بتجارة الكتب . لانه تعاطاها بنفسه تعاطيه نساخة الكتب ايضاً (٤) .

ومن اكبر تجار الكتب عبد المؤمن بن العجميّ عز الدين توفي سنة ٧٤١ للهجرة . كان من بيوتات وجهاء حلب وأحرز من تجارته بالكتب مالاً جماً . ولما اعتزل تلك الحرفة في اواخر عمره كان لا يخرج من منزله الا للصلاة او لعيادة مريض او لسوق الكتب (٥) .

واشتهر في القاهرة بتجارة الكتب الشيخ حُسَين المحلّي المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة . وضع مصنّفات جمة وكان يكتب تآليفه بخط يده ويبيعها لمن يرغب فيها .

---

(١) نكات الهميان : صفحة ٢٠٦

(٢) تعريف الخلف برجال السلف : لابي القاسم محمد الحفناوي : جزء ١ صفحة ١٠٢

(٣) نفح الطيب : جزء ٤ صفحة ٤٦

(٤) معجم الادباء : جزء ١٦ صفحة ٢٢٥ واعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٣٦٩

(٥) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٥٧٣

وكان له حانوتٌ بجوار باب الازهر لبيع الكتب . وكان يعتني بتسفيرهـا الى المتعاملين معه في شتى الانحاء (١) .

٢ ـ تجار الكتب الجوالون

اشتهر في جميـع العصور ادباء جوّالون يتنَقلون من بلدٍ الى بلدٍ يشترون المخطوطات او يبيعونها . وقام فريقٌ منهم يطوي الصحاري ويجوب الاقطار حاملاً المخطوطات على ظهره كأنه سوق كتب طوّافـة . فكانوا كيفما ذهبوا او حيثما حلوا يروّجون سوق الادب بترويج سِلَعهم الكتابية . وقد اورد المؤرّخون طُرَفاً مستملحة من نوادر اولئك التجّار الجوّالين في الازمنة الغابرة . نذكر منهم محمد العبدليّ الذي عاش في مصر ونواحيهـا في القرن الثاني عشر للهجرة . وكان ينقل منها الكتب الى الاطراف فيحصل له كل يوم نادرة ويظفر كل يوم بفائدة (٢) .

وعرفنا في العصر الحاضر رجلا دمشقياً اسمه نور الدين المسوتيّ ارتحل مشياً على قدميه الى العراق وبلاد فارس وما بين النهرين . ثم عـاد منها الى سوريا يجمع المخطوطات ويتاجر بها . وقد تعاملنا معه تعاملنا مع كثيرين من تجار الكتب وكبار سماسرتها ومروّجيها في الامصـار العربية . فاحرزنا منهم مخطوطـات ثمينة زينّا بها مكتبتنا الخاصة . وممّن يخطر ببالنا من اولئك التجـار الجوّالين نذكر : يوسف اليان سركيس وامين الخانجي في القاهرة . وحمدي السفرجلاني في دمشق والشيخ مصطفى النعسان في حماة وغيرهم .

٣ ـ دلّالو الكتب

مثلما اشتهر في اسواق الكتب تجار وسماسرة اشتهر فيها كذلك دلاّلون اصابوا

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : لعبد الرحمن الجبرتي : جزء ١ صفحة ٢٢٤
(٢) سلك الدرر : جزء ٤ صفحة ١٢٥

من مهنتهم حظاً وافراً . وفي جملة من اطّلعنا على اخبارهم من اولئك الدلالين اسمعيل بن احمد بن ابي الاشعث السمرقنديّ (٤٥٤ - ٥٣٦ هـ) . وُلِدَ في دمشق الشام ثم خرج عنها الى بغداد واستوطنها الى ان مات . وكان مع اتقانه الاصول وصناعة النسخ ماهراً متوّفقاً في دلالة الكتب . ويروى عنه انه عثر يوماً على «صحيح البخاري» وعلى «مُسلم» في مجلدة لطيفة كتبها الصوري بخطه فاشتراها الدلال اسمعيل السمرقندي ثم باعها بعشرين ديناراً . قال السمرقندي : « وقعتْ علي هذه المجلدة بقيراطٍ لاني اشتريتها وكتاباً آخر معها بدينارٍ وقيراطٍ . فبعت ذلك الكتاب بدينار وبقيت لديّ هذه المجلدة بقيراط . فتوفقت في بيعها بعشرين ديناراً (١) » .

وُعرِف بعد السمرقندي بوقت قصير دلال آخر لا يقل عنه شهرة ومهارة وحظاً . وهو ابو المعالي سعد بن علي الخزرجي الوراق الحظيريّ الذي توفي بتاريخ ٢٥ صفر سنة ٥٦٨ للهجرة في مدينة بغداد (٢) .

٤ - كساد تجارة الكتب

على اشتهار اسواق الكتب بالرواج في سالف الاحقاب لم تخلُ من عهدٍ اصاب تجارتها فيه الكسادُ والجمود . وقد عمّ هذا الكساد جميع البلاد العربية بعد انحلال دولها واستفحال امر المتغلبين عليها كالتتر والاكراد والاتراك وغيرهم . ومن البلية ان اولئك المتغلبين كانوا على جانبٍ عظيمٍ من الجهالة والغباوة . فسرى داؤهم هذا الوبيل الى اصحاب البلاد الذين غُلبوا على أمرهم وظلّوا احقاباً يتسكعون في دياجير الجهل . والى هذا الجهل وذلك الكساد يشير احد الشعراء بقوله (٣) .

الدهر دهرُ الجاهلين ... وأمرُ اهلِ العلم فاتِرْ
لا سوق أكسد فيهِ من ... سوق المحابر والدفاتِرْ

---

(١) تاريخ ابن عساكر : جزء ٣ صفحة ١٠
(٢) خزانة الادب : للبغدادي : جزء ٣ صفحة ١١٨
(٣) نفح الطيب : للمقري : جزء ١ صفحة ٣٩

الفصل الثالث عشر

عباد المخطوطات وعشاقها

١ ـ صرعى المخطوطات

سبق لنا في فصول شتى من مؤلفنا هذا ان روينا اخباراً وطرفاً عن حرص العظماء والعلماء على خزائن كتبهم وعلى ما حوته من صنوف الذخائر. وبلغ ذلك الحرص منهم مبلغاً يقصر عن وصفه يراع كاتب ولسان خطيب. لان الضنانة بالكتب ملكت عقولهم وجعلتهم يتعبّدون لها ولا يستأثرون من الدنيا بسواها ولا يهجس في ضمائرهم هاجسٌ غيرها ليلهم ونهارهم.

زد عليه ان بعض اولئك الصرعى التهوا بمخطوطاتهم عن كل عزيز فتقتّلوا لها وصرفوا اوقاتهم بينها لا يفارقونها الاّ لتناول الطعام او الرقاد او لقضاء حاجة ضرورية. بل حدا الشغف فريقاً منهم على ان يضعوا كتبهم حولهم او فوق صدورهم عندما يرقدون كأنّها حرزٌ يتعوّذون بها. ولا غرابة اذا عدّهم القوم «صرعى الكتب» لفرط المشابهة بينهم وبين صرعى الغرام كقيس بن الملوّح العامري الملقب بمجنون ليلى وغيره.

٢ ـ مناحة الوزير القفطي على مخطوطٍ ينقصه

طالعنا حكايات غريبة عن صرعى الكتب نقتصر منها على حادثة جرت بجلب للوزير جمال الدين القفطيّ المتوفىّ سنة ٦٤٦ للهجرة. ومؤدّاها ان الوزير عثر يوماً على نسخة مليحة من كتاب «الانساب» لابن السمعاني ينقصها مجلد من اصل خمسة مجلدات فاشتراها. وظلّ يبحث عن المجلّد الناقص ويطلبه من مظانّه فلم يتوفق

الى الحصول عليه . واتّفق ان بعض معارفه اجتازوا بعد ايام بسوق القلانسيّين فصادفوا اوراقاً من المجلّد المفقود احضروها اليه . فاستدعى جمال الدين صانع القلانس واستطلعه طلع المجلّد المذكور فقال له القلانسيّ : «اشتريتُه في جملة اوراق وعملتُه قوالب للقلانس» فحزن القفطيّ حزناً مفرطاً وتخلّف عن الذهاب الى مركز وزارته في قلعة حلب . واقام في داره مناحة استدعى اليها ندّابين وندّابات فناحوا على المخطوط المفقود وندبوه كما يُندَب ميت عزيز . وتوافد الاعيان والاصدقاء والادباء يعزّون الوزير عن مصابه ويسرّون الغم عن قلبه (١) .

ومن هذا القبيل قول الشريف ابن طباطبا :

اذا أفجع الدهر امرءاً بخليله   تسلّى ولا يُسلَى بفجع الدفاتر

٣ ـ الشيخ الصفار يدعو في المسجد على حابس كتبه

روى البيهقي نقلاً عن ابي عبد الله الحافظ قوله : «رأيت الصفّار في مسجده واقفاً في المنبر ورافعاً كفّيه الى السماء . وسمعتُه يصرخ مبتهلاً الى الله سبحانه بهذه العبارة . اللهمّ انك تعلم ان ابا العبّاس المصريّ ظلمني وخانني وحبس عني اكثر من خمسمائة جزء من اصولي . اللهمّ لا تنفعه بتلك ولا بسائر ما جمعه من كتب الحديث ولا تبارك له فيها !»

ويُعَدّ الشيخ الصفّار من كبار صرعى الكتب لفرط ضنانته بها وحرصه عليها. فكان لايغشى مجلساً الا ندب مخطوطاته المسلوبة وناح عليها نوح الثكلى . وكان لا ينفك ليله ونهاره يدعو على ابي العبّاس الذي سلبه اياها عنوةً وظلماً . وقد استجاب البارىء تعالى دعاء عبده الشيخ الصفّار لنقاوة سريرته وصلاح سيرته فانتقم له من ابي العباس المصري غريمه فرثّت احواله بعد اليُسر وساءَت عاقبتُه (٢) .

---

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٤٢١

(٢) تاريخ ابن عساكر : جزء ٢ صفحة ٧٢

الفصل الرابع عشر

سخط الرهبان واحبار النصارى على سراق مخطوطاتهم

حرص ائمّة النصارى كل الحرص على مخطوطات مكتباتهم في الاديار والكنائس . فكانوا يعتبرونها من اثمن ما خلفه لهم اسلافهم ومن اثمن ما سطرته اقلامهم او ملكته يمينهم . فسخطوا السخط كلّه على سارقها واستنزلوا لعنة الله وغضبه على من تجاسر فسلبها او باعها او قطع منها ورقة واحدة .وكل من طالع ما كتبوه او علّقوه بيدهم في خاتمة المخطوطات من عبارات اللعنة والحرم وغضب الله وما شاكل ذلك اعترته الرعدة واستولت على فرائصه القشعريرة . واليك القراء نتفاً من تلك العبارات نقلناها عن مخطوطات الملل النصرانية كالنساطرة والملكيين والموارنة والسريان والاقباط وسردناها كما يلي :

١ ـ الراهب سيسين النسطوري يستنزل على سارق كتابه جميع لعنات السماء والارض

عاش الراهب سيسين في القرن التاسع للميلاد كما يستفاد من مخطوط ثمين في المتحف البريطاني بلندن موسوم بالرقم ١٢،١٣٨ وقد نسخه سيسين في نيسان السنة ٨٩٨ للميلاد وذلك في عهد ايونيس الثالث جاثليق وبطريرك النساطرة (٨٩٢ ـ ٨٩٨ م) ويعقوب اسقف حرّان والرقّة . ويشتمل هذا المخطوط على شرح كتاب العهد القديم شرحاً لغوياً طبقاً لطريقـــة علماء اليهود المعروفة عندهم وعند الفرنج

بلفظة **Massore** ويراد بها ضبط قراءة الكتاب المقدس ونقد عباراته وإحكام حركاته وسكناته .

ففي المخطوط المومأ اليه يقرأ ما يلي : « نسخ هذا الكتاب الشماس سيسين بن دودون . كل من يأخذ هذ االكتاب ليقرأه او ينقل عنه او يقابله ولا يرده الى صاحبه يكون محروماً من الثالوث الاقدس المجيد . ويكون وارثاً برص حجزي ومشنقة يهوذا الدافع . وفضيحة سيمون الساحر . وتكون السماء فوقه نحاساً والارض تحته رصاصاً . وتنصبّ عليه جميع اللعنات المكتوبة في سفر تثنية الاشتراع » .

اما اللعنات الهائلة التي اشار اليها الشماس سيسين فقد اثبتها موسى الكليم في سفر تثنية الاشتراع (٢٨ : ١٥ – ٦٨) وتتلخص (١) بما يلي : ان لم تطع كلام الرب الهك فتكون ملعوناً في المدينة وملعوناً في الصحراء . ويكون ملعوناً سلّكَ ومعجنكَ . وملعوناً ثمر بطنك وثمر ارضك ونتاج بقرك وقطعان غنمك. وتكون ملعوناً انت في دخولك وملعوناً في خروجك . يضربك الرب بالسلّ والحمّى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتّبعك حتى تفنيك . وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والارض التي تحتك حديداً . وتصير جثتك مأكلا لطير السماء ووحش الارض . يضربك الرب بقروح مصر والبواسير والجرب والحكّة حتى لا تستطيع مداواتها . ويضربك الرب بالجنون والعمى . وبقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين من اخمص قدمك الى قمة رأسك . تلد بنين وبنات فلا يكونون لك بل يذهبون سبياً »

وختم سيسين كلمته بقوله : « ارتعشْ ايها الشقي من كلمة الله الهائلة واياك ان تحتقرها (٢) » .

---

(١) راجع النص الكامل لهذه اللعنات في «تثنية الاشتراع» وهو السفر الخامس من توراة موسى

(٢) مخطوط لندن : رقم ١٢،١٣٨

٢ ـ مرقص اسقف صيدنايا يفرز سارق مخطوطاته من الله ومن الرسل والمجامع السبعة

تولى مرقص اسقفية صيدنايا في السنة ١٤٤٦ ثم ارتقى الى الرتبة البطريركية عام ١٤٥١ باسم ميخائيل الثالث (١٤٥١ ـ ١٤٥٦) . وقد علق بيده على مخطوطة محفوظة في المكتبة الواتكانيّة (١) ما نصه : «هذا التريودي المبارك (المنسوخ في السنة ١٢١٥ م) . قد استعاره الاب المتنيح الى رحمة الله تعالى السيد المطران كير يوحنا مطران حمص . وهو من كتب دير القديس خريسطفوروس بصيدنايا . ثم بعد ذلك توجه الحقير في رؤساء الكهنة مرقص اسقف صيدنايا بعد نياح المذكور بسنين مقدار خمسة عشر سنة الى مدينة قارا المعمورة ... وألزمهم باحضاره وخلّصه بعد جهدٍ لصيدنايا . وهو وقف مؤبّد وحبس محرّم على الدير المذكور . فما لاحد سلطان من الله تعالى يخرجه عن الوقفية بوجه من الوجوه ولا يبيعه ولا يوهبه ولا يقايض فيه . ومن تجاسر وفعل غير ذلك كان محروم مفروز من مجد الله تعالى ومن سبع المجامع المقدسة ومن الرسل الاطهار . ومن تجاسر وقطع الورقة كان له نظير ذلك. وكتبه مرقص الاسقف الحقير بتاريخ ثامن شهر اذار المبارك سنة ٦٩٥٤ لكون العالم (١٤٤٦ م) والسبح لله دائماً » .

٣ ـ حبيس لبناني يدعو على سارق دير مار شيقون بحظ يوضاس اللعين

قرأنا في مخطوط ماروني نسخ سنة ١٥٢٢ ما حكايته : «وكان الفراغ من هذا الكتاب في حبيس قزحيا مار بيشاي الى يونان من قرية متريت . وهو برسم القديس مار شيقون . . ومن غيّرهم يكون تحت الحرم . ومن اخذهم يكون القديس

---

(١) المكتبة الواتكانية : رقم ٧٤ ورقة ١٢٤

خصمهم يوم القيامة . ويكون حظه مع يوضاس اللعين الذي قال اصلبه آمين آمين (١)» .

٤ ـ مطران ملكي يدعو على سارق كتبه بلعنة لا تفارقه

اول من عُرف من اساقفة حلب بعد القرن العاشر غريغوريوس ابن فُضَيل . تولى الاسقفية على الروم الملكيين عام ١٥٤٠ وتوفي في حماة سنة ١٥٨٢ وقرأنا له في كتاب «قنداق» ما نصه : لمجد الله دائماً . الحقير في رؤساء الكهنة غريغوريوس خادم كرسي حلب واعمالها . هذا القنداق المبارك برسم الاخ القسيس عبد المسيح ابن المرحوم فضل.. ابن نجار من معمورة كفر بهم . وهو ساكن يومئذٍ بمحروسة حلب . وهو يسأل كل من قرأ هذه الاسطر الحقيرة يدعو له بغفران الخطايا يكون له نظير ذلك من الواعد الصادق في مواعيده والسبح لله دائماً . لعن الله سارقه . لعنة لا تفارقه . اين ما راح ترافقه . ساكنة في خوانقه . وهي والله توافقه (٢) »

٥ ـ بطريرك ملكي يهدد بالحرم واللعنة من يحرق كتبه او يسرقها

كان البطريرك افتيموس الثاني (١٦٣٤ ـ ١٦٣٥) المعروف بابن كرمة من أكتب احبار زمانه ومن افضل تراجمة عصره. انصرف خصوصاً عندما كان مطراناً في حلب على الروم الملكيين الى الترجمة والتأليف . فخلّف آثاراً كتابية تشهد له بطول الباع (٣) . وكان ضنيناً بمخطوطاته ومؤلفاته الى درجة متناهية حتى انه تهدّد كل من يحرّقها او يسرقها بالحرم واللعنة وغضب الله عزّ وجلّ . وقد قرأنا له

---

(١) فهرس مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١١٩-١٢٠
(٢) المشرق ٣٦ سنة ١٩٣٨ صفحة ٦٧٤
(٣) الملكيون : بقلم الخوري اسحق ارملة : صفحة ٦٨ و ٦٩

في مقدمة مخطوطة من مؤلفاته ما يلي (١): «كل من مسخها بعد وفاتي وغيّر منها حرفاً واحداً فليعلم انه لجماعة الارثذكسيين ناكر وجاحد. ويكون محروماً مفروزاً من مجد الله. وعلى من يطابقه اللعنة والغضب من الله !».

وعلّق البطريرك افتيموس نفسه على انجيل حبسه على دير القديسة كاترينا بالقدس الشريف ما نصّه (٢): «... فما لأحد سلطان من الله تعالى ان يغيّره من الوقفيّة المذكورة بوجه من الوجوه او بحيلة من الحيل. او يبيعه او يشتريه او يقايض فيه او يختلسه لنفسه. او يخرجه عن الوقفية المذكورة. الى ان يرث الله تعالى الارض وما عليها وهو خير الوارثين. وكل من تعدّى ما حددناه وخالف ما سطّرناه كائناً من كان يكون ذلك الانسان غضب الله ورجزه عليه وعلى هامته وجسده وسائر تصرّفاته. ويكون محروم مفروز من السبعة مجامع المقدسة. ومن فم رئيساء كهنة الدنيا. ومن فمي انا الحقير افتيموس البطريرك الانطاكي وسائر المشرق... تحريراً في اوائل شهر اذار سنة ٧١٤٣ لآدم (١٦٣٥ م) ولربنا الحمد دائماً».

٦ ـ مطران ماروني يرشق بالحرم الصارم من يسرق مكتبته

كان المطران جرمانس فرحات (١٦٧٠ ـ ١٧٣٢) الماروني ضنيناً كل الضنانة بمخطوطات مكتبته التي جمعها في حلب وانفق عليها مالاً وافراً. وبذل في اقتنائها وتنظيمها جهوداً جبّارة. واعتبر كل من اختلس كتاباً منها خارجاً على عهود الصدق والامانة. وبرهاناً على ذلك فقد صدّر لائحة مخطوطاته بهذا التهديد الديني المريع قال: «والذي يسرق كتاباً من المكتبة... يكون بيته مثل صادوم

(١) مخطوطة مكتبة بكركي في لبنان: رقم ١٢٨

(٢) خزانة مخطوطات القبر المقدس بالقدس الشريف: رقم ٢٧

وعامورا (١) ويذهب رزقه وينهدم بيتـه وتشحذ اولاده من ابواب الخلائق . والويل له ان رضي لنفسه ذلك (٢) » .

٧ - مطران سرياني يهدد من يختلس كتب ديره بحبل يوضاس في عنقه

قام بين احبار السريان في القرن الثامن عشر السيد ديونوسيوس بشارة جزرجي مطران حلب (١٧٢٥-١٧٥٩) وحضر المجمع اللبناني عام ١٧٣٦ في دير لويزة (٣). وخلـّف آثاراً علمية ونسخ بخط يده كتباً جمة اطلعنا على بعضها . وكان المطران بشارة مولعاً كل الولع بمخطوطاته وبما جمعه من التآليف في خزانة ديره . ويتضح لقارئها فرط اهتمام هذا المطران للذخائر الكتابيـة . ومن بقايا آثار قلمه كتاب «فصول الاناجيل» في ٢٤٦ صفحـة كبيرة قرأنا في آخره : «تمّ في ٢٥ كانون الاول سنة ١٧٣٧ مسيحية على يد احقر الرؤساء وارذلهم ديونوسيوس برحمـة الله تعالى مطران حلب . وقد كتبه له ولذاته . ويرجو من كل اخٍ ينظر فيه ام يقرأ معانيـه ان يطلب له الرحمة والغفران من الخالق الرحمان لانه يجد مثل ذلك (٤) . وقف دير مار افرام في جبل لبنان لطائفة السريان . كلّ من يخرجه عن الوقفيـة غضب الله وحبل يوضاس في رقبته . وكلّ من اختلس كتاباً من هـذا الدير وما رده ... تكون اللعنة عليه مثلثة مع حبل يوضاس (٥) ...»

٨ - مطران قبطي يدعو على من يبيع او يرهن او يسرق كتبه بنصيب سيمون الساحر ويهوذا الاسخريوطي

حوت المكتبة الشرقية ببيروت مخطوطاً نفيساً اشتمل على كتاب «ابصلمودية»

---

(١) سفر التكوين : اصحاح ١٩ عدد ٢٤ (٢) المشرق : مجلد ١٧ سنة ١٩١٤ صفحة ٢٤
(٣) المجمع اللبناني : طبعة جونية سنة ١٩٠٠ صفحة ٢٩ و ٥٥٧
(٤) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : صفحة ٢١١
(٥) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٣٧ و ٣٨

يتضمن تسابيح واناشيد وفقاً للطقس القبطيّ. وقد اضيفت اليه ترجمة عربية . وفي دائرته اطار ذو ثلاثـــة خطوط ملوّنة . نسخه مرقص بن تادرس ودخل بملك كنيسة الاسكندرية سنة ١٥٥٠ للشهداء (١٨٣٣ م) . وقد وقعه صرابامون اسقف الاسكندرية اليعقوبيّ بختمه وكتب عليه ما نصه بحروفه : «بسم الله الرؤوف الرحيم . المجد لله في العلوّ . وقفاً مؤبداً وحبساً مخلداً على القديس ماري مرقص الانجيلي بثغر الاسكندرية لا يُباع ولا يُرهن ولا يُخرج من البيعة المذكورة . وكلّ من خرّجه يكون محروماً ويكون نصيبه مع سيمون الساحر ويهوذا الاسخريوطي و... الكافر . وكلّ من قطع هذه الورقة الله يقطع يمينه بسيف من نار . والذي يحفظه على وقفيته يكون محاللاً مباركاً . ولله الشكر دائماً ابداً سرمدياً (١) .

---

(١) المشرق : مجلد - سنة ١٩٠٣ صفحة ٥٤٢-٥٤٣

الفصل الخامس عشر

الكتب المستعارة

١ – اقوال الشعراء في اعارة الكتب واستعارتها

افرط فريق من جمّاعي الكتب كل الافراط في شدة تشبثهم بها ومحافظتهم عليها . فطفقوا يحجبونها عن الابصار لا يرخصون لكائنٍ من كان ان يطلع عليها او ينسخ شيئاً من مضامينها. وقد ضرب بعضهم الامثال في استنكاف جمّاعي الكتب من اعارة كتبهم واستنكارها على طلابها . وخالفهم قوم فحبذوا اعارة الكتب ليعم الانتفاع بها . فقال محمد بن خليفة الشاعر التونسي في هذا المعنى :

ألا يامستعير الكتب دعْني ... فان إعارتي للكتب عارُ
فمحبوبي من الدنيا كتابٌ ... وهل ياصاحِ محبوبٌ يعارُ (١)

وعارضه شاعر آخر بهذين البيتَين :

ألا يا مالكاً للكتب عِزْها ... فما باعارةٍ للكتب عارُ
لئن احببتَ في الدنيا كَتاباً ... فمحبوب الأحبة قد يُزارُ

وقد شطر احدُهم البيتَين الاولين بقوله :

« ألا يا مستعيرَ الكتب دَعْني» ... فلي في الكتب يا صاح افتخارُ
اذا سلوايَ كانت في كتابي ... «فان اعارتي للكتب عارُ»

---

(١) اتحاف اعلام الناس : جزء ٤ صفحة ٢٧١

«فمحبوبي من الدنيا كتابٌ» وبجدي الكتب لا مجدي اتجارُ
فهل شاهدتَ مجداً بيع بخساً «وهل ابصرتَ محبوباً يعارُ»

وقال غيرهُ :

لا تعيرنّ كتاباً واجعل العذرَ جوابًا
واقبض الرهن عليه ان في الرهن صوابًا (١)

فقابله شاعر ثان بهذه الابيات :

عِرْ الى الخلّ كتاباً لا يكُ العذر جوابًا
واترك الرهنَ عليه لا ترى في ذا صوابًا
فاذا خالفتَ قولي انت ضيّعت الصحابًا

وانشد احدهم هذين البيتين في استعارة الكتب ووجوب ردها الى صاحبها قال :

اذا استعرتَ كتابي وانتفعت به فاحذرْ وقيت الردى من ان تغيّرهُ
وارْددْهُ لي سالماً اني شغفتُ بهِ لولا مخافةَ كتمِ العلمِ لمْ تَرَهُ

وكان احد علماء دمشق يملك نسخة من شرح ابن ابي صادق لكتاب «منافع الاعضاء» تأليف جالينوس منقولة عن خط المؤلف . فكتب اليه الطبيب عز الدين بن السويدي قصيدة يلتمس ان يعيره المخطوط المذكور وقد اورد فيها هذين البيتين :

وامنن فانت ابو المكارم والعُلى بكتاب شرح منافع الاعضاءِ
فاعارة الكتب الغريبة لم تزلْ منْ عادة العلماءِ والفضلاءِ

---

(١) عن مخطوط بدار الكتب اللبنانية في بيروت عنوانه «شرح الترتيب» دون ناسخه في اوله البيتين الواردين في المتن

ونضيف الى ذلك ابياتاً بعث بها الحاج حسين بيهم البيروتي الى صديقه الشيخ مصطفى الدجّاني مفتي يافا. وقد عرّض الناظم فيها بحاجته الى استقراض مخطوطة كتاب « العقد الفريد » كانت في الخزانة الدجانيّة قال :

ألمعيّ في زوايا فكره	كَمْ خبايا لمعتْ للمستفيدْ
قد جمعتم كل علمٍ مثلما	جَمَعَ الاشياءَ قرآنٌ مجيدْ
فلهذا ارتجي من فضلكمْ	ان اردتم قرضة العقد الفريدْ
ثم من بيروت يَسعَى مسرعاً	فيوافيكم قريباً في البريدْ
واجعلوا عهدي كصكٍّ عندكم	وحُسَيْنٌ شكره دوماً يزيدْ

وراح بعضهم يستنكر بيع الكتب او هبتها . ومن هذا القبيل طالعنا بيتين في مخطوطة عنوانها « البردة الشريفة » نُسخت عام ١٢٧٢ للهجرة . وقد اهديناها الى دار الكتب اللبنانية . واليك نص البيتين (١) :

تمّ بجهدٍ وتعبْ	بعدَ عناءٍ وَنَصبْ
فلا تبِعْ ولا تهبْ	ولو بوادٍ من ذَهبْ

٢ ـ استعارة المخطوطات والكتب بين الدول

اعتادت الدول اعارة المخطوطات النادرة والمطبوعات الثمينة واستعارتها تسهيلاً لأبحاث العلماء ودروسهم . فاتفقت الدوائر الرسمية والمكتبات الكبرى والمعاهد العلمية في تلك الدول على اتباع خطة منتظمة في مبادلة الكتب المخطوطة او المطبوعة . ونعني بتلك الكتب كما قلنا ما كان منها نادراً غالياً لا يوجد منه الا نسخة او نسختان في جميع انحاء الدنيا .

وغير خافٍ ان الهدف من استعارة تلك الكتب واعارتها انما هو القيام بابحاث ثقافية خطيرة يحتاج المشتغلون بها الى المراجعة والتدقيق فهي تمثل بذلك شكلاً من الثقافة لا يتسنى للدول الوصول اليه الا عن طريق الاعارة والاستعارة.

---

(١) البردة الشريفة : بخط مجد الدين مؤلف القاموس : مخطوطة دار الكتب اللبنانية ببيروت

وتزداد نسبة استعارة الكتب واعارتها ازدياداً مطرداً حولاً بعد حول ولنا بالمتحف البريطاني الشهير اكبر مثال على ما اعاره واستعاره من الكتب خلال السنتين ١٩٣٧ و١٩٣٨ للميلاد . فقد بلغ عدد الكتب التي اعارها المتحف سنة ١٩٣٧ للدول الاجنبية ثلاثمائة وثمانية وسبعين كتاباً . وبلغ عدد الكتب التي اعارها لاحدى وعشرين دولة سنة ١٩٣٨ اربعمائة وستة وسبعين كتاباً . اما ما استعاره المتحف البريطاني من الدول عام ١٩٣٧ فقد بلغ مائة وسبعين كتاباً . واستعار عام ١٩٣٨ من خمس عشرة دولة اجنبية ثلاثمائة واثني عشر كتاباً (١) .

٣ ـ المماطلة بالكتب المستعارة

كتبنا في غير هذا الفصل كلمة مُرّة عمّن يستعير الكتب ويماطل باعادتها الى اربابها او يتصرّف فيها كأنها ماله وحلاله . ويُقاس هذا القياس على من يستعير الكتب ويسوّف صاحبها مرجئاً اعادتها اليه حيناً بعد حين . ولله احد الشعراء يطالب صديقاً له بردّ كتبه اليه :

ما بال كتبي في يديكَ رهينةً ... حُبِست على مرّ الزمان الاطول
ائذن لها في الانصرافِ فانها ... كنزٌ عليه اذا افتقرتُ معوّلي

وكتب غيره الى صديقٍ له :

غدرتَ بجبس دفترنا ... وعهدي بالاديب ثِقَةْ
ولست احب للادبا ... ءِ ان يرتكبوا سرقَةْ

ومن نُكَت المماطلة في ارجاع الكتب المستعارة ان الصدر تاج الدين احمد ابن الامير الكاتب استعار مجموع كتب من مجاهد الدين بن شقير وأطال مَطْلَهُ بهِ . واتّفق يوماً ان حضر مجاهد الدين الى ديوان المكاتبات حيث كان ابن الامير . فبادهَهُ ابن الامير قائلاً : «كيف انت يا مجاهد الدين ؟ والله قلبي وخاطري عندكِ» فاجابه مجاهد الدين ملمّحاً الى مجموع كتبه : والله وانا مجموعي عندكِ» !

---

(١) مجلة «الثقافة» بالقاهرة : مجلد ١ سنة ١٩٣٩ عدد ٢٦ صفحة ٤١-٤٢

الباب الخامس عشر

مخطوطات العرب المزوقة والمصورة

نظرة اجمالية في فن التصوير عند المسلمين

كان التصوير غير معروف عند عرب الجاهلية لاستغنائهم عنه في حياتهم البدوية وشؤونهم الاجتماعية ، وهو فن من الفنون الجميلة التي كان يسميها العرب «الآداب الرفيعة». ونظراً الى جهلهم هذا الفن ، اهملوه كما اهملوا غيره من الفنون والعلوم التي اشتهر بها غيرهم من الامم . ولا عبرة ببعض النقوش التي خلّفها العرب في بلاد اليمن . وهي عارية عن الذوق والجمال والاتقان .

ولما انتشر الاسلام بين العرب نهاهم الشرع عن التصوير (١) بدليل ما ورد في الحديث «ان من اشدّ الناس عذاباً المصورين» . وقد ورد في الحديث ايضاً ان «كل مصور في النار» فكسد لذلك فن التصوير بين المسلمين (٢) . وكان هذا التحريم داعياً الى ان يتشبّث المسلمون بنص الحديث ويمقتوا التصوير ويصبحوا من ألدّ اعدائه . هكذا انصرف العرب عن الاشتغال بهذا الفن رغم وجودهم بين شعوب راقية عملت على تعزيزه كالروم والفرس والسريان والهند والصين . وقد وقفنا على وصف دقيق لفن التصوير عند المسلمين بقلم السيد سلامه موسى احد مشاهير الكتّاب في القرن العشرين قال :

---

(١) مقدمة ابن خلدون : صفحة ٢٦٢ ـ المطبعة الادبية في بيروت : طبعة ثالثة سنة ١٩٠٠

(٢) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ٩٥١

«ولما وجد رجال الفن المسلمون ان الدين يعارض النزعة الفنيـة في الرسم والنحت ، عمدوا الى تصوير الجمال عن طريق الذهن لا عن طريق البصيرة فجعلوا فنونهم ذهنية . ولذلك فانهم بالغوا في اتقان الصنعة مع اهمال الفن الا ّ حيث يميل الفن بطبيعتـه لان يكون ذهنياً كما نرى مثلاً في البناء ، فانهم اقاموا عدداً كبيراً من المباني الفخمة . وكذلك في الشعر ألّفوا القصائد الرائعة ولكنهم اتقنوا الصنعة هنا دون الفن . فان لهم القصائد ولكن ليست لهم الدرامة او الملحمة .

«والفنون الاسلامية على وجه العموم هي فنون الذهن تنقصهـا البصيرة والرؤيا والخيال . وهي تميل الى اتقان الصنعة مع تناسي الغاية من الفن . ولذلك فان مقامها لم يكن عظيماً عند المسلمين حتى اننا قلما نجد اسم الصانع مدوّناً بجانب احد النقوش او احدى العمارات . واهمال اسمه يدلّ على الاحتقار الذي كان يضمره له مستخدموه . . . ولما رأى المسلمون ضيق الميدان الذي يمكنهم ان يستخدموا فيه مواهبهم الفنية ، اضطرّوا الى ان يجعلوا من الخط العربي فناً ، فزيّنوه وزخرفوه وزوّقوه حتى صار له جمال خاص (١) » .

على ان العرب المسلمين كانوا يتسمّحون في اقتناء الرياش المصنوع في غير بلادهم والمزين بالصور . وكانوا في بعض الاحيان يقلدون ما يقع بين ايديهم من مصورات الفرس والروم او ما جاء به السلاجقـــة بعد ذلك من صناعة المغول في اواسط التركستان (٢) . وقد ذكر المسعودي ان قصر العباسيين ببغداد على عهد المنتصر بن المتوكل (٢٤٧ ـ ٢٤٨ هـ) حوى بساطاً نقشت عليه صور ملوك في جملتهم صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك وصورة شيرويه بن ابرويز . ويروى عن ام الخليفـة المستعين بالله (٢٤٨-٢٥٢ هـ) ان بلاطهـا الملكي كان يزينه بساط نفيس مطرز بالصور المرصعة .

---

(١) سلامة موسى : تاريخ الفنون : صفحة ٢٨-٣٢

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي : لجرجي زيدان : جزء ٥ صفحة ٣٢

١ ـ نشأة التصوير عند العرب

من المقرر ان العجم (١) سبقوا العرب وجميع المسلمين في اقتباس فن التصوير والاعتناء بترقيته ، يؤيد ذلك ما اثبته ابن خلدون في مقدمته قال :

« من ابهّة الملك والسلطان ومذاهب الدول ان تُرسم اسماؤهم او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم . . . وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك واشكالهم او باشكال وصور معيّنة لذلك . ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب اسمائهم مع كلمات اخرى . . . » (٢) .

ولما سقطت الدولة العباسية سنة (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) وقامت على انقاضها دولة المغول او التتر اشتدّ ساعد الفرس واجتمعت كلمتهم على اعادة مجدهم القديم . فجدّدوا فن التصوير الذي كان شائعاً عندهم في سالف الاحقاب . ثمّ زادوا في اتقانه بما تلقّوه عن اساتذة صينيين مشهورين بالهندسة والفنون الجميلة استقدمهم المغول ليتولوّا هندسة حصار بغداد . ويرجع الفضل الى الفرس المسلمين بعد استقلال دولتهم الصفوّية في نشر فن التصوير بين ظهرانيهم وفي سائر الممالك الاسلامية . فازداد كلفهم به واحكموا صناعته واخذوا يزينون به كتبهم وحللهم وحليّهم وطنافسهم وجدران مجالسهم وقصور اغنيائهم . واعتاد نفر ممّن حجّ البيت الحرام اذا عاد الى وطنه ان يدبّج باب منزله برسوم ملوّنة مستظرفة تذكاراً لاتمامه هذا الفرض الديني .

لمّا رأى المسلمون ضيق الميدان الذي يمكنهم ان يستخدموا فيه مواهبهم الفنيَة اضطرّوا ان يجعلوا من الخط العربي فناً فزيّنوه وزوّقوهُ حتى صارَ لهُ جمالٌ خاصٌ (٣) .

---

(١) العجم : خلاف العرب

(٢) مقدمة ابن خلدون : صفحة ٢٦٦-٢٦٧

(٣) تاريخ الفنون : لسلامة موسى : صفحة ٣٢

واذا حصرنا القول في المخطوطات المصوّرة التي انتهت الينا من الفرس في القرون الغابرة ، فاننا نجد امثلة لا يستهان بها في اشهر مكتبات الشرق والغرب. وحسبنا منها مخطوطات الشاهنامة للفردوسي وتيمورنامة وظفرنامة اليزدي وديوان حافظ وديوان جامي والكلستان للسعدي وتاريخ رشيد الدين وغيرها من الكتب الشعرية والروائية والتاريخية .

وفي دار الكتب اللبنانية ببيروت مخطوطة بديعة من « الشاهنامة » مزينة باثنتين وستين صورة ملونة فريدة في بابها . وفيها ايضاً جلد كتاب نفيس بصوره الفاخرة ونقوشه الجميلة لا ينقص عمره عن ثلثمائة سنة وهو آية في الظرف والرونق. وفي خزائن مؤلف هذا الكتاب مخطوطات زيّنت بالصور المستبدعة والتزاويق الرائعة نذكر منها « ديوان جامي » باللغة الفارسية يتقادم تاريخ كتابته الى سنة ٩٠٣ للهجرة .

ويرتئي الباحثون ان التصوير في الكتب لم يعرف عند العرب المسلمين الا على اثر احتكاكهم بالفرنج في عهد الصليبيين لانهم بعدما شاهدوا الكتب الدينية المسيحية مزدانة بصور اولياء الله راقتهم صناعة التصوير واستحسنوها . فاخذوا من ذلك الحين يوشّون المصاحف بالذهب ويدبجونها بالالوان الظريفة ويتنافسون في تنميق عناوينها بما لا يوصف من الدقة وسلامة الذوق . ثم نبغوا تدريجاً في هذا الادب الرفيع الى ان بلغوا منتهى الاتقان في تصوير النبات فالحيوان فالانسان . يؤيد ذلك ما رواه المقريزي عن الخلفاء الفاطميين في مصر انهم زينوا قصورهم بصور ذات ارواح تمثل حوادث مختلفة . وعدّد المقريزي ايضاً اسماء المصوّرين ومنهم احمد بن يوسف ومحمد بن محمد الملقب كل منهما بالمصوّر . وابن فرج البلنسي سُمّي بالذهبي لان جده كتب وصوّر بالذهب (١) . وبرع غيرهم من المسلمين في صناعة التصوير كالكتامي والنازوك والقصير وابن العزيز الذين ذكرهم

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي : مجلد ١ صفحة ١٨٣

المقريزي في كتاب الخطط (٢ : ٣١٨) في وصف جامع القرافة وذكر شيئاً من اعمالهم (١). وممّن برّز ايضاً بالاجادة في التصوير الرئيس ابن العميد (٢) .

وعلى رغم ذلك فان المخطوطات العربية المصوّرة نادرة وثمينة . وهي محفوظة بكل حرص في بعض مكتبات الشرق والغرب . وعلى قلة عددها قسمناها باعتبار مواضيعها الى فصول كما يلي :

٢ ـ مخطوطات الطب المصورة والمزوقة

تشتمل هذه المخطوطات النفيسة على صور تمثل اعضاء الجسم وتركيبها وتشريحها وعلى صور الحشائش والعقاقير النباتية . وعلى آلات الجراحة كالمباضع والسكاكين والكلاليب والمقصات وغيرها .

ومن اهمّ ما عرف من الصور التشريحية في المخطوطات : تشريح العين لحنين بن اسحق (+ ٨٧٦ م.) شيخ تراجمة الاسلام وطبيب الخليفتين المأمون والمتوكل على الله . وهذه الصور مرسومة في مخطوط لهذا المؤلف كتب سنة ٥٩٢ للهجرة (١١٩٥ م) عنوانه «تركيب العين وعللها وعلاجها على رأي ابقراط وجالينوس» . وتمثل تلك الصور الملونة اشكال العين وعضلاتها وطبقاتها وحركاتها وكل ما يتعلق بها . وهذا المخطوط النفيس محفوظ في الخزانة التيمورية بمدينة القاهرة . وتحوي الخزانة عينها مجموعة طبية مصورة بخط عبد الرحمن الانصاري كتبها سنة ٥٩٢ للهجرة (٣) .

ومن كتاب «تشريح العين» نسخة ثانية اقدم عمراً من النسخة المذكورة مكتوبة في السنة ٥٥١ للهجرة (١١٥٦ م) . ونرجح انها اعتق مخطوطة طبية

---

(١) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ٩٥١

(٢) تجارب الامم : لابن مسكويه : صفحة ٢٧٨-٢٧٩

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جزء ٤ صفحة ١٢٥

مصورة في اللسان العربي . وكانت هذه المخطوطة محفوظة في خزانة كتب البطريرك الانطاكي غريغوريوس حداد بدمشق . فاهداها سنة ١٩١٣ مع مخطوطات اخرى ثمينة حملها معه الى نقولا الثاني قيصر روسيا في فرصة الاحتفال باليوبيل القرني الثالث لارتقاء آل رومانوف الى العرش القيصري . ثم نقلت هذه المخطوطة الى المتحف الاسيويّ التابع للمجمع العلمي الروسي في لينينغراد (١) . وقد اعتنى الدكتور مايرهوف بطبع هذا الكتاب باللغة العربية مع ترجمة انكليزية معتمداً في ذلك على النسختين القديمتين المذكورتين (٢) .

ومن الكتب المصورة في طب العين «الكافي في الكحل» ألفهُ خليفة بن ابي المحاسن الحلبي في اطباء القرن الثالث عشر للميلاد . وطبع هذا الكتاب عام ١٩٠٥ في ليبسيك . ولهذا الكتاب مخطوطة اخرى مصورة في الخزانة البارودية ببيروت (٣) .

ومن المخطوطات المصورة ايضاً كتاب «سحر العيون» للبدري . طُبع على الحجر سنة ١٢٧٦ للهجرة (١٨٥٩) بمصر في عهد الخديوي سعيد باشا . ومنها كتاب «نور العيون وجامع الفنون» يتقادم تاريخ كتابته الى السنة ٩٩١ للهجرة (١٥٨٢ م) تأليف ابي زكريا يحيى بن ابي الرجاء . وهذا المخطوط الطبي المصور اقتناه الزعيم الهندي الدكتور محمد أجمل خان سنة ١٩٢٥ من مكتبة صديقنا الاستاذ عيسى المعلوف بزحلة .

واهدى السيد خورشيد الشركس الى المجمع العلمي العربي بدمشق نسخة من مخطوط في الجراحة عنوانه «التصريف لمن عجز عن التأليف» لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي المتوفى نحو سنة ٤١٠ للهجرة (١٠١٩ م). وهي مزدانة بصور الآلات الجراحيـة على اختلاف اشكالها . اما الزهراوي فنسبة الى

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٤ صفحة ٢٨٥-٢٨٦ و ٣١٨-٣٢٠

(٢) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ٦١

(٣) الاسر العربية المشتهرة بالطب العربي : لعيسى المعلوف : صفحة ٥٥

مدينة الزهراء بالاندلس وهو ثالث مشاهير اطباء العرب وصنواه ابن سينا والرازي. وقد رسمت صور هؤلاء الاطباء الثلاثة بالوان على الزجاج في كاتدرائية ميلانو بايطاليا (١) . ومن هذا المخطوط نسخة ثانية مصورة في مكتبة «بطنا» بالهند مكتوبة في السنة ٥٨٤ للهجرة كما ذكرنا في فصل سابق.

واشتهر في القرون الغابرة هشام بن موسى بن يوسف المسيحي فنسخ بيده كتاباً مستبدعاً اشتمل على ١٦٠ صورة من صور الحيوان والنبات ملونة . وقد اطلعنا نحن على هذا المخطوط النفيس في مكتبة الامة في باريس .

واشتهر من آل بختيشوع اطباء الخلفاء العباسيين ابو سعيد عبيد الله بن جبرائيل المتوفي سنة ١٠٣٢ للميلاد. فخلف كتاب «منافع الحيوان» وزينه بعدة تصاوير (٢) .

ومن المخطوطات النباتية الطبية «مجموعة صور نباتات» احتوت على احدى وثمانين صورة في كل صفحة صورة . وفي اعلى الصفحة جداول كتب فيها طبع النبات ومضرّته وما يصلحه وتربته وبدله. وفي جانبي الصفحة منافعه وصور استعماله وتطبيقاته الطبية وفي الاسفل منابته . ومن الصور المذكورة ٥٧ ملونة و ٢٤ بحبر اسود . وهذه الاخيرة قد كتب عليها اسم النبات باللاتينية واليونانية وبعضها بالفارسية او بالكرشونية ايضاً . وهذا المخطوط النادر يخص الدكتور العلامة داؤد الحلبي الموصلي (٣) . وفي مكتبة البحاثة محمد فريد وجدي بالقاهرة مخطوط من تأليف الزهاوي في الجراحة تاريخه سنة ٥٨٤ للهجرة . وفيه صور الآلات الجراحية مرسومة بالاتقان التام يستدل منها على ان بعضها يحاكي الآلات الجراحية التي اخترعت منذ عهد قريب (٤) .

---

(١) تاريخ الطب عند العرب : بقلم عيسى المعلوف : صفحة ٢٧-٢٩

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ٥٦

(٣) كتاب مخطوطات الموصل : صفحة ٢٧٦

(٤) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٦

ولدى الدكتور سامي الحداد في بيروت بعض الكتب الطبية المصورة في خزانته الحافلة بالمخطوطات الطبية الثمينة . نذكر منها « المنجز » وهو « شرح مبسوط الموجز » لرئيس الاطباء محمود بن احمد الامشاطي الحنفي المولود سنة ٨١٠ للهجرة . وهذا المخطوط مزين برسوم ظريفة كخارطة وادي النيل وشجرة القوى الحيوية (١) . ومن تلك المخطوطات « شرح قانون ابن سينا » مزين ايضاً بالرسوم والاشكال لمحمود الامشاطي المشار اليه .

وفي دار الكتب الاهلية بباريس مخطوطان قديمان في الطب تجلّى فيهما فن التصوير الى درجة الابداع : احدهما نسخه بيده هشام بن موسى بن يوسف المسيحي وانطوى على مائة وستين صورة ملونة للنبات والحيوان على اختلاف اشكالها . وثانيهما كتبه عبدالله بن الفضل سنة ١٢٢٢ للميلاد وزينه بالصور العديدة . ويترجح ان كاتب هذا المخطوط هو مؤلفه نفسه . وقد تصفحنا هذين المخطوطين في اثناء المعرض الذي انشأته تلك المكتبة عام ١٩٢٥ للمخطوطات الشرقية المصورة والمزوقة .

وفي مكتبة الجامعة الاميركية ببيروت مخطوطان طبيان زينت صفحاتها بالصور : اولهما كتاب «غاية الامنيّات في معرفة الحمّيات» فيه جداول لمعرفة انواع الحمى وصور الدم بالوانه . ثانيهما كتاب «المنجز على الموجز» لمحمود الامشاطي بديع الرسم والتلوين يتضمن رسوماً للآلات اهمها مشجّر في القوى الحيوانية (٢) .

٣ ـ مخطوطات الكيمياء المصورة

قليلة هي المخطوطات العربية المصورة التي تبحث في علم الكيمياء ومن اهمها مخطوط يتناول موضوعه تحويل المعادن الخسيسة كالزئبق والنحاس والقصدير

---

(١) مآثر العرب في العلوم الطبية : صفحة ٥٩

(٢) مخطوطات الخزانة المعلوفية في الجامعة الاميركية : صفحة ٧

وغيرها الى ذهب ابريز . وفي هذا المخطوط القديم صورة تمثل ستة رجال وجوههم كاملة الاستدارة. والى يمين هذه الرؤوس صورة الهلال والى يسارها صورة البدر . وتحت البدر والهلال وقف رجلان امسك كل منهما بسلسلة التفّت حول عنق هؤلاء الرجال الستة الذين وضع كل منهم يده اليسرى على صدره .

وفي اسفل هذه الصورة رموز واشكال وخطوط شبيهة ببعض الحروف العربية واليونانية والهيرغليفية فكانت الى الطلاسم اقرب منها الى الكلام المفهوم . ويرى المتأمل فيها بعض رسوم اشبه شيء برسم القلب والصليب والسيف والسنبل الخ . . . (١) .

٤ ـ المخطوطات اللغوية المصورة

هذا صنف من المخطوطات نادر ونادر جداً ، لاننا لسنا نعرف في خزائن الشرق والغرب كتاباً في اللغة قد زينه مؤلفه او ناسخه بصور ورسوم وتزاويق سوى مخطوط واحد لا ثان له . وهذا المخطوط هو شرح «القاموس المحيط والقاموس الوسيط »ـ للفيروزابادي يحتفظ به كاتب هذه السطور في خزانة مخطوطاته الخاصة . وقد كتب الكتاب بخط فارسي دقيق تخللت سطوره خطوط حمر واضيف الى هوامشه شروح كثيرة . ومن ميزاته التي تلفت الانظار ان ناسخه قد دبّجه بستة تصاوير انيقة ذات الوان زاهية ومواضيع مختلفة دلت على براعته وسلامة ذوقه . وقد ورد في آخر صفحاته انه «فرغ من تسويد شرحه في غرة ربيع الاول من شهور سنة تسعة عشر ومائة بعد الالف » .

٥ ـ المخطوطات الادبية المصورة والمزوقة

ان اقدم مخطوط عربي مصوّر من هذا النوع « مقامات الحريري » كتب

---

(١) التصوير التوضيحي في المخطوطات الاسلامية للدكتور احمد موسى (مجلة الرسالة لاحمد حسن الزيات : سنة ٦ صفحة ٨٣٢)

في السنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) . وهذه النسخة مشتملة على احدى وثمانين صورة والمكتوبة بخط يحيي الواسطي مصونة بالمكتبة الاهلية بباريس (١) . وفي هذه المكتبة ايضاً نسخة جميلة من « ديوان الصبابة » للتلمساني تحتوي على رسوم بعض امراء العرب . وقد وقفنا بذاتنا على هذين المخطوطين النفيسين في المعرض الذي اقامته دار الكتب الاهلية المشار اليها في شهر نيسان ١٩٢٥ لنوادر المخطوطات العربية والفارسية والتركية .

ولما تعهد المسيو دومرغ رئيس الجمهورية الفرنسية هذا المعرض انتدبنا امين تلك المكتبة رسمياً لنشرح لهذا الرئيس معلوماتنا عن كل مخطوط وعن مؤلفه وعن الرسوم المصوّرة فيه.

ومن الكتب الادبية نذكر كتاب « كليلة ودمنة ». فقد عثر الشيخ احمد حسن طباره في دمشق على نسخة منه مصوّرة كتبت عام ١٠٨٦ هـ (١٦٧٥ م) فنقل عنها ٨٦ صورة تمثل وقائع الكتاب ونشرها بالطبع سنة ١٩٠٥ في بيروت. وروى الاب لويس شيخو انه لقي بين مخطوطات المكتبات التي زارها في اسطنبول عام ١٩٠٤ نسخاً قديمة مصورة لكتاب « كليلة ودمنة » (٢) .

وتحتوي الخزانة التيمورية في القاهرة على مخطوط عنوانه « المقامات الجلالية الصفدية » وضعه الشيخ حسن بن ابي محمد العباس في القرن السابع للهجرة . وعدد هذه المقامات ثلاثون تسمى التاسعة عشرة منها « المقامة الطيورية » وهي تشتمل على صوَر النسر والعقاب واللغلغ والاوزّ والجرج والكركي وغيرها .

ومن الكتب التي يصح ان نقدّرها بين المخطوطات الادبية المصورة مخطوط

---

(١) نشرت المطبعة الكاثوليكية ببيروت في « تقويم البشير » لسنة ١٩٣٩ بعض رسوم ملونة منقولة عن مخطوط « مقامات الحريري » وكلها يرمي الى وصف الحياة اليومية في القرن السابع للهجرة. فأول تلك الرسوم يمثل مسير القافلة في الصحراء وثانيها وقفة القافلة في احدى الواحات وثالثها صورة جارية تقود الابل الى المرعى .

(٢) سياحة حديثة الى اوروبا بقلم الاب لويس شيخو (المشرق : مجلد ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٦٥)

كبير الحجم يقع في ٥١٦ صفحة مضبوط بالشكل الكامل عنوانه « غرائب الصناعات الشعرية » . وهو يشتمل على فنون شعرية نادرة المثال وعلى مقاطيع نثرية غريبة الوضع ، وفيه كذلك رسوم مربعات ودوائر ومحبوكات ومشجرات مختلفة التركيب يستخلص منها اشعار جيدة باساليب فنية . وزبدة القول ان هذا المخطوط فريد بديع حوى من فنون الشعر والنثر وروائع الرسوم ما يقصر القلم عن وصفه . وقد شاهدناه في الخزانة المعلوفية تحت الرقم ٢٣ وهاك ما ورد في مقدمته بالحرف الواحد :

« اما بعد فان انفع الكلام موقعاً ، واسماه موضعاً ، كلمة حكمة يقتفي الاديب بسناها ، ويهتدي الاريب بهداها . وهذه مجموعة قد أحكمت مبانيها وتكافأت الفاظها ومعانيها ، اذا سمعت طمع فيها . واذا طلبت استصعبت على متبعيها ، ظريفة النظم والسبك متلائمة الاوصاف متناسبة الاطراف ، مقبولة العبارة واضحة الاشارة . قد اشتملت على استعارات رائعة وتتميمات فائقة . الى غير ذلك من الاوصاف الفريدة فاستحقت وصف القصيدة :

إذا انشدت في القوم ِ مرّت كأنها مسرّةُ كبرٍ او تداخلها عجبُ
مفصلةٌ باللؤلؤِ المنتقى لها منَ الشعرِ الاّ انه لؤلؤ رطبُ

جمعت محاسن فنون يعز جمعها ، ولطائف بلاغات محكم بايدي البلغاء ربعها ، مستعذبة الموارد ، مختلفة الانحاء والمقاصد ، ما سبقني احد اليها ابداً ، وبها مات حاسدي كمداً . . . »

وروى عبد الرحمن الجبرتي عن والده الشيخ حسن الجبرتي قال : « اقتنى والدي كتباً نفيسة خلاف المتداولة . وارسل اليه السلطان مصطفى نسخاً من خزائنه . وكذلك اكابر الدولة بالروم ومصر وباشة تونس والجزائر ، واجتمع لديه من كتب الاعاجم مثل الكلستان وديوان حافظ وشاهنامة وتواريخ العجم وكليلة ودمنة ويوسف زليخا وغير ذلك . وبها من التشابيه والتصاوير البديعة الصنعة والغريبة

الشكل ، وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاسية » (١) .

ومن المخطوطات الادبية المصورة كتاب « برلام ويواصف » وهي رواية نسبت الى القديس يوحنا الدمشقي . ومنها نسخ عديدة في مكتبة باريس (٢) ونسخة في المكتبة الشرقية ببيروت مع تصاوير (٣) .

٦ ـ المخطوطات الدينية المصورة والمزوقة عند النصارى

عُرفت الصور في الكتب الدينية عند النصارى منذ القرون الاولى للمسيح . فكان اهل هذا الفن يبذلون العناية في تزويق المخطوطات الدينية بابدع الرسوم واروع الالوان تزييناً للمكاتب او للتيمن بها في الكنائس . وكان الرهبان بنوع خاص يتنافسون بتنميق الاسفار المقدسة وتصويرها تعظيماً لها واجلالاً لقدرها . فكانوا مثلًا يدبجون فاتحة الكتاب بنقوش مزخرفة ورسوم مستظرفة . وكانوا يكتبون العناوين بحروف ممتازة مطعمة بالذهب والفضة . وكانوا يزينون اول حرف من كل فصل بصورة نسر او حمامة او حمل او أيل او سمكة ولكل منها رمزه في الكتاب المقدس . ذلك عندما كانوا يرسمون صور السيد المسيح او اولياء الله او الاسرار البيعية . ومن جملتها هيئة خبز القربان الذي كان يستعمله نصارى العرب في سالف الزمن . وكان الاقدمون يسطرون الانجيل بحروف ذهبية ويصفحونه بالجواهر الكريمة ويحملونه مكتوباً بحرفٍ دقيق ومعلّقاً في اعناقهم على صدورهم تيمّناً وتبرّكاً (٤).

---

(١) تاريخ الجبرتي : جزء ١ صفحة ٣٩٧

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة باريس رقم ٢٦٨-٢٧٤

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ٢١٧

(٤) المباحث الجلية في الترجيات الشرقية والغربية : تاليف البطريرك اغناطيوس افرام رحماني : صفحة ٦٩٧

ولنا ادلة كثيرة في الشعر الجاهلي على رقش النصارى لكتبهم الدينية وتنميقها بالزخارف . نورد منها بيتاً للراجز رؤبة بن العجاج قال (١) :

انجيلُ أحبار وَحى مُنمَنِمُه ما خـطَّ فيـه بالمدادِ قلمـه

وقرأنا في المفضليات ما يلي (٢) :

كتابُ محبّرٍ هاجٍ بصيرٍ يُنمِّقُه وحاذرْ ان يُباعا

وقال المرقّش الاكبر عوف بن سعد بن مالك . . . بن بكر بن وائل يصف رسوم الدار مشبهاً اياها برقش القلم في ظهر الجلد (٣) :

الدار قفرٌ والرسوم كما رقّش في ظهر الاديم قلمْ

ومن تلك الادلة ما ورد في قول حاتم الطائي (٤) :

أتعرف آثار الديار توهماً كخطك في رقّ كتابا منمنما

واشار علقمة بن عبدة (٥) الى وشي الخط وتنميقه قال :

وذكرنيهـا بعدما قد نسيتهـا ديار علاهـا وابل متعبّقُ
باكناف شعّاتٍ كأن رسومها قضيمُ صناع في اديم مُنمّقُ

ولم تنحصر تلك المخطوطات في امة مسيحية دون سواها بل شاعت عند جميع النصارى على توالي الاحقـاب . وكان حظ الناطقين بالضاد لا يقل عن حظ غيرهم من الشعوب في هذا المضمار . بيد ان الحروب والفتوحات والفتن الدينيـة

---

(١) ديوان رؤبة : صفحة ١٤٩ طبعة وليم بن الورد مع ترجمته الالمانية في برلين سنة ١٩٠٣

(٢) المفضليات للضبي : صفحة ٦٩٨ (ED. LYALL)

(٣) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية : القسم الثاني صفحة ٣٥٥

(٤) الاغاني : ٧ : ١٣٢

(٥) معجم ما استعجم للبكري : صفحة ٧٠٥

والاضطرابات السياسية في البلاد الشرقية اتلفت القسم الاوفر من تلك النفائس المصورة . وسنبيّن ذلك في فصل لاحق سميناه « رزايا الكتب والمكاتب » .

ولما كانت المخطوطات الدينية النصرانية المصورة التي عصت على الدهر اوفر عدداً من المخطوطات الدينية الاسلامية المصورة فقد اقتصرنا منها على ذكر ما يلي : في مكتبة دير طور سيناء مخطوط عنوانه « البشائر الاربع » محفوظ فيها تحت رقم ٦٨ ومنسوخ على رق ٍ ناعم ٍ بخط ٍ جميل . وقد دبج بالرسوم وفي كل رسم ٍ اربع شجرات مزخرفة وبين كل شجرتين خط نسخ ٍ ، وفوق تلك الشجرات وتحتها سطرٌ بخط ثلث بديع كُتب بليقة الذهب . وهذا المخطوط على قدامة عهده لم يزل بحالة جيدة (١) .

ومن اقدم المخطوطات الدينية النصرانية المصورة التي اطلعنا على اخبارها كتاب « العهد العتيق » في مكتبة المتحف الاسيوي في لينغراد ، وهو في مجلدين نسخه بيده سابا السيقي المسمى بيمين الدمشقي سنة ١٢٣٦ للميلاد ودبجه ببعض الصور (٢) .

واشتملت مكتبة المتحف الاسيوي ايضاً في لينغراد تحت الرقم ١ بين مخطوطاتها على نسخة من مزامير داؤد بديعة الاتقان مزدانة بالصور العديدة . وقد كتبها بخطه الانيق الخوري يوسف المصور سنة ٧١٥٨ للعالم (١٠٥٨ ﻫ و١٦٤٨ م) برسم الحاج ميخائيل ابن الخوري يوسف الشهير بابن المبيض (٣) .

وفي الخزانة المعلوفية بزحلة مجموعة خطية باللغة العربية لعالم قبطي . ومما ازدانت به تلك المجموعة صليبٌ ملوّن يعلوه نسر ونقوش بديعة شتى . وفي مكتبة

---

(١) مكتبة دير سيناء : بقلم يسى عبد المسيح (مجلة الراعي الصالح في الاسكندرية : مجلد ١ سنة ١٩٤٠ صفحة ٣٣)

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية في المكاتب البطرسبرجية : بقلم المستعرب اغناطيوس كراتشقوفسكي

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية في المكاتب البطرسبرجية : بقلم المستعرب اغناطيوس كراتشقوفسكي

الجامعة الاميركية ببيروت مخطوط يحوي «تفسير الانجيل» عرّبه القس يوسف الباني في اربعة مجلدات وفي احد هـــذه المجلدات صورة تثليث الاقانيم مزدانة بالوان رائعة متقنة . اما تفسير الانجيل المشار اليـه فهو تأليف كرنيليوس الحجري (+ ١٦١٧) (١) .

ومن ذخائر المكتبة الشرقية في بيروت مخطوط بديع باللغتين العربيـة والقبطية عنوانه «الثاودوكيّات» يقع في ٤٣٠ صفحة . وفي دائرة المخطوط اطار ذو ثلاثة خطوط ملونة احمرين فأزرق . والمتن بحبرين اسود فاحمر . وفي اول الفصول وآخرها نقوش بالوان مختلفة يكثر فيها الذهب . ومع هذه الحلى تصاوير متعددة : منها صلبان على هيئات شتى ، ومنها حيوانات رمزية كالطاووس والسمك واعراض القربان الاقدس وفي رأس الفصول القبطية نرى طائراً على شبه العقاب وهو يدل على حرفٍ من الحروف القبطية استعاروه من اصطلاحات قـــدماء المصريين (٢) .

ولا يخفى ان النساطرة يُعتبرون من اقدم الفرق النصرانيـة في الشرق . ويشهد على اعتقادهم في اكرام الصليب والصور ما نجده في كتب طقوسهم القديمة والحديثة من التصاوير . فان اناجيلهم مثلاً مرصعة بالصور الفضية ومن جملتها صورة المصلوب . وكذلك يزينون هذه الكتابة بنقوش بديعة تمثل اسرار حياة المسيح من مولده الى قيامته على حسب رتب الاعياد ومعاني الصلوات . ففي قوجانس مقر بطاركتهم منـذ القرن السابع عشر الى سنة ١٩١٨ كان يصان انجيل مصور يُعدّ من التحف البديعة . وبعد السنة المذكورة تشتت شمل النساطرة شرقاً وغرباً (٣) ولم يتيسر لبطريركهم حتى الان ان يتخذ مركزاً رسمياً

---

(١) فهرس مخطوطات دير الشرفة : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٣٢٠-٣٢٣

(٢) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ٥٤٢-٥٤٣

(٣) كتاب «المرجانة» المطبوع في الموصل سنة ١٩٢٤ لنـــاشره الارخدياقون يوسف النسطوري : المقدمة

لكرسي البطريركية . وقد حوت مكتبات لندن وباريس اناجيل مصورة مثل الانجيل المومأ اليه ابتاعها الانكليز والفرنسيس من النساطرة (١).

ومن هذا القبيل ايضاً انجيل كتب منذ اوائل القرن السادس عشر تزينه صور الاربعة الانجيليين بالوان رائعة يحدق بها اطار محلى بذهب وزهور . وتبلغ صفحاته ٢٨٠ اطّلع عليه الاب لويس شيخو سنة ١٨٩٥ في رحلته الى ماردين (٢) وعثر الاب المشار اليه على انجيل مصور ايضاً في مكتبة عين تراز بجبل لبنان يتضمن تنقيحات واصلاحات مأخوذة عن الترجمة القبطية والسريانية (٣) .

وفي مكتبة المرحوم بطرس منصور تيان في بيروت نسخة معتبرة من الانجيل تاريخها سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م) والكتاب يشتمل على ٤٨٦ صفحة مع نقوش جميلة بالالوان . وفي مكتبة الاقباط بالقدس نسخة من الاناجيل تشبه النسخة الماردينية الموصوفة سابقاً كتبت في سنة ١٠٤٢ للشهداء (٤) .

على اننا نضيف الى ذلك وصف مخطوط مصوّر محفوظ في مكتبة مطرانية الروم الكاثوليك بمدينة صور يرتقي عهد نساخته الى القرن السابع عشر . وهو ينطوي على ليترجيّات فم الذهب وباسيليوس وغريغوريوس مدّونة في حقلين عربي ويوناني بخط جميل مشرق ملوّن بحبر اسود واحمر واخضر ومذهب . وفي مقدمة الفصول حروف يونانية ذات اقدار والوان مختلفة . فمنها حروف متوسطة ذهبية . ومنها حروف كبيرة على ربع الصفحة بالوان زاهية وتصاوير جميلة في تقاطيعها رموز من الحيوانات كالتنين والحيات والعنقاء والحمام والطيور وبعض التصاوير التقوية كصور السيد المسيح والرسل والملائكة والاسرار . وفي الكتاب ما خلا ذلك صور اخرى اكبر من السابقة وهي ملونة مثلها بالوان بديعة ، بينها صور

---

(١) المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ٨٤٥

(٢) المشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ١٠٧

(٣) المشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ١٠٨

(٤) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ٢٣٨-٢٣٩

اعمال المخلّص والعذراء الطاهرة وبعض اولياء الله من الرسل وغيرهم (١) .

وفي المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين ببيروت نسخة جامعة لكل اسفار العهد الجديد الا" رؤيا مار يوحنا الانجيلي . وهي جميلة الخط دُبجت بعشر صور بديعة ملوّنة تاريخها سنة ١٦٥٣ ميلادية (٢) .

٧ ـ المخطوطات الدينية المصورة والمزوقة عند المسلمين

روى جرجي زيدان في بحثه عن الفنون الجميلة عند الاسلام ما نصّه : والصور الدينية ابعد ما يكون عن اذهان المسلمين . ولذلك لا تجد شيئاً منها في كتبهم الدينية على اختلاف مواضيعها . ومن غريب ما رأيناه من هذا القبيل ثماني صور خيالية منشورة في كتاب الميزان بالفقه الشافعيّ لعبد الوهاب الشعراني . وهو مطبوع في بولاق سنة ١٢٧٥ للهجرة . وقد مثل فيه صوراً في ذهنه لعين الشريعة وفروعها والصراط لمن استقام في دار الدنيا ومن اعوجّ . . . ونحو ذلك مما لا نعرف له مثيلاً في غير هذا الكتاب (٣) .

ومن الكتب الاسلامية الشائعة المحلاّة بالرسوم كتاب «دلائل الخيرات» وفي بعض نسخه صورة الكعبة ومكة والمدينة واضرحة الصحابة وغير ذلك من النقوش مدبّجة بالالوان ومجدولة بالذهب . ومنها «كتب المناسك» المزدانة برسوم مكة والمسجد الاعظم فيها . وروى المؤرخ البحّاثة عيسى اسكندر المعلوف (٤). انه شاهد عند الاب انستاس الكرملي في اثناء مروره بدمشق مخطوطاً عنوانه : «وصف مكة» كتب في القرن الثاني عشر للميلاد . وفي هذا المخطوط صورة

---

(١) المشرق : مجلد ١١ سنة ١٩٠٨ صفحة ٢٣٨-٢٣٩

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : بقلم الاب لويس شيخو : صفحة ٢٤٤

(٣) تاريخ الآداب العربية : مجلد ٣ صفحة ٢٦٩

(٤) مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ٤٢٠ و ٤٢١

مدينة مكة محلاة بالالوان البديعة . وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة كتاب عنوانه : «نبذة في تاريخ الحجاز ومعالمه» ينطوي على رسم الحرم بمكة .

وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق كتاب «النفحات العنبرية في وصف نعل خير البرية» لاحمد بن محمد المقري مؤلف كتاب نفح الطيب كُتب سنة ١٠٩٦ للهجرة . وهذه النسخة نفيسة الخط جداً وفيها صورتان للنعل الشريف مذهبتان. وهي من جملة المخطوطات التي اوصى بها الشيخ عبدالله الكزبري لدار الكتب المشار اليها (١) .

ويروى ان شجاع الدين ضياء صاحب السلطان بيبرس وسفيره حمل الى بركة امير المغول ثلاث صور من صنع يده تمثل هيئة الحج . واثبت المصور الشهير فرنسيس كازانوفا (١٧٣٠ - ١٨٠٥) البندقي الاصل ان احد سياح العرب في آخر القرن التاسع للميلاد شاهد في رحلته الى الصين وغيرها صورة نبي المسلمين وصور اعاظم رجال الاسلام (٢) .

وفي خزانتنا الخصوصية ثلاث مخطوطات اسلامية موشاة برسوم مستبدعة وهي :

١ً — كتاب «انعام شريف المقدار» يتلوه «دلائل الخيرات» تزينه فواتح منمقة بالوان ظريفة واطارات ذهبية . وفيه صورتان لحرم مكة وقبر النبي العربي في صفحتين متقابلتين .

٢ً — مصحف القرآن يشتمل على ستمائة واربع صفحات في كل صفحة اربعة نقوش دُبجّت في زواياها الاربع . فيكون مجموع الزوايا الفين واربعمائة وست عشرة زاوية زُينت كل منها بنقشة تختلف عن سائر النقشات برسمها وألوانها وهو مصحف نادر وحيد من نوعه بين سائر المصاحف على الاطلاق .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٠ سنة ١٩٣٠ صفحة ٦٣-٦٤

(٢) مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ٤١٧

٣ — « شجرة نبوية » تفنن فيها ناسخها بروائع الخطوط والاشكال وقد وُشيت صفحتها الاولى بصورة جامع ترتكز عليه ثلاث مآذن مستظرفة .

وفي خزانة السيدة جان دي طرّازي في باريس مخطوطات متنوعة ثمينة دُبجّت بالصور الرائعة . منها جلد نفيس كان مصوناً في خزائن السلطان عبد الحميد الثاني بقصر يلدز بالاستانة . وهو يتضمن صورتين للنعل النبويّ وشّحتا بالذهب والزخارف الملوّنة والكتابات الجميلة . وقد نقش على احدى الصورتين هذان البيتان :

قبّل نعالَ المصطفى خيرِ البشرْ ومتّعِ العينينِ فيه بالنظرْ
واجعلهُ فوق الرأسِ والجبينِ ومرّغ الخدّ بذلك الأثرْ

ونقش على الصورة الثانية بيتان آخران اليك نصهما :

امرّغ في المثال بياض وجهي فقد جعل النبي له قبالا
وما حبّ النعال شغفن قلبي ولكن حبّ من لبس النعالا

٨ ـ المخطوطات المصورة والمزوقة في كتب التاريخ والرحلات

من هذا النوع مخطوط في المتحف البريطاني مزين برسوم بينها صورة حصار بني النضير . وهو مكتوب في القرن الثامن للهجرة . وفي مكتبة شلومبرجر مخطوط عربي اقدم من المخطوط السابق كتب في القرن السابع للهجرة يحتوي على رسوم شتى تاريخية . نذكر منها صورة في نهاية الابداع تمثل قافلةً من الجند بخيلها ورجلها ونوقها واسلحتها وابواقها واعلامها .

ومن المخطوطات التاريخية المصورة كتاب « زبدة الحلب في تاريخ حلب » لكمال الدين عمر العقيلي المشهور بابن العديم . ومن هذا المخطوط النفيس نسخة مصورة في دار الكتب المصرية نقلت عن مخطوطة الاستانة . ولمؤلف الكتاب

كلام واسع عن جغرافية بلاد حلب وبحيراتها وجبالها وتربتها وهوائها ومائها وخرابها وعادياتها . وقد ذكر المؤلف مدناً اتبعها بحلب وهي تُعد اليوم من بلاد كيليكيا . وعقد فصلاً من اجمل فصول الكتاب عمن نزل بحلب وضواحيها من قبائل العرب وَمن كان فيها قبلهم (١) .

ومن هذا القبيل كتاب « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » للرحالة شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ ه (١٣٢٧ م) وقد زينه مؤلفه بالخرائط الجغرافية وصور المشاهد الغريبة التي رآها في رحلاته من حيوانات نادرة وقصور عظيمة وطواحين هواء وآلات فريدة من نوعها للتقطير وغير ذلك . وقد طبع هذا الكتاب اولاً سنة ١٨٦٥ في بطرسبرج وثانياً سنة ١٨٧٤ في كوبنهاغن عاصمة الدنيمارك (٢) .

وللاب متى خيفالا القبرسي الاصل كتاب « الدرّ المنظوم في اخبار ملوك الروم » ألّفه في القرن السابع عشر باللغة اليونانية . ونظر فيه البطريرك الانطاكي الارثوذكسي مكاريوس الثالث (١٦٤٧ - ١٦٧٢) المعروف بابن الزعيم . وقد عرّبه الخوري يوسف المصوّر ابن الحاج انطونيوس الحلبي وزينه بالصور (٣) . ومن هذا الكتاب نسخة بديعة كتبها بيده الارخدياقون بولس ابن الزعيم قرب سنة ١٦٦٠ وهي محفوظة في مكتبة المتحف الاسيوي رقم ١٩٠ في لينغراد (٤) .

وفي مكتبة الاوقاف بدمشق نسخة مصورة من مخطوط عنوانه « منادمة الاطلال » تأليف بدران . ومما احتواه هذا المخطوط تاريخ المدرسة الظاهرية التي اصبحت مقراً لدار الكتب الاهلية في عاصمة الامويين (٥) .

---

(١) تأليف ابنُ العديم : لمحمد كرد علي « مجلة المجمع العلمي العربي » : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١ صفحة ١٤٩-١٥٠

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جلد ٣ صفحة ٢١٩

(٣) مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ٤٢٣

(٤) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية في المكاتب البطرسبرجية : بقلم المستعرب اغناطيوس كراتشقوفسكي

(٥) منادمة الاطلال : صفحة ١٦١ و ٢٤٢ ومجلة دمشق مجلد ١ صفحة ٤٣

٩ ـ المخطوطات المصورة في العلوم الجغرافية

يراد بالجغرافيــة الخرائط وتخطيط البلدان . ويرتقي عهد اقدمها الى زمان ظهور علم الجغرافيا عند العرب في القرن الرابع للهجرة . وقد نبغ كثير منهم في الموضوع فالّفوا الكتب وزينوها بخرائط ملوّنـة كابي زيد البلخي وابي اسحق الاصطخري وابن حوقل . ولابي عبدالله المقدسي كتاب « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » الفهُ سنة ٣٧٥ للهجرة (٩٨٥ م) فصدره بمقدمة في علم الجغرافيـــا عند العرب حتى ايامه . ثم اضاف اليه خرائط كثيرة ملونة بدليل قوله بعد ذكر تقسيم الكتاب الى اقاليم ما نصه : « ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة . وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وابحارها الملحة بالخضرة وانهارها المعروفـة بالزرقـة وجبالها المشهوره بالغبرة ، ليقرب الوصف الى الافهـام ويقف عليه الخاص والعام » .

واقدم المؤلفات الجغرافية العربية كتاب « صور الاقاليم الاسلامية » تأليف ابي زيد احمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ للهجرة. فانه زينه بالخرائط الملوّنة على قدر ما بلغ اليه اجتهاد بني قومه في تلك الحقبة . ومن هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبـة برلين تشتمل على خرائط الارض واشكالها والاقاليم الاسلامية مرسومة بالالوان (١) .

ولابي اسحق الاصطخري كتابان في الجغرافيا احدهما مسالك البلدان خال من الخرائط طبع سنة ١٨٧٠ في ليدن . وثانيهما « كتاب ألاقاليم » مزين بتسع عشرة خريطة ملونة طبع على الحجر سنة ١٨٣٩ في غوطا . وكان نشره على يد الدكتور مولر من علمـاء الاستشراق في المانيا . وقد جاءت هذه الخرائط مطابقـة بالوانها للاصل الذي أخذت عنه. ومن المصورات الجغرافية ايضاً نذكر كتاب « الجغرافيا

---

(١) محاضرات المستشرق اغناطيوس غويدي في الجامعة المصرية : صفحة ١٨ طبعة القـــاهرة سنة ١٩٠٩ « ومعجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١٦ صفحة ٢٢٥

الغربية » لمؤلفه ابي العباس احمد بن شهبون يحتوي على ثماني عشرة صحيفة مكتوبة ومخططة بالالوان .ولهذا المخطوط النفيس نسخة معتبرة في « الخزانة الزيدانية » بمكناس (١) .

وطالعنا في الخزانة البارودية ببيروت مخطوطاً عنوانه « تحرير كتاب منالاوس» في الاشكال الكردية نسخ سنة ٦٢٢ للهجرة . احتوى رسوماً كثيرة بغاية الضبط على ورق حريري .

ومن شاء الوقوف على مصورات الخرائط التي خلفها جغرافيو العرب باشكالها الغريبة والوانها المختلفة احلناه الى انفس كتاب ابرزته مطابع القرن العشرين . وعنوان هذا السفر المنقطع النظير : « المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الافريقيـة » لمؤلفه الجوالة الجوابة الامير يوسف كمال من اعاظم علماء مصر وأحد افراد الاسرة المالكة فيها . وهي سلسلة مجلدات كبيرة الحجم بديعة الطبع متقنة الرسوم صدر منها حتى الآن عشرة مجلدات . ولا يزال نشر باقي مجلداتها متتابعاً بعناية هذا الامير الخطير . وقد اهدى سموه مجموعته هذه الكماليـة وسائر مؤلفاته النفيسة الى دار الكتب اللبنانية ببيروت . فلسنا نرى في هذا المقام الا ان نسدي الى سموه عاطفة معرفة الجميل على هذه التحفـة الثمينة داعين له بالعمر الطويل والتوفيق المستمر .

على ان للامير يوسف كمال المشار اليه فضلاً على النهضة الفنية في وادي النيل اذ بعثها من الموت بانشائه مدرسة الفنون الجميلة (٢) في عاصمة الديار المصرية .

١٠ ـ المخطوطات المصورة في العلوم الحربية والبحرية

من اشهر المخطوطات في هذه العلوم كتاب « تعبئة الجيوش » وهو ثلاثـة

---

(١) كتاب « العز والصولة في نظام الدولة » لمؤلفه العلامة مولاي عبد الرحمن بن زيدان نقيب الاسرة المالكة في المغرب الاقصى. وكتاب « الدرر الفاخرة » للمؤلف عينه : صفحة ٩٥-٩٦

(٢) تاريخ الفنون لسلامه موسى : المقدمة

فصول تقع في ٣٢ صفحة كبيرة . وتحتفظ بهذا المخطوط مكتبة غوطا عاصمة دوقية سكس كوبورغ غوطا بالمانيا . والكتاب مزيّن برسوم متقنة تمثل الاشكال الحربية من تنظيم صفوف العساكر الى امرائها وقوادها وفرسانها واتباعها مع منزلة كل فريق في معسكره . وهذه الاشكال موضحة في مربعات او مثلثات او دوائر او خطوط مستطيلة تدل على نظام محكم وذوق سليم . وقد طبع هذا الكتاب مع ترجمته الى اللغة الالمانية سنة ١٨٨٠ في غوتنجن بعناية المستشرق وستنفلد .

ومن المخطوطات المصورة في العلوم الحربية كتاب « الانيق في المجانيق » منه نسخة في الخزانة الزكية بمدينة القاهرة تشتمل على ١٠٩ صفحات. وهي مزينة بعدد لا يحصى من اشكال المجانيق ورسوم القلاع وصور مراكز المجانيق . وقد الفه الزردكاش سنة (٨٦٧ هـ ١٤٦٢ م) لشمس العلا منكلي بغا الشمسي.

وفي السنة ١٩٢٧ عرض علينا جمّاع الكتب المشهور جميل بك العظم ان نشتري منه كتاباً مزيناً بالصور يبحث عن الفنون الحربية والالعاب البدنية . وعنوانه : «ميدان سياج الملوك وسراج الملوك صنّف بخراسان» يترجّح عندنا ان تاريخ كتابته يتراوح بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . ويبلغ عدد صوره ستاً واربعين صورة ملونة يضاف اليها ستة عشر رسماً لتعبئة الجيوش .غير ان بعض تلك الصور قد عبثت بها الايدي بقصد اصلاحها فشوّهت الاصل فنقصت قيمته الاثرية . ولسنا نعلم ماذا طرأ على هذا المخطوط النادر والى اين انتهى مصيره بعد وفاة صاحبه .

وفي خزانة مخطوطات الدكتور داؤد الجلبي مخطوط بلا عنوان يحتوي مجموعة مهمة جداً في الفنون البحرية والملاحة . وفي هذا المخطوط صور سفن شراعية ملونة وكيفية نصب اشرعتها وغير ذلك في ثماني صفحات . وفيه ايضاً دائرة فلكية ملوّنة تتفق مع ما يسمّونه « وردة الرياح » في هذا الزمان (١) .

---

(١) كتاب مخطوطات الموصل : صفحة ٢٨٠

وفي خزانة كتب مدرسة جامع الباشا في الموصل مخطوط تحت الرقم ١٣٤ عنوانه « كتاب السياسة » ألفه ارسطوطاليس ونقله الى العربية يوحنا بن البطريق. ففي الصفحة الثمانين منه دائرة ارسطوطاليس المشهورة القائلة « العالم بستان سياجه الدولة . الدولة سلطان تحيا به السنّة الخ » . وقد عني الناسخ برسم هذه الدائرة وزينها بنقوش ملونة . وبين الصفحة ١١٣ و ١١٤ صفحة عليها صورة آلة ورد عنها في متن الكتاب ما يلي : « ويجب ان يكون معك الآلة التي اقامها نامسطيوس للانذار . وهي آلة مفزعة تنطرق في كثير من الامور ، لانك ربما احتجت الى انذار جميع بلادك وتهيىء الاجناد فيها ليوم تحتاج اليهم فيه . وهي للعساكر الثقال وصوتها يسمع من ستين ميلاً وهذه صفتها (١) .

وفي مكتبة بتروغراد مسودة عربية قديمة فيها صورة رجلين عربيين يشتغلان في صنع الاسلحة النارية . احدهما يحمل ما يشبه البندقية وفيها القنبلة والبارود داخلها . وقد ادناها من لهيب امامه حتى يولع البارود ويقذف القنبلة . والثانية صورة فارس يحمل قناة ملفوفة بقماش ذي اهداب لتلف بالنفط وترمى على الاعداء حين الاقتضاء. وبجانبي الفارس رجلان ماشيان على يديهما ، وبدنه وبدن فرسه نسيج ذو اهداب يستخدم للنفط حين الحاجة (٢) .

ومن المخطوطات المصورة في الفنون الحربية نذكر كتاب «التذكرة الهروية» في مكتبة « ايا صوفية » بالاستانة . وكتاب « العز والمنافع في الغزو بالمدافع » لمؤلفه ابرهيم بن احمد الاندلسي في المكتبة الكوبريلية في اسطنبول (٣) .

وفي مكتبة « طوب قبو » الشهيرة في اسطنبول مخطوط عنوانه « انموذج القتال في نقل العوال » اي الرماح . تأليف ابن ابي حجلة التلمساني المتوفى سنة ٧٧٦

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٨ صفحة ٧٠٣
(٢) المجلة السورية : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٣-٣٢٤
(٣) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٣-٣٢٤

للهجرة (١٣٧٤ م) . وهو يحوي رسوم مناصيب كثيرة لترتيب الجنود في القتال .

١١ ـ المخطوطات المصورة في العلوم الصناعية والميكانيكية

وصفت مجلة المشرق (١) كتاباً عربياً في الصنائع الميكانيكية عنوانه : « الحيل الرومانية ومخانيقا الماء » لفيلون البوزنطي احد تلامذة مدرسة الاسكندرية القديمة . وقد نشره بالطبع احد كبار المستشرقين البارون كارا دي فو في مجموع مقتطفاته عن مخطوطات مكتبة باريس ونقله الى الفرنسية وافتتحه بمقدمة شرح فيها تاريخ هذا الكتاب العجيب وكل ما يتعلق به . ثم اضاف اليه ملحقات منها وصف آلة لاصعاد الماء . ولهذا الكتاب نسختان خطيتان احداهما في مكتبة آجيا صوفيا بالقسطنطينية والاخرى في مكتبة اوكسفورد . وهو منقول الى اللسان العربي عن الاصل اليوناني في عهد الخليفة المأمون . وغلب على ظن الناشر ان المعرب نصراني من النقلة المشهورين في ذلك العصر . ولاحظ في الترجمة عدة الفاظ دخيلة منها سريانية ومنها فارسية .

وفي السنة ١٨٧٠ نشر العلامة فالنتين روز نبذة من هذا التأليف كانت ترجمت الى اللاتينية . وبعد استقصاء البحث عن اصلها تحقق الخبراء انها مستخرجة من العربية فطفقوا يجدّون في البحث عن ذلك الاصل العربي فكتب التوفيق للبارون كارا دي فو المومأ اليه ان عثر على المخطوطين المذكورين . وقد وصف الكتاب وصفاً مشبعاً وادّى للعلم والعلماء خدمة يشكر عليها مدى الاجيال .

ويتضمن هذا الكتاب وصف ٦٥ آلة مصورة . اكثرها آلات غريبة عجيبة تدهش الناظر صناعتها . وتمثل صوراً جمّة كالطيور الصافرة والميضأة السحرية

---

(١) المجلد السابع ١٩٠٤ صفحة ٢٦٥-٢٧٢

والتنين الصناعي الخ . وهي مبنية على مبدا الممص (syphon) او السحارة في الطبيعيات الا قليلاً منها قال « المشرق » ما نصه : « وبعض الآلات يسمع لها غناء او صفير . وبعضها تخدع ناظرها لما في باطنها من القساطل الخفية او لتعدد طبقاتها. مثال ذلك آلة وصفها في العدد ٥٩ وهي تمثل حوضاً بجانبه انسان وبيده حربة . وفوق الحوض صورة تنين كأنه يريد ان يشرب من الحوض . فاذا واجه الانسان التنين امتنع التنين عن الشرب كأنه يخافه . واذا ادبر رأيت التنين يمتص ماء الحوض. ويكون شربه قليلاً او كثيراً حسب قوة الماء . والصورة الثانيـة التي تُرى في الصفحة ٢٧٠ تبين تركيب هذه الآلة وقساطلها الخفية ».

وفي الخزانة المعلوفيـة مخطوط في دفع الاشياء الثقيلة تأليف ايرون او هيرون الفيلسوف اليوناني الاسكندري . وقد انشأه مؤلفه في اليونانية مصوراً ونقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي الفيلسوف المتوفى سنة ٩٢٣ م . وهو مجموع اربعين رسالة في الآليات اهمها جرّ الاثقال. وقد اطلعنا على هذا المخطوط البديع فوجدناه مزداناً بصورٍ رائعة تلفت الانظار (١) .

١٢ ـ الصور في مخطوطات النجامة والعلوم السحرية

اننا عثرنا على بعض المخطوطات المصورة التي تبحث في النجـامة والاسرار والسحر وعلم الحروف وما شاكلها . وعرفنا اسماء مخطوطات غيرها تتناول هذه المواضيع وهي موجودة في خزائن اوروبا وبغـداد وفي دار الكتب المصرية . ولما كان هدفنا الايجاز في كل ما ندونه من الابحاث فقد اقتصرنا على مخطوطين نفيسين محفوظين في خزائننا الطرازية اليك وصفهما في ما يلي :

اولهما « الدر المنظم في السر الاعظم » مكتوب بحبرين اسود واحمر ومزين ببعض النقوش الجميلة ألفه الشيخ كمال الدين ابي سالم محمد بن طلحـة . وهو يشتمل

---

(١) فهرس مخطوطات الخزانة المعلوفية : رقم ١٨٦٣

على ثلاث وعشرين صورة ملونة يمثل كل منها موضوعاً مستقلاً عن الآخر مع شرح ذلك شعراً ونثراً .

ثانيهما عنوانه « كنز الاسرار وذخائر الابرار » او « الحقائق الاسرائيليـة والدقائق الابراهيمية » في علم الحروف ألفه عبد الرحمن بن محمد بن علي بن احمد الحنفي البسطامي . صفحات هذا المخطوط النادر كلهـا مزدانة باطار مذهب ويرتقي عهد نساختـه الى سنة ١٠٤٤ هجرية . وهو يحوي عـدداً وافراً من الدوائر والمربعات والحيوانات والرموز والارقام والحروف وغيرها من المصوّرات الغريبة الاشكال التي لم نعثر على نظيرها في مخطوط سواه .

١٣ ـ المخطوطات المصورة في الهندسة

قال احد ارباب العلوم الهندسية : الرياضيات افخم بنـاء شيده عقل البشر . فالرياضيات رغماً عن علو مقامها اذا زاول فنونها رجال من ذوي الخبرة والحذق ربما اتت باعمال عجيبة تخلب العقول وتأخذ بمجامع القلوب . وقد اجاد العرب في رسم الخطوط الهندسية وضعوها على صور شتى واشكال متعددة لا يتمالك ناظرها الا ان يفتي بتقدمهم وبراعتهم في هذا الفن . وقد جمع بعض كبار المستشرقين ما وجدوه من هذه التصاوير الغريبة والخطوط العجيبة التي جرى عليها العرب في تركيب الفسيفساء والتطعيم والنقوش المختلفـة . ولاحد هؤلاء العلماء المسيو بورغوان (J. Bourgoin) كتاب بديع في بابه اودعه ١٩٠ صورة هندسيـة نقلهـا عن نقوش عربية قديمة وطبعها في باريس سنة ١٨٧٩ ودعاها « اصول الفن العربي » (Les éléments de l'art arabe) . وكل هـذه التصاوير مرجعها الى خطوط بسيطة اصطنعهـا العرب بالقاعدة والبيكار تروق العين مع اشتباكها وتداخل بعضها في بعض . وهي مبنية على خواص الاشكال المتعـددة الزوايا من خمس الى ١٢ زاوية . ولكل صنف اقسام متعددة تنقسم اليهـا بهيئات بديعة .

وكان العرب اذا رسموا هـذه الخطوط يعمدون الى الاصداف او العاج او الحجـارة المتلونة يركبونها على الشكل الهندسي فتكون غايه في الحسن . وقد الحق المسيو بورغوان كتابه بعشر صور ملونة تظهر فيها الاشكال الهندسية السابق نقلها عن اعمال قديمة من الشبة والحديد والفسيفساء والخشب عثر عليها في الشرق لا سيما في القاهرة ودمشق (١) .

ومن كتب « الهندسة » المصورة التي وقفنا عليها متن مشروح قدّمه مؤلفه الى الغ بك بن تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) ملك التتر . وهي نسخة نفيسة الخط في ٥٦ صفحة على مثال اقليدس الصوري . وهذا المخطوط من اصل مخطوطات الخزانة البارودية في بيروت وقد بيعت مخطوطات هذه الخزانة من جامعة برنستون في الولايات المتحدة .

ومن ذلك « مجموعة في الحكمة والهندسة » في جزءين : يبحث الجزء الاول في الحكمة العملية والحكمة النظرية والطبيعيات والفلكيات والعنصريات والالهيات. وهو موشى من الصفحة الاولى حتى الصفحة ٢٠٨ برسوم متقنـة وحواش ملأت الهوامش . اما الجزء الثـاني فيشتمل على ٤١٢ صفحـة تبحث في الهندسـة . وهو مشحون ايضاً برسوم بديعة تدل على تضلع كاتبه من العلوم الرياضية (٢) .

١٤ - المخطوطات المصورة في علم النبات

حدثنا ابن ابي اصيبعة (٣) عن رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ للهجرة وعن كتابه « الادوية المفردة » المزين بالصور النباتية قال :

---

(١) المشرق : مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ٤٠٥-٤٠٦

(٢) فهرس المخطوطات المعلوفية بزحلة : رقم ١٨١٤

(٣) طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ٢١٩ طبعة القاهرة عام ١٨٨٢

ولرشيد الدين بن الصوري من الكتب «كتاب الادوية المفردة» وهذا الكتاب بدأ بعمله في ايام الملك المعظم وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الادوية المفردة. وذكر ايضاً ادوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون. وكان يستصحب مصوراً ومعه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوّعها. فكان يتوجه رشيد الدين المذكور الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه واصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها . ثم انه سلك ايضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك انه كان يُري النبات للمصور في ابان نباته وطراوته فيصوره . ثم يُريه اياه ايضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك . ثم يريه اياه ايضاً في وقت ذواه ويبسه فيصوره . فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب وهو على انحاء ما يمكن ان يراه به في الارض فيكون تحقيقه له ومعرفته له ابين .

وروى لنا احد الادباء ان المكتبة الاحمدية في حلب كانت تشتمل بين مخطوطاتها على كتاب «النبات» لابي حنيفة الدينوري . وقد عني به مؤلفه عناية عظمى فصور النباتات التي بحث عنها تصويراً مدققاً ولوّن اوراقها وازهارها وجذوعها بالوانها الطبيعية. وقد سُرق هذا الكتاب من المكتبة «الاحمدية» وبيع الى المتحف البريطاني بمبلغ مائتي جنيه انكليزي. فكان الاسف عليه شديداً في جميع انحاء الشرق لان هذه النسخة الحلبية الباقية من تراث الآباء هي الوحيدة في العالم كله (١).

وتملك دار الكتب الاهلية في باريس مخطوطة في النبات كتبت بالاندلس في القرن الثاني عشر للميلاد وزينت برسوم نباتية نفيسة . وفي هذه المكتبة ايضاً مخطوطة اخرى نسخت في اواخر القرن الثالث عشر واحتوت على صور نباتات طبية مرسومة بدقة وبراعة تدعوان الى الدهش والاعجاب (٢) .

---

(١) كتب لنا عن سرقة هذا الكتاب عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد في حلب بتاريخ ٢٠ حزيران ١٩٣٨

(٢) Le siècle médical à Paris 1er Juillet 1938

وفي مكتبة « اياصوفيا » في اسطنبول مخطوط مصور عنوانه « ترجمة كتاب الحشائش » لديسقوريدوس في ثلاثة اجزاء (١) . ولعله نفس المخطوط الذي وصفه الاب لويس شيخو بقوله (٢) : « كتاب النبات لديسقوريدوس عرّبه حنين ابن اسحق مع تصاوير دقيقة ملوّنة لاشكال النبات » .

وفي المكتبة البلدية بالاسكندرية جزء من كتاب « مسالك الابصار » لابن فضل الله العمري خاص بالنبات ومصور بالالوان (٣) .

١٥ ـ المخطوطات المصورة في علم الموسيقى

من المصاحف العربية النادرة مخطوطات الموسيقى والاندر فيها ما ازدان بالرسوم والصور . فقد عثرنا من هذا القبيل على مخطوط عنوانه « علم الموسيقى وعلم التأليف والخواص من علوم الفلسفة النظرية » . وهو يشتمل على ثماني مقالات تقع في نحو ٢٦٠ صفحة تصفحناه في الخزانة البارودية ببيروت وقلبناه من اوله الى آخره ، فاعجبنا ما احتواه من الصور والاشكال وعلامات الايقاع والنبرة والنغم . وقد ضبطها الناسخ على اكمل ما يكون من جودة القرطاس والمداد وجمال الخط واتقانه . اما مؤلفه فمجهول وينسبه بعضهم الى ابي نصر الفارابي .

وفي الخزانة المعلوفية بزحلة «ارجوزة في الانغام» للشيخ جمال الدين ابي محمد عبدالله الماردیني . يليها شرح النغمات ثم ذكر الانغام واصولها وفصول في الموسيقى ودائرتان للأنغام بديعتان مصورتان . وفي الخزانة ذاتها مخطوط « كشف الهموم والكرب في شرح آلات الطرب » للمشهدي زُيّن بتصاوير لطيفة .

ومن هذا القبيل نذكر مخطوطاً مصوراً موضوعه « الالآت المنغمة » كانت

---

(١) نوادر المخطوطات لاحمد تيمور باشا ـ الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٨

(٢) سياحة حديثة الى جهات اوروبا : بقلم الاب لويس شيخو ـ المشرق : ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٦٥

(٣) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٣٠

تملكـــه الجمعية الخيرية الارثوذكسية في بيروت . وقد نشرت مجلة المشرق بعض رسومه الملوّنة (١).

وتحوي مكتبة « طوب قبو » في اسطنبول مخطوطاً في الموسيقى عنوانـه « الرسالة الشرقيـة في النسب التأليفيـة » لعبد المؤمن بن الصفي البغدادي . وهو بالقطع المتوسط فيه جداول ملوّنة وعلامات موسيقية بحروف عربية . وفي خزانة « طوب قبو » ايضاً مخطوط عنوانه « كشف الهموم والكرب في شرح آلة الطرب » تأليف محمد بن علي المشهدي الانصاري . حوى ثلاثـــة عشر رسماً بالالوان تمثل اشخاصـاً ينقرون آلات موسيقية . وقد ورد في هـذا المخطوط ما نصه : « كتبت برسم الخزانة العالية المولوية المحترمية المخدوميه السيفية سيف الدين ابو بكر ابن المقر المرحوم منكلي بغا الفخري » . وفي هذا المخطوط رسوم العود والقانون والربابة والقيثارة وسائر آلات الطرب والمعازف .

وحوت الخزانة المعلوفية مخطوطاً عنوانه « سفينة موسيقيـة » انطوى على صور دوائر الانغـام في غاية الاتقان مع ارجوزة في الانغام . واشتمل ايضاً على ابواب في الموسيقى وبرهانها وتأثيرها ورأي اهل الطرب فيها (٢) .

١٦ ـ المخطوطات المصورة في علم الفلك

كان نصيب المخطوطات الفلكية ذات الصور اوفر من نصيب المخطوطات المصورة التي خلفها العرب في سائر المواضيع العلمية . فانهم توسعوا فيها لتوضيح النصوص وجلاء الغوامض للقراء والراغبين في العلم. وقد وقفنا على عدة مخطوطات من هذا القبيل نقتصر منها على وصف بعضها بالايجاز وهي :

---

(١) مجلة الآثار : لعيسى المعلوف في زحلة : مجلد ٣ : ١٩١٤ صفحة ٤٢٣

(٢) مخطوطات الخزانة المعلوفية بزحلة : رقم ١٨٤٢

كتاب « نهاية الادراك في دراية الافلاك » لمؤلفه قطب الدين محمد بن مسعود الشيرازي. وهو ينطوي على صور فلكية اهمها صورة كسوف الشمس. فلما تكلم المؤلف عن هذا الكسوف زين المتن بصورة القمر والشمس في اعلاه ووضع الارض في اسفله. ثم رسم دائرة كبرى كتب على محيطها الفلك الممثل ومرّ محيطها بمركز الشمس. ونقش داخلها دائرتين متساويتي القطرين تقابل محيطاهما في مركز القمر. وكتب على محيط اليسرى منها منطقة تمثل القمر وعلى اتجاه مركز الشمس رسم الارض مبيناً مركزها. اما على محيط الارض فاختار موضع الناظر واظهر مخروط القمر ومخروط الظل.

ووقفنا كذلك على مخطوط عنوانه « صور الكواكب » صنفه عبد الرحمن ابن عمر الطوسي يرجع تاريخه الى منتصف القرن السابع للميلاد. ففيه يجد القارىء صورة نسرين كتب المؤلف فوق صورة احدهما ما اوّله : « المجرّة عند القدر الخامس بينهما مقدار شبر من رأس العين ... » وحلّى المؤلف كل نسرٍ منهما بعدد الكواكب المشرقة في بدنه وجناحيه وذيله ومخالبه (١).

واطلعنا على مخطوطين بعنوان « صورة الكواكب » ايضاً انشأه احمد تيمور باشا المصري : احدهما في خزانته التيمورية وثانيهما في الخزانة الاحمدية بحلب وهما في غاية الندرة (٢).

وفي مكتبة السيد هبة الدين الشهرستاني ببغداد مخطوط في « النجوم » لابي ريحان البيروني. وهو قديم العهد مزين ببعض الرسوم الملوّنة.

واطلعنا على بعض مخطوطات فلكية مصورة في المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين ببيروت. نذكر منها (٣) : كتاب « شرح الجغميني في الهيئة » حوى

---

(١) التصوير التوضيحي في المخطوطات الاسلامية : للدكتور احمد موسى : مجلة الرسالة في القاهرة لاحمد حسن الزيات : سنة ٦ صفحة ٨٣١-٨٣٣

(٢) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٩

(٣) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ١١٢٨-١١٣٠

اشكالاً فلكية محكمة. و «مجموع كبير» تضمن عدة كتب فلكية قد زين صدره بصورة الارض ملونة مع صور دوائر الفلك المحيط والكواكب وصورة فلك البروج وكسوف الشمس. وكتاب «توضيح التذكرة» وهو شرح كتاب «التذكرة في علم الهيئة» لنصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ للهجرة (١٢٧٣ م). وفي هذه المخطوطة اشكال عديدة حمر وسود.

ولا تخلو مكتبة الشرفة بلبنان من مخطوطات فلكية بهذا الشكل، منها مجلد ضخم عنوانه «علم الفلك والاسطرلاب» رقمه ١٨/١ حوى ابحاثاً ضافية عن الفلك والهيئة والحساب، ضمت اليها زهاء عشرين صورة بينها صورة الزبرجة السبتية. وقس عليه مخطوطاً آخر عنوانه «كتاب اقليمس ونبذ شتى» وهذا المخطوط عتيق مجلد بخشب تبلغ صفحاته ٤٨٠ صفحة (١).

واطلعنا في الخزانة البارودية ببيروت على مخطوط عنوانه «القرعة المأمونية» في الابراج واستخراج المضمرات. وهو مصور بجداول ودوائر جميلة الرسم والخط كتب منذ اكثر من خمسة قرون. وشاهدنا في الخزانة نفسها «شرح تذكرة نصير الدين الطوسي» في الفلك تأليف السيد الشريف الجرجاني. وهو موشى بصور متقنة على ورق حريري نسخ سنة ٨٩٥ للهجرة في مدينة بروسة.

ومن هذا القبيل مخطوط عنوانه «شرح الملخص في الهيئة» لمحمود بن محمد بن عمر الجغميني الخوارزمي. وقد علق حواشيه الشيخ فصيح الدين. وهذا المخطوط الذي يحوي ثلاثين رسماً مكتوب في السنة ١١٥١ للهجرة (١٧٣٨ م) وهو محفوظ في الخزانة الطرازية ببيروت. ونرجح ان هذا المخطوط يشابه مخطوط الجغميني المحفوظ في المكتبة الشرقية كما سبق الكلام.

واحتوت الخزانة المعلوفية في زحلة بلبنان على بعض مخطوطات فلكية اولها: مقالات القديس يوحنا الدمشقي وبعض منطقه في مخطوط قديم جداً مخروم الاول

---

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٢٧١-٢٧٤

والآخر . ففي مقالة الافـــلاك صورة زيتية بديعة وصورة الشمس بشكل اسد ، فالزهرة بشكل امرأة الخ . وثانيها مخطوط عنوانه « صور الكواكب » لابي الحسين الصوفي ، يتضمن رسوماً بديعة تمثل الحيوانات التي سميت بها بعض النجوم والكواكب كالاسد والثور والحمل والجدي والسرطان والعقرب . وثالثها « شرح الجغميني » لقاضي زاده في علم الفلك . وهو متقن الرسوم والاشكال جميل الخط والحواشي .

١٧ ـ المخطوطات المصورة في الفروسية والصيد والبيطرة

كان لهذه الفنون عند العرب شأن خطير في سالف الزمان. وكان لملوكهم عناية بها يخرجون في مواكب يطلق على اميرها لقب امير شكار . وبياناً لكلف ملوك العرب وامرائهم بالخيل فان بعضهم الّف فيها رسائل مفيدة وكتباً مستجادة ، نذكر منهم علي بن داؤد من بني رسول ملوك اليمن (٦٢٦ — ٨٤٥ ﻫ) فانه خلّف كتاباً عنوانه « الاقوال الشافية » منه نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية بالقاهرة . والّف الامير محمد باشا ابن الامير عبد القادر الحسني الجزائري كتاب « نخبة عقد الاجياد في الصافنات الجياد » المطبوع في بيروت سنة ١٣٢٦ للهجرة .

اما المخطوطات المصورة في الموضوع المتقدم ذكره فاننا عرفنا منها بدار الكتب المصرية كتاب « نهاية السؤل والامنية في تعليم الفروسية » ، ومنها كتاب « الزردقة » في معرفة الخيل واجناسها وامراضها . وعرفنا في مكتبة خليل آغا بطنطا كتاباً في « البيطرة » ملوّن الصور (١) .

وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوط قديم عنوانه « الخيل وشياتها وصفاتها » يحتوي على صورة فرس مولود بالعيوب وعلى اسماء عيوبه (٢) .

---

(١) المخطوطات النادرة : بقلم احمد تيمور باشا ـ الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٤-٣٢٥

(٢) تاريخ الطب عند العرب : لعيسى المعلوف : صفحة ٦٤-٦٥

الباب السادس عشر

رزايا الكتب والمكتبات

توطئة

نظرة اجمالية في رزايا الكتب والمكتبات

لا يخلو عصر من العصور قديماً وحديثاً لم يُسمع فيه حلول نكبة بالكتب والمكاتب. ولا نعرف بلداً على وجه البسيطة شرقاً وغرباً خلا من مثل هذه الرزايا. فالكتب والمكاتب خاضعة كسائر المخلوقات لسنّة الهناء والشقاء او قصر العمر وطول البقاء. وهي كسائر المخلوقات ايضاً يتنازعها الصديق الوفي الذي يعمل على منفعتها والعدو اللدود الذي يسعى في ايقاع الاذى بها.

مرّ بنا في الابحاث السابقة ان اسهبنا الكلام عن العلماء وانصار العلوم من الملوك والوزراء والكبراء الذين انشأوا خزائن الكتب وشيدوا معالمها وجهزوها بكل نادر ونفيس. ثم وفيناهم حقهم من الثناء على ما بذلوه من الجهود وانفقوه من الاموال لتعزيز دور الحكمة التي اشتهر امرها في الخافقين. فامثال هؤلاء يجب ان نسميهم بكل صواب اصدقاء الكتب والمكاتب ونسجل مآثرهم بمداد الفخر على صفحات الدهر.

مثلما قضى علينا العدل بتدوين فضل اولئك الاصدقاء الاوفياء كذلك يقضي علينا العدل ذاته ان لا نضرب صفحاً عن ذكر الرزايا التي اصابت الكتب والمكاتب

اقراراً بالحقيقـة وخدمة للتاريخ . وتُعزى تلك الرزايا الى اعداء الكتب الذين حاربوها بوسائل الاتلاف المختلفة كالحريق والغرق والتدمير والنهب . يضاف الى ذلك كوارث اخرى لا تقل ضرراً في محاربة الكتب كالحوادث الجويّة والزلازل الارضيّة والعثّ والسوس والرطوبة وغير ذلك من الآفات الناجمـة عن عوامل طبيعيّة او عن اهمال تنظيم المكتبات وعدم العناية بها .

وكان احتراق الكتب شائعاً بنوع خاص في القرون الغابرة انتقـاماً من عدو او نكايةً فيـه . فكانت كل دولة تفتح بلداً تحرق ما فيه من الكتب او تعدمها بطرق شتى كي لا تبقي اثراً لحضارة من تقدمها من الدول . ولنا على ذلك شواهد راهنة لا تحصى في تواريخ الاقدمين والمتوسطين والمتأخرين. بل كان اهل كل شيعة او ملة يحرقون كتب من خالفهم في الدين او المذهب او الجنس او اللغة او السياسة.

الفصل الاول

طمر مكتبة هركولانوم بالبركان

١ - مركز مدينة هركولانوم وانطماسها بالحمم البركانية

كانت هركولانوم ويقال لها اليوم «بمباي» مدينةً عامرةً واقعةً في سفح جبل الفازوف بايطاليا . وفي السنة ٧٩ قبل الميلاد ظهر بركان هائل في الجبل المذكور . فاندلعت نيرانه ومدّت على المدينة برمّتها كفناً من الرماد والحُمَم بلغ سمكُهُ عشرين متراً. هكذا انطمست تلك المدينة الزاهرة وامست بما فيها اثراً بعد عين .

٢ - اكتشاف بقايا مكتبة ارستيد الفيلسوف تحت رماد هركولانوم

وفي السنة ١٧٥٢ شقّت معاول العمَلة تلك الارض فبانت للعيان مدينة رومانيّة جامعة لكل اسباب الحضارة والرفاهية . ومن جملة ما اكتشفوه في احد منازلها مكتبةٌ واسعة لأرستيد الفيلسوف الذي اشتهر في القرن الخامس قبل المسيح . وقد بقي منها ١٨٠٦ مدارج من ورق البرديّ . فجمعها اولئك العمَلة بحرصٍ واعتناء وأقبل الاثريّون على قراءتها . ففكّوا منها ١٢٠٦ مدارج جعلوها على ٢٨٠٠ لوح حُفظ منها تحت الزجاج ثمانمائة قطعة ولصِق الباقي على مقوّى (١).

اما تلك المدارج فتتضمّن مقالات فلسفيّه ومقاطيع ادبيّة ومواضيع تاريخيّة وعلميّة . ذلك ما عثر عليه العملة من بقايا تلك المكتبة العظيمة القديمة العهد . لان جانباً كبيراً منها اندثر بالحممْ البركانية او بَلِي بتوالي الاعصار .

---

(١) الاكتشافات البردية : بقلم لويس جلابرت (المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ١٤٦)

الفصل الثاني

اجهاز البرابرة والملوك القدماء على المكتبات

١ ـ احراق نبوخد نصر ملك بابل تواريخ الملوك الاقدمين

من أقدم الملوك الذين ناصبوا المكاتب روى التاريخ اسم نبوخدنصر الذي احرق في القرن السادس قبل الميلاد تواريخ من تقدّمه من الملوك زاعماً انه يخلّد بذلك ذكره وتاريخ ملكه (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م.) .

٢ ـ احراق داريوش الفارسي مكتبة آثينا

وفي القرن الخامس قبل المسيح اجتاح داريوش الاول ملك الفرس (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق . م .) بلاد اليونان وأخضعها لصولجانه . وقد أحرق حين ذاك المكتبة الشهيرة في اثينا . وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس (١) .

٣ ـ احراق الاسكندر الكبير كتب الفرس

لمّا دوّخ الاسكندر ذو القرنين (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق . م .) مدينة اصطخر عاصمة الفرس َقوّض أبنيَتَها وشوّه نقوشَها . ثم استنسخ ما كان مجموعاً في الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسانَين اليونانيّ والقبطيّ . ولما فرغ من استنساخ ما انتقاه

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق (محاضرة انيس سلوم في الكتب والمطالعة) : صفحة ٢٦٣

أحرق جميع الكتب الفارسيّة بعدما اخذ ما كان يحتاج اليه من علوم النجوم والطبّ والطبائع . وبعث به وبسائر ما أصاب من العلوم والاموال والخزائن الى بلاد مصر (١) .

٤ ـ احراق عاهل الصين كتب مملكته

في السنة ٢١٣ قبل المسيح أصدر عاهل الصين (هي ـ هونك ـ تي) المشهور بكرهه للعلوم امراً باحراق جميع الكتب الموجودة في انحاء مملكته . انما استثنى منها تواريخ اسلافه و كتُب الطبّ والتنجيم .

٥ ـ ابادة البرابرة مكاتب الرومان واليهود والنصارى

وأباد البرابرة جميع المكتبات التي أسسها قياصرة رومية ولاسيا اوغسطس قيصر . كالمكتبة الاوكتافية ومكتبة ابولون وغيرهما من المكتبات التي كلفت القناطير المقنطرة من الذهب (٢). وكان قياصرة رومة بدورهم يحرقون بلا شفقة خزائن كتب اليهود والمسيحيين . وكان هؤلاء يحرقون كتب الوثنيين كما ان المسلمين كانوا يتلفون مكتبات مَن لا يدين بدينهم وهلمّ جرّاً .

٦ ـ شهادة الكتاب المقدس على المسيحيين باحراقهم كتب السحر

سلك المسيحيون الاولون مسلك من سبقهم في احراق الكتب . يؤيد ذلك

---

(١) الفهرست لابن النديم : صفحة ٢٣٩ والآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني الخوارزمي: طبعة ليبسيك : صفحة ١٢٩

(٢) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٠-٦١

ما اثبته الكتاب المقدس (١) في عهد الرسل اذ قال : « وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون معترفين ومخبرين بأعمالهم . وكثيرون من الذين استعملوا السحر أتوا بكتبهم واحرقوها امام الجميع . وحسب ثمنها فوجد يبلغ خمسين الفاً من الفضة »

٧ ـ تأييد عمار البصري احراق النصارى كتب السحر

عاش عمّار البصري احد ائمّة النساطرة في القرن الحادي عشر للميلاد كما روى العلاّمـة السمعاني (٢) . وخلّف مصنّفات جليلة اشهرها كتاب « المسائل والاجوبة » اورد فيه ما نصّه قال (٣) :

«اما خيالات السحر فقد تضمّنت كتب النصارى التحذير من اصحابها والاحراق لكتبها. ففي الانجيل قال : احذروا من الانبياء الكذبة ومن ثمارهم فاعرفوهم (٤) وفي الابركسيس (اعمال الرسل) قال : ان الذين آمنوا في اول الدعوة احضروا الى الرسل كتب السحرة فأحرقوها وكانت قيمتها خمس ربوات فضة (٥)» . والمراد بالربوة عشرة آلاف عند اهل الحساب .

---

(١) اعمال الرسل : فصل ١٩ عدد ١٨ و ١٩

(٢) المكتبة الشرقية : مجلد ٣ صفحة ٦٠٨

(٣) المسائل والاجوبة : مخطوطة دير الشرفة : ٥ـ٤ صفحة ١٢٥

(٤) انجيل متى الرسول : فصل ٧ عدد ١٥ و ١٦

(٥) كذا « خمس ربوات » طبقاً للنسخة السريانية المشهورة بالبسيطة

الفصل الثالث

حريق مكتبات الاسكندرية والقسطنطينية وقيصرية فلسطين وروما

١ ـ حريق مكتبة المتحف الاسكندري

في السنة ٤٨ قبل المسيح أتلفت بالحريق مكتبة المتحف الاسكندريّ التي أنشأها على ما هو مرجّح سوتير (١) اول ملوك البطالسة . وكان عدد كتبها بالغاً سبعمائة الف مجلّد تبعاً لرواية المؤرخ اولوجال الرومانيّ. اما المؤرخ تيت ليف على ما روى سينكا الفيلسوف فذكر ان عدد الكتب لم يتجاوز اربعمائة الف مجلّد (٢) .

٢ ـ حريق مكتبة السيرابيوم في الاسكندرية

انشئت في الاسكندرية مكتبة السيرابيوم وسُمّيت « المكتبة الفتاة » لانها كانت اصغر من مكتبة المتحف الاسكندريّ السابق ذكرها . وقد ذاع صيت مكتبة السيرابيوم في الخافقين ولم يزل الاسف على احتراقها شديداً عند علماء الشرق والغرب . فمن قائل ان القيصر الروماني ثئودوسيوس الاكبر(٣٧٩-٣٩٥م)

---

(١) سوتير او سوطير هو لقب بطلميوس الاول مؤسس دولة البطالسة في مصر وكان ملكه منذ السنة ٣٢٣ حتى السنة ٢٨٣ قبل الميلاد (التاريخ القديم : لهارفي بورتر : صفحة ٣١١)

(٢) المشرق : مجلد ١٤ سنة ١٩١١ صفحة ٣٩١

أمر باحراقها عام ٣٩٠ للميلاد باغراء ثئوفيلس البطريرك الاسكندريّ (١) ومن قائل انها أحرقت عندما فتح العرب مدينة الاسكندرية كما اثبت عبد اللطيف البغدادي (٥٥٥ـ٦٢٩ هـ) وجمال الدين القفطيّ (٦٤٦ هـ) وابو الفرج ابن العبريّ (+ ١٢٨٦ م) . ومن قائل خلاف ما اوردناه في الروايتين المذكورتين . ونفى غيرهم نسبة هذا الحريق الى العرب على يد عمرو بن العاص لأمر وردَهُ في ذلك . ولما كان يتعذر البتّ في هذه القضية التي حمي وطيس الجدال بسببها في الكتب وعلى صفحات المجلات فاننا نتردّد فيها بين الايجاب والسلب . ولا نتسرع في الحكم ريثما تنكشف الحقيقة ويأتينا امل البحث بحجج راهنة تزيل كل الشبهات .

٣ ـ حريق المكتبتين الملكيتين في القسطنطينية

في السنة ٤٧٧ للميلاد التهمت النيران خزانة الكتب التي شادها قسطنس الثاني (٣٥١ ـ ٣٦١ م) ابن قسطنطين الكبير في عاصمة مملكته . وكانت تشتمل على مائة وعشرين الف مجلد من المخطوطات الثمينة فاحترقت برمتها . ثم أنشىء على انقاضها مكتبة ملكية ضمّت ثلاثة وثلاثين الفاً وخمسمائة مخطوط . وكان لخزّانها الباع الاطول في المحاماة عن الديانة المسيحية .

ولما تولى لاون الثالث الايسوري (٧١٧ ـ ٧٤١ م) عرش القسطنطينية وكان عدواً للاقليرس ومضطهداً للايقونات وَجد في عمّال المكتبة خصماً شديداً لدوداً . فانتقاماً منهم احرق المكتبة عام ٧٢٦ للميلاد بما فيها ومن فيها من الخزّان والنّساخ والخدام (٢) .

٤ ـ حريق مكتبة بمفيل البيروتي في قيصرية فلسطين

وما حلّ بمكتبتيَ الاسكندرية ومكتبتيَ القسطنطينية من الرزايا حلَّ بغيرها

---

(١) زبدة الصحائف في اصول المعارف : بقلم نوفل نوفل : صفحة ٣٨

(٢) مجلة الآثار : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣٢-٣٣٣

من المكتبات القديمة التي ورد ذكرها في التاريخ ودخلتْ في خبر كانَ . ومن اشهرها المكتبـة التي أنشأها بمفيل البيروتي (+ ٣٠٩ م) في قيصرية فلسطين . وكانت تشتمل طبقاً لرواية ايسيدورس على ثلاثين الف مخطوط (١) في شتى الفروع العلمية والدينية . وفي طليعتها « مجموعة الكتاب المقدس » في خمسين مجلداً للعلامة اوريجانيس (١٨٥ - ٢٥٤ م) معجزة الدهور (٢) .

٥ - حريق خزائن كتب القيصر في رومة

اثبت جالينوس الفيلسوف في كتابه « نفيُ الغم » انه احترق له كتب كثيرة في خزائن القيصر العظمى بمدينة رومة . وكان بعضها بخط ارسطوطاليس وبعضها بخط انكساغورس واندروماخوس. وصحّح جالينوس قراءتها على معلميه الثقات وعلى من رواها عن افلاطون . ثم سافر الى مدن بعيدة حتى نقّح اكثرها. وذكر من جملة ما ذهب له في هذا الحريق كمية وافرة من كتبه التي صنّفها ولم يكن لديه نسخة سواها . وقد اتلف له هذا الحريق عينه اشياء كثيرة سردها في كتابه المشار اليه . وقال المبشر بن فاتك ان جملة ما احترق لجالينوس في هذه الكارثة « كتاب روفس » في الترياقات والسموم وعلاج المسمومين وتركيب الادوية بحسب العلة والزمان. ومن مميزات كتب جالينوس انها كانت موشاة بديباج ابيض وحرير اسود . وانفق عليها مالاً كثيراً (٣) .

٦ - احراق كتب تيت ليف في رومة

وُلد تيت ليف المؤرخ الروماني سنة ٥٩ قبل المسيح وامتدت حياته الى السنة التاسعة عشرة للميلاد . وقد اشتهر بتاريخ وضعه عن مدينة رومة سمّاه « Décades » يستعذب الكتّاب الافرنج قراءته لبلاغة عباراته وجزالة معانيه . ويقال ان البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠ - ٦٠٤م) جمع طائفة كبيرة من تآليف تيت ليف فاحرقها احتقاراً لمؤلفها (٤)

(١) تاريخ سوريا : للمطران يوسف الدبس : مجلد ٤ صفحة ٦٥
(٢) مجلة « الصخرة » في القاهرة : مجلد ٣ سنة ١٩٤٠ صفحة ٢٠٨
(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة : جزء ١ صفحة ٨٤-٨٥
(٤) اعداء الكتب : بقلم جرجي سكسك : صفحة ٣

الفصل الرابع

احراق كتب الآراميين والعبرانيين والوثنيين والمجوس

١ ـ ابادة سلوقس كتب الاراميين في سليق (المدائن)

ورد عن سلوقس (٣١١ـ ٢٨٠ ق م) انه لما ابتنى مدينة سليق على اطلال مدينة بابل ألغى كل التواريخ التي كان يستعملها الآراميون وأحرق كتبهم برمتها . وأحدث تاريخاً جديداً عُرف بتاريخ السلوقيين او تاريخ الاسكندر الذي يبتدىء سنة ٣١١ قبل المسيح (١) .

٢ ـ احراق انطيوخس كتب العبرانيين

في مكتبتنا الخاصة مخطوط عربيّ قديم العهد مجلّد بدفّتين خشبيّتين تنقصه بعض اوراق في آخره. وعنوانه «معارة الكنوز» بالعين المهملة طبقاً لاصله السريانيّ. ويرتقي عهد نساخته الى القرن الخامس عشر للميلاد كما يتضح من شكل خطه وورقه وجلده . فقد ورد في آخر صفحة منه ما نصه : «لاجل ان الناموس والانبياء احرقوا منهم ثلاثة دفوع : الدفعة الاولى الذي احرقوا فيها الكتب في ايام انطيوخس . . .»

اما الدفعتان الثانية والثالثة اللتان أحرقت فيهما كتب العبرانيين فلا اثر

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : مجلد ١ صفحة ٧٤

لذكرها في مخطوطتنا هذه اذ ينتهي آخرها بالعبارة السابقة الذكر . ونرجح ان انطيوخس الذي أحرق كتب العبرانيين هو انطيوخس الرابع ابيفان (١٧٤ - ١٦٤ ق. م.) المشهور باضطهاده لليهود .

٣ - احراق هيرودس كتب القبائل العبرانية

كتب اوسابيوس القيصريّ المؤرخ (٢٦٧ - ٣٤٠ م) عن احراق اورشليم في عهد هيرودس قال : «كانت اخبار قبائل العبرانيين محفوظة في المكتبة (باورشليم) كما كانت كتب الغرباء مصونة ايضاً فيها الى ذلك العهد . منها كتاب احيور العموني وكتاب راعوت الموآبيّة وكتاب حالوط الذي جاء معهم من مصر . ولما كان هيرودس لا ينتسب الى قبائل بني اسرائيل وكان ضميره يبكّته لدناءة نسبه أحرق جميع كتب قبائل اليهود . وانما اقترف هذه الجريمة كي يتسنى له الانتساب الى قبيلة شريفة بضياع الوثائق التي تثبت نسَبَهُ الحقيقيّ (١) .

٤ - اتلاف الاراميين المسيحيين كتب اجدادهم الوثنية

بعد ما اعتنق الآراميون الدين المسيحي ساقهم غلوّهم بهذا الدين الى ان يتلفوا من دون تمييز كل اثرٍ ورثوه عن اجدادهم من المتروكات العلمية لانطوائها على التعاليم الوثنية . بل افضى الامر بالمسيحيين انفسهم الى احراق الكتب الدينية في عهد قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧ م) كما ذكر اغابيوس المنبجيّ الملكي في تاريخه قال (٢) :

---

(١) اوسابيوس (١ : ٧ صفحة ٤٦ و ٤٧) طبعة بيجان نقلاً عن مصحف مخطوط على الرق سنة ٧٧٣ للاسكندر (٤٦٢ م) وهذا المخطوط محفوظ في مكتبة بطرسبرج

(٢) تاريخ اغابيوس بن قسطنطين المنبجي : مخطوطة دير الشرفة المنسوخة عام ١٦٦٢ رقم ١٦-١

« كثر المؤمنون جداً ونما المخالفون . وكان الملوك يقوّون المخالفين . . . وقلّ اهل الايمان . ولم تزل بينهم المصائب والحقود الى ان أحرقت كتب الكنيسة المقدسة الالهية وزيد ونقص منها. وبطلت سنن الحواريّين وتفرقوا الى امم كثيرة تنيف عن سبعين ملة مذكورة كلها في الرسالة الثامنة التي في كتاب اكليمندس . . . الى ان ملك قسطنطين بن هيلانة المباركة الرهاوية » .

وذكر اسطفان الدويهي البطريرك الماروني في « منارة الاقداس » قال (١) : « امر قسطنطين الكبير بحرق جميع كتب آريوس . واعلن ان كل من وجد كتاباً ولم يحضره ليحرق فليُقتَلْ . ومتى أمسِك فلْيُقطَع رأسُه حالاً » .

٥ ـ احراق كتب الوثنيين ودفن احدهم دفنة حمار

عقد المؤرخ الرهاوي فصلًا عنوانه « الوثنيون في عاصمة المملكة » قال (٢) : « في هذا الزمن امر يوسطينيانس الاول (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) ان يُلقى القبض على الوثنيين لانهم اخذوا يذيعون تعاليم ديانتهم . فقبض على كهنتهم الذين أحرقوا بالنار نحو الفي مجلد من كتبهم الدينية . . . على ان احد هؤلاء الوثنيين المسمى (فوقا) لما رأى شدة الامر هلع هلعاً عظيماً فتناول سماً في الليل ومات. فامر الملك ان يدفن دفنة حمار » .

وروى ميخائيل الكبير ان الوثنية ذاعت في القسطنطينية عاصمة المملكة وانتشرت معها كتبها السحرية . فألقي القبض عام (٥٦٢ م) على خمسة كهنة وثنيين : اولهم من آثينا وثانيهم وثالثهم من انطاكية ورابعهم وخامسهم من بعلبك . وقد احضروا ما عندهم من الاصنام والكتب الوثنية واحرقوها باجمعها .

---

(١) منارة الاقداس : للبطريرك الدويهي : جزء ٢ صفحة ١٦٨

(٢) تاريخ الرهاوي : فصل ٥٧ صفحة ١١٥ طبعة البطريرك افرام رحماني

ونقل عن يوحنا اسقف اسيا المؤرخ المشهور في تلك الحقبة انه احرق بيده الفي مجلد من تلك الكتب (١) .

٦ - طرح الكتب المجوسية في الماء بأمر امير خراسان

وفي القرن الثالث للهجرة كان عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعيّ اميراً على خراسان . فلما عُرضت عليه كتب المجوسية أمر بالقائها في الماء ووجّه اوامرهُ الى الجهات باعدام جميع كتب المجوس (٢) .

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٣٢٤ طبعة باريس

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي : لجرجي زيدان : جزء ٣ صفحة ٤٥

١

الفصل الخامس

اتلاف الكتب النصرانية في العصور الغابرة

١ - حرق الكتب الدينية في القرن الرابع للميلاد

روى اوسابيوس القيصري قال : « وفي عهدنا هذا قوّضت كنائس شتى . وقد شاهدنا بعيننا عدداً وافراً من كتب الله المقدسة تحترق على قارعة الطريق » ثم استتلى قائلاً : « في السنة التاسعة عشرة لديوقلطيانس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) في شهر اذار وردت رسائل الملك يأمر فيها ان تقوّض الكنائس من أسسها وان تحرق الكتب بالنار (١) .

٢ - ابادة كتب «الذياطسرون» في الرها وقورش

ذكرنا في «خزائن كتب الرها» ان ربولا (+ ٤٣٥ م) العلامة الشهير ساقته الحماسة الدينية فجمع نسخ كتاب العهد الجديد المعروف بعنوان «ذياطسرون» واحرقها باسرها . ونهج منهاجه ثيودريط اسقف قورش العلامة الكبير فاتلف من هذا الكتاب عينه مائتي نسخة ونيّفاً (٢) .

---

(١) تاريخ اوسابيوس : سفر ٨ فصل ٢ و ٣

(٢) Rubens Duval : Littérature Syriaque P. 41

٣ ـ احراق الاريوسيين والنساطرة كتب خصومهم

روى عبد يشوع الصوباوي في قصيدته التي أحصى فيها مشاهير الكتبة ومؤلفاتهم أنَّ الأريوسيّين أحرقوا ستين كتاباً من تصانيف ديودروس الطرسوسي. وفعل مثل ذلك خصوم نسطور فأتلفوا مؤلفاته وجميع الكتب الحاوية شيئاً من تعاليم بدعته. واحرق برصوما النسطوري (+ ٤٩٦ م) طائفة كبيرة من مخطوطات دير الشيخ متى في جبل الفاف قرب الموصل (١) لانها كانت تحتوي على تعاليم مخالفة للبدعة النسطورية.

٤ ـ احراق السوفسطائيين كتبهم في اخائية

يقرأ في اخبار آبا الكبير جاثليق النساطرة (٥٤٠ ـ ٥٥٢ م) انه انطلق الى بلاد اليونان فدرس لغتهم واحكمها. ثم جال في تلك الاصقاع حتى بلغ الى اخائية وهي ناحية من نواحي اليونان. فاجتمع هناك بقوم من السوفسطائيّين وجادلهم فأفحمهم ببراهينه الساطعة. وما ان اعملوا الرويّة في تعليم الجاثليق حتى اتضحت لهم الحقيقة فانصاعوا لها وعمدوا الى ما عندهم من الكتب فاحرقوها باجمعها (٢).

٥ ـ حرق مخطوطات السريان والارمن في قسطنطينية

في السنة ١٠٦١ م أمر قسطنطين العاشر دوقس قيصر الروم (١٠٥٩-١٠٦٧ م) ان ينفى من عاصمته كل من فيها من السريان والارمن او يخضعوا لتعليم المجمع الخلقيدوني المسكوني. فرفض هؤلاء أمر القيصر مصرّين على البقاء في معتقدهم.

---

(١) Studia Syriaca للبطريرك افرام رحماني: جزء ١ صفحة ٣٢

(٢) اخبار آبا الجاثليق: صفحة ٢٢١ طبعة ليبسيك

فأمر الملك باحضار مخطوطات السريان والارمن وآنية بيعتيهم وأحرقها باجمعها في وقت واحد . ثم أحرق البيعتين المذكورتين ايضاً ورحّل عن العاصمة قسوس السريان والارمن . وعلى اثر ذلك نزع اغلب ابناء هاتين الملتين الى عقيدة القيصر المشار اليه (١) .

٦ - نهب كتب فطريركية النساطرة في بغداد

حشد فطاركة النساطرة عدداً وافراً من المخطوطات عربية وسريانية ويونانية في خزائن فطريركيتهم المشهورة بدار الروم في بغداد . وظلت تلك المكتبة في ازدياد مطّرد حتى القرن الثاني عشر للميلاد . ولما توفي الفطرك برصوما الاول (١١٣٣ - ١١٣٥ م) لم يدفن كأسلافه الفطاركة في بيعة دار الروم . بل دفن في بيعة سوق الثلاثاء لسبب أثبته المؤرخ النسطوري ماري بن سليمان قال (٢) : «وسببه ما جرى على القلاية والبيعة في دار الروم من النهب الشنيع اذ أخذت الكتب السريانية والعربية واثاث البيعة جميعه وكل ما كان موجوداً بها» .

٧ - نهب نور الدين الوف الكتب من كنيسة نصيبين وغيرها

في شهر آب ١١٧٢ للميلاد حشد نور الدين بن زنكي صاحب حلب عسكراً جرّاراً وسار الى نصيبين مسرعاً وامتلكها صلحاً دون حرب . فسرّ فقهاء المسلمين وكان نور الدين يحبهم حباً مفرطاً ويتمم نصائحهم بانقطاعه عن شرب المسكر . ولذا شدّد على المسيحيين تزلّفاً الى المسلمين . فأمر بتقويض كل بناء جديد أضيف الى الكنائس والديارات. فهدموا جداراً فخماً كان مبنياً في كنيسة مار يعقوب الكبرى

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٥٧٥-٥٧٦ و ٥٨٥

(٢) فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل : لماري بن سليمان : صفحة ١٥٦ طبعة جيسموندي في رومة سنة ١٨٩٩

بنصيبين وهي في حوزة النساطرة منذ عهد برصوما زعيمهم . ثم نهبوا جميع امتعة الكنيسة وفي جملتها الوف من الكتب . واجترموا مثل تلك الجريمة في امكنة كثيرة (١) .

٨ - نهب الروم للكتب والصلبان من كنائس الرها

في السنة اثنتين وثلاثين وستمائة للهجرة (١٢٣٤ م) حصر السلطان علاء الدين مدينة الرها وملكها عنوة . فدخلها الروميّون ووضعوا السيف بها ثلاثة ايام وقتلوا النصارى والمسلمين فتكا ونهباً . فأصبح الرهاويوّن فقراء لا يملكون شيئاً . ونهبت البيَع وأخِذَ ما فيها من الكتب والصلبان وآلات الذهب والنّقرة (٢) .

٩ - اتلاف النساطرة واليعاقبة بعضهم كتب البعض الاخر

كثيراً ما حملت الغيرة الدينية فئةً من النساطرة واليعاقبة على ان يحرق الفريق منهم كتب الفريق الآخر لانه يخالفه في المعتقد او المذهب او الراي . أضف اليهم حفدتهم الكلدان والسريان الكاثوليك في العصور المتأخرة . فانهم بعد اتحادهم مع كنيسة رومة ألقوا كتبهم القديمة للنار في بلاد العراق وسوريا وما بين النهرين والملبار وغيرها لاحتوائها تعاليم مخالفة لتعاليم الكثلكة (٣) .

---

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٦٩٦ طبعة باريس

(٢) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري : صفحة ٤٠٥-٤٣٦

(٣) تاريخ كلدو واثور : صفحة ٤٠

الفصل السادس

محو كتب الفرس وغيرها واحراق مصاحف القرآن

١ - رواية ابن خلدون عن محو الخليفة عمر علوم الفرس

اذا انتقلنا في الكلام الى المسلمين في بداءة امرهم رأينا ابن خلدونْ يكتب في مقدمته عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب ما نصه (١) : « وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل . فاين علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح ؟ »

٢ - محو عبدالله بن عباس كتاباً بالماء

يُذكَر أنّ رجلاً جاء الى عبد الله بن عباس فقال له : « اني كتبت كتاباً أريد ان اعرضه عليك . فلما عرضه عليه اخذه منه ومحاه بالماء . فقيل لعبد الله لماذا فعلت ذلك ؟ قال : لانهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » (٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : صفحة ٣٨ ـ طبعة المطبعة الادبية في بيروت

(٢) احمد زكي باشا : الحضارة الاسلامية : صفحة ٧٧-٧٨

٣ ـ احراق الخليفة عثمان بن عفان مصاحف القرآن

لمّا انتشر المسلمون في الآفاق اختلف الناس في قراءة القرآن على اختلاف لهجاتهم. فكان بعضهم يقرأ لفظة «التابوت» مثلًا بالتاء وبعضهم بالهاء. وما ان أخبر عثمان بذلك وكان اميراً للمؤمنين حتى استعار مصحف ابي بكر من حفصة وكتب منه اربع نسخ وضبطها بلغة قريش التي نزل بها القرآن. ثم بعث الى كلّ مصر بمصحف وأمر الناس ان ينسخوا مصاحفهم منه. وأوعز باحراق كل ما خالف تلك النسخ. وتم ذلك سنة ثلاثين للهجرة (١).

---

(١) محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين: مجلد ٧ صفحة ٦٦٧

الفصل السابع

احراق الفرق الاسلامية بعضها كتب البعض الآخر

١ ـ منازعات اهل السنة والشيعة وغيرهم

مثلما كانت الفرق المسيحية يحرق بعضها كتب البعض الآخر لمنازعات دينية كما سلف الكلام هكذا جرى في ميدان المنازعات المذهبية بين السنيّين والشيعيّين في بغداد . وسار سيرهم من بعدهم الحنبليون وبقية المذاهب (١) . ولم تكن المخاصمات في بلاد الاندلس وشمال افريقيا اقل منها في عاصمة العباسيين حيث دارت الدوائر على الكتب فتلف منها الشيء الكثير .

٢ ـ ابتهاج الاندلسيين بحرق الكتب المخطوطة في اعيادهم

للعلامة هنري لامنس بحث دقيق في هذا الموضوع نورده بالحرف الواحد قال :

« ليس بلد من البلاد حفظت له تواريخ العرب من احراق المكاتب ما حفظته للاندلس . وها ان الاستاذ ربيرا (٢) خص مكاتب الاندلس الاسلامية واصحابها بدرس مسهب . وبيّن ما كان للكتب من المحل في شغف الناس وولعهم ثم قال : « في الاندلس سحابة قرون عدّة كان الوقوف على حريق المخطوطات العربية من الذّ ما تتمتع به العامة في اعيادها وافراحها (٣).

---

(١) المشرق : مجلد ٢٧ سنة ١٩٢٩ صفحة ٧٤٠

(٢) Disertacions y opusculos, I 181 etc.

(٣) فيه : مجلد ١ صفحة ٢٢٠

٣ – فظائع المالكيين في الاندلس باتلاف كتب مناوئيهم

لما رسخت قدم المذهب المالكي في الاندلس وُطردَ المذهب الاوزاعي الذي كان قد دخل البلاد مع العرب السوريين استشمّ العلماء المالكيون رائحة البدع في كل مكان. فحرّكوا الشعب فصار يناوىء كل مجدّد حقيقي او مزعوم ويحرق كتبه . ومن الذين ذهبوا ضحية تلك الحركة ابن مسرّة الفيلسوف وبعده ابن كليب (١) المتهم بتعليم القدر أحرِقت كتبه بعد موته في ساحة البلد . وكانت الحكومة تقبّح تلك الفظائع ولا تجرؤ على مقاومتها. احب الوزير المنصور المؤلفات الفلسفية وحرص كل الحرص على اخفائها . وكان للسلطان في عزّه مكتبة بلغ عدد مجلداتها على ما يقال اربعمائة الف فلم ينجها من شرّ هذه الاعمال البربرية . لان المفتشين دخلوهـا واحرقوا منها عدداً وافراً في محضر من الوزير المنصور . وقد اضطرّوه الى مساعدتهم على اتلافها . ولم يبقوا الا على ما لم يجدوا فيه شبهة من كتب الطب والحساب والشريعة وغيرها .

٤ – احراق كتب المالكيين في فاس ونفاد المخطوطات في الغرب

لما استولت دولة المرابطين على الاندلس كثرت حركة التدمير فأحرقت مؤلفات الفلاسفة وفيها كتب الغزالي الذائع الصيت. وكذلك جرى في مكاتب عديدة (٢). ثم غلب الموحدون المرابطين فاخذوا باحراق كتبهم. ودارت الدائرة على كتب المذهب المـالكي حملوها احمالاً على الرواحل ووجهوها الى فاس في مراكش واحرقوها في مجتمعات الناس .

وفي السنة ١٥٤٣ حلّ فاس رجل بلجكي اسمه نقولا كلينار وكان يحسن العربية

---

(١) راجع الفرضي : تاريخ علماء الاندلس : طبعة كوديرا : جزء ١ صفحة ١٢٠ عدد ٤١٧ .
(٢) ابن الآبار كتاب التكملة لكتاب الصلة : طبعة كوديرا : جزء ٢ : ٥٦٧ ، ٣

وهو مشغف بها . ومما لفت نظره في المدينة عدم وجود المكاتب وندورة المخطوطات وعددها اقل من القليل . فان المؤلف الشامل لبضع مجلدات كان وجوده بكامله مستحيلاً .

٥ ـ اتلاف كتب ابن رشد وغيره

وكانت دولة الموحدين قد رضيت على ابن رشد فانقلب الشعب الاندلسي عليه وعلى مؤلفاته . وهذا الانقلاب يدلنا على سبب قلة ما حُفظ من مخطوطات ابن رشد . وأتلفوا ما أتلفوا من الكتب حتى نفدت خزائنها . ولذلك لما اراد سلاطين بني مرين تأسيس مكتبة في فاس قصدوا الى الملك سانشو الرابع (١) فارسل اليهم هذا الامير المسيحي من بلاده ثلاثة احمال من المخطوطات العربية .

ذكرنا المؤرخ ابن الآبار وفاتنا القول ان كتبه قد أحرقت في ساحة تونس الغرب . فهل من سبيل بعد الى السؤال عن مؤلفات مسلمي الاندلس ؟ او ليس الاحرى بنا ان ندهش لبقاء جزء منها بعد تدمير المدمرين ؟ ... ومما يأسف له العلم كثيراً ان الكتب كانت تذهب ضحية تلك الايام . وسواء أكان المالكيون غالبين او مغلوبين فعلى الكتب كانت تحل نقمة الناقمين (٢) .

واثبت التاريخ ان السلطان ابا يعقوب بن عبد المؤمن ابعد ابن رشد عن مراكش الى الاندلس بعد أن أذاه . وأمر ايضاً بابعاد كلّ من يتكلم بالعلوم الفلسفية وبحرق كتب الفلسفة . وبعد ان جنح السلطان الى تعلم الفلسفة اعاد ابن رشد الى مراكش ومات هو سنة ٥٩٤ للهجرة (٣) .

٦ ـ احراق كتب الركن عبد السلام في رحبة بغداد

وفي السنة ٦١١ للهجرة توفي الركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر

---

(١) راجع روض القرطاس (éd. Tornberg) صفحة ١٨
(٢) المشرق : مجلد ٢٧ سنة ١٩٢٩ صفحة ٧٤١-٧٤٣
(٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٢٧٧

الجبلي في بغداد . وكان يتهم بمذهب الفلاسفة فاعتقل قبل موته . واظهرت كتبه وفيها الكفريات مثل مخاطبة زحل وغيره بالالهية واحرقت (١) .

وقد روى ابو الفرج ابن العبري حادثة احراق كتب الركن عبد السلام المشار اليه بتفصيل اوفى قال :

«وكان في الايام الامامية الناصرية الحكيم عبد السلام بن جنكي دوست الجبلي البغدادي قد قرأ علوم الاوائل واجادها . واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة وحصل له بتقدمه حسد من ارباب الشر . فثلبه احدهم بانه معطل فاوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه . فوجد فيها الكثير من علوم الفلاسفة وبرزت الاوامر الناصرية باخراجها الى موضع ببغداد يعرف بالرحبة وان يحرق الجم منها بحضور الجمع ففعل ذلك . وأحضر لها عبيد الله التيمي المعروف بابن المارستانية وجعل له منبر. وصعد عليه وخطب خطبة لعن بها الفلاسفة ومن يقول بقولهم. وذكر الركن هذا بشر وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً يتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار. قال القاضي الاكرم الوزير جمال الدين بن القفطي رحمه الله : اخبرني الحكيم يوسف السبتي الاسرائيلي قال : كنت ببغداد يومئذ تاجراً وحضرت المحفل وسمعت كلام ابن المارستانية وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم وهو يقول : وهذه الداهية الدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء. وبعد اتمام كلامه خرقها وألقاها في النار . فاستدللت على جهله وتعصبه اذ لم يكن في الهيئة كفر وانما هي طريق الى الايمان ومعرفة قدر الله جلّ وعزّ فيما احكمه ودبّره . واستمر الركن عبد السلام في السجن معاقبة على ذلك الى ان أفرج عنه سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٢) . وهي السنة ١١٩٣ م

---

(١) المختصر في تاريخ البشر لابي الفدا : جزء ٣ صفحة ١١٦

(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٤١٤و٤١٥ وكتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ١٥٤

الفصل الثامن

ذكر من غسل كتبه

١ - ابن ابي الحواري

أقدم رزيئة أوردها التاريخ ومُنيت بها المكتبات العربية على ما نعهد ما رواه الحاج خليفة (١) عن ابن ابي الحواري قال : « نقل عن بعض المشايخ انهم احرقوا كتبهم . منهم العارف بالله سبحانه وتعالى ابن ابي الحواري. فانه كما ذكره ابو نعيم في الحليـة انه لما فرغ من التعليم جلس للناس . فخطر بقلبـه يوماً خاطر من قبل الحق . فحمل كتبه الى شطّ الفرات فجلس يبكي ساعـةً ثم قال : نِعمَ الدليلُ كنتِ لي على ربّي . ولكن لما ظفرت بالمدلول فالاشتغـال بالدليل محال . فغسل كتبه » .

٢ - ابو غالب شجاع الشيباني

انتحى ابو غالب شجاع بن فارس الذهليّ الشيبـانيّ (٤٣٠ - ٥٠٧ ﻫ) أثر ابن ابي الحواري المذكور آنفاً . فانه افنى عمره في طلب العلم ونساخة الكتب . وكان قد عمـل مسوّدة تاريخ بغداد ذيلاً لتاريخ الخطيب البغدادي فغسلهـــا في مرض موته (٢) .

---

(١) كشف الظنون : للحاج خليفة : مجلد ١ صفحة ٤٠
(٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٣٦-٣٧

الفصل التاسع

ذكر من دفن كتبه

١ ـ سفيان الثوري

روى الحاج خليفة في كتابه «كشف الظنون» ما نصّه : «ذكر ابن الملقّن في كتابه «طبقات الاولياء» عن سفيان الثوري قوله : وقد رُوي نحو هذا عن سفيان الثوري (٩٧ ـ ١٦١ هـ) انه أوصى بدفن كتبه وكان ندم على اشياء كتبها عن الضعفاء»

امّا ياقوت الروميّ صاحب «معجم الادباء» فقد حدّث عن سفيان الثوري قال : «مزّق سفيان الثوريّ الف جزء وطيّرها في الريح وقال : ليت يدي قُطعت من ههنا بل من ههنا ولم اكتب حرفاً !» (١) .

٢ ـ الامام الشافعي

ذكر ابو الفداء عن الامام الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ) إنه دفن من الكتب التي كانت عنده جميع ما كان منها يبحث عن علم النجوم (٢) .

---

(١) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١٥ صفحة ٢٢

(٢) تاريخ ابي الفداء : جزء ٢ صفحة ٢٦-٢٧

٣ ـ محمد بن العلاء

وحذا حذو سفيان الثوريّ والامام الشافعيّ المارّ ذكرهما محمد بن العلاء بن كريب الهمذانيّ الكوفيّ الذي كان من حفّاظ الكوفة وثقةً مُجمعاً عليه . ومات لثلاث بقين من جمادى الاولى سنة ٢٤٣ للهجرة (٨٥٧ م) . وأوصى ان تُدفَن كتبه فدُفنت (١).

٤ ـ دفن يوسف بن اسباط كتبه في كهف

حدّث ياقوت الروميّ في « معجم الادباء » عن يوسف بن اسباط ما نصهُ : « وهذا يوسف بن اسباط حمل كتبه الى غارٍ في جبل وطرحها فيه وسدّ بابه . فلمّا عُوتِب على ذلك قال : دلّنا العلم في الاول ثم كاد يضلّنا في الثاني . فهجرناه لوجه مَن وصلناه وكرهناه من اجل ما اردناه (٢) » .

---

(١) معجم البلدان : لياقوت الرومي : مجلد ٧ صفحة ٢٠٠

(٢) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١٥ صفحة ٢١

الفصل العاشر

احراق بعض المسلمين مكتباتهم

١ ـ احراق ابي عمرو بن العلاء كتبه

قال ابن عساكر في الكنى من التاريخ أن ابا عمرو بن العلاء المتوفى في السنة ١٥٤ للهجرة (٧٧٠ م) كان اعلم الناس بالقرآن والعربية . وكانت دفاتره ملء بيت الى السقف . ثم تنسّك واحرقها .

٢ ـ احراق كتب ابي حيان التوحيدي

لم يكن عليّ ابو حيّان التوحيدي أشفق من ابي عمرو بن العلاء على كتبه . فانه احرقها في آخر عمره لقلة جدواها ضنّاً بها على من لا يعرف قدرها . فعذله القاضي ابو سهل لائماً اياه على ذلك . فاعتذر ابو حيّان التوحيدي عمّا فعل وأرسل الى ابي سهل جواباً طويلاً . ولعلّ الكتب الباقية من تصانيفه الكثيرة كتبت في حياته وخرجت عنه قبل حرقها . وحلّت وفاة ابي حيّان في الريّ في حدود الثمانين والثلاثمائة للهجرة (٩٩٠ م) (١) . ومن بقايا تلك الكتب نذكر مخطوطاً محفوظاً الى يومنا هذا في مكتبة الفاتح بالاستانة عنوانه « بصائر القدماء وبشائر الحكماء » في مجلدين صغيرين .

---

(١) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي : صفحة ٣٤٩

٣ - احراق مكتبة ابن لهيعة في مصر

وفي السنة ١٦٩ للهجرة (٧٨٥ م) احترقت دار عبدالله بن لهيعة قاضي الديار المصرية واحترقت معها كتبه . ومن الغد بعث اليه الليث بن الفضل البيوردي امير مصر بألف دينار تعويضاً عن تلك الخسارة (١) .

٤ - احراق مكتبة ابن الجعابي في بغداد

كان ابن الجعابي (٢٨٤ - ٣٥٥ هـ) يملك في بغداد مكتبة غنية بالأسفار النفيسة وفيها ما لا يقل عن مائتيَ الف حديث . فأوصى بأن تُحرق كتبه فاحرقها بيده حتى ما بقي منها شيء ومات من ليلته . وقد اخبر الدارقطنيّ انه كان حينذاك في بيت الجعابيّ وشهد الحريق بعينه . وكان لدى ابن الجعابيّ كتبٌ للناس في جملتها مائة وخمسون جزءاً للحسين بن البواب فذهبت كلها في الحريق (٢) .

٥ - احراق الداراني كتبه في تنور

ممّن احرق كتبه في الزمان الغابر ابو سليمان الدارانيّ . فانه جمعها في تنّور وسجرها بالنار . ثمّ خاطبها قائلاً : « واللهِ ما أحرقتُكِ حتى كدتُ أحترق بكِ ! » (٣) .

٦ - وصية السيرافي لولده باحراق كتبه

لمّا دنا أجل ابي سعيد السيرافيّ سيّد العلماء استدعى ابنه محمّداً وبلّغه هذه الوصيّة : « قد تركتُ لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل . فاذا رأيتَها تخونُك فاجعلها طعمةً للنار » (٤) .

---

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ١ صفحة ٢٢٠ (٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ١٣٠-١٣٣
(٣) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ٢٢ (٤) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ٢٢

الفصل الحادي عشر

اغراق مكتبات خاصة في انحاء مختلفة

١ ـ غرق كتب ابي الحسن السمسماني ببغداد

كان ابو الحسن عليّ بن عبدالله بن عبد الغفّار السمسمانيّ من اساطين علماء اللغة في عصره. ذكره الخطيب ابو زكريا يحيي التبريزيّ في تاريخه فأثبت انه كتب كثيراً وخطّه في غاية الاتقان والصحّة . وتصّدر السمسماني في بغداد للرواية وأقرأ الادب ونسخ معظم كتبه بخط يده . ثم انتقلت تلك الكتب بعد وفاته سنة ٤١٥ للهجرة الى ابن دينار الواسطيّ وادركها الغرق ففسد اكثرها (١) .

٢ ـ اغراق كتب ابي العباس الانصاري وحرقها في غرناطة

يُروى عن ابي العباس الانصاري الخزرجي (٤٩٢ ـ ٥٦٩ ﻫ) انه جمع خزانة حافلة بالمخطوطات ضمّ اليها ما نسخه هو بخطه الجميل. وقد توالت الآفات على كتبه غرقاً ونهباً وحرقاً. ولا سيما في اثناء إقامتـه بالاندلس وحين تولّيه خزانة كتب السلطان ابي يعقوب عبد المؤمن في مراكش (٢) .

---

(١) فوات الوفيات : جزء ١ صفحة ٢٣ ؛

(٢) طالع ترجمته بين خزنة دور الكتب : صفحة ٦٩١ و ٦٩٢ من هذا الكتاب

٣ ـ طرح كتب المبشر بن فاتك في حوض داره ،

كان للمبشر بن فاتك أحد امراء مصر كما سبق الكلام مكتبة خطيرة يقضي فيها اكثر اوقاته لشدّة شغفه بالمطالعة . فلما توفي قصدت زوجته الى خزائن الكتب ترافقها بعض الجواري وفي فؤادها لوعة من تلك المخطوطات التي كانت تشغله عنها مدة حياته . وطفقت تبكيه بكاءً شديداً وتطرح مخطوطاته هي وجواريها ساخطات في حوض ماء متّسع . فأتلفن أغلبها غير مكترثات لقيمتها .

٤ ـ طرح كتب عبد الصمد التستري في نهر قارون

وكان للسيد عبد الصمد التستري خزانة كتب انتقلت اليه بالارث عن والده السيد احمد . كانت تشتمل على سبعة آلاف مجلد جلّها من المخطوطات المذهبة . وقد نهبت في اثناء النكبة التي لحقت بصاحبها من اهل تستر. وألقي بعضها في نهر قارون (١) .

٥ ـ طرح كتب عبد الله بن احمد في حوض ماء

أثبت الامام مسلم بن ابرهيم قاضي صنعاء اليمن ان عبدالله بن احمد صنّف كتاباً في الحديث جمع فيه بين الكتب الخمسة الصحاح . وعندما حضرته الوفاة اوصى بطرح كتابه هذا في حوض ماء .

---

(١) مجلة العرفان : مجلد ٧ صفحة ٤٧١

الفصل الثاني عشر

رزايا مكتبات بغداد والبصرة

١ ـ احراق خزانة كتب ابي جعفر الطوسي في كرخ بغداد

لما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنّة في بغداد عام ٤٤٨ للهجرة لم يسلم فقيه الامامية محمد ابو جعفر الطوسي من غوائلها ورزاياها . فاحترقت كتبه وداره في باب الكرخ وعلى اثر ذلك انتقل من بغداد الى النجف الاشرف وسكنه . وبقي يدرّس هناك الى ان توفي سنة ٤٦٠ للهجرة. وقد ورد في «الروضات» خبر احتراق كرسيه ايضاً وهو الذي اعطاهُ اياه الخلفاء العباسيون وكان يجلس فيه للكلام (١).

٢ ـ احراق طغرل بك مكتبة سابور بن اردشير في بغداد

في السنة ٤٥١ للهجرة احترقت بغداد الكرخ واحترقت فيها خزانة الكتب التي سبق فوقفها سابور بن اردشير ونُهِب بعض كتبها. وجاء عميد الملك الكندري فاختار من تلك الكتب خيرها . وكان بها عشرة آلاف مجلد واربعمائة مجلد من اصناف العلوم منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة. وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق المذكور . فابعدهم عميد الملك وقعد يختار ما اعجبه منها فنُسِب ذلك الى سوء سيرته وفساد اختياره . وشتّان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمّر المدارس ودوّن العلم في بلاد الاسلام جميعها ووقف الكتب وغيرها (٢)

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١٥٤٨

(٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ٣

٣ ـ احراق بني عامر داري كتب في البصرة

وفي السنة ٤٨٣ للهجرة حشد امير بني عامر ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل من العرب فهجموا على مدينة البصرة وملكوها . ثم نهبوا ما فيها نهباً شنيعاً واحرقوا مواضع شتى . وفي جملة ما احرقوا داران للكتب : احداهما وُقفت قبل ايام عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ للهجرة. فقال عضد الدولة : «هذه مكرمة سُبِقْنا اليها وهي اول دار وقِفَت في الاسلام» . اما الدار الثانية فقد وقفها ابو منصور بن شاه مردان وكان بها نفائس الكتب واعيانها (١) .

٤ ـ نهب العرب خزانة كتب القاضي ابي الفرج بالبصرة

وفي اواخر ذي القعدة سنة ٤٩٩ للهجرة اجتمع آل ربيعة والمنتفق ومن انضم اليهم من العرب وقصدوا الى البصرة في جمع كثير . فدخلوها بالسيف واحرقوا الاسواق والدور الحسان ونهبوا ما قدروا عليه . ولبثوا على هذه الحال ينهبون ويحرقون مدة اثنين وثلاثين يوماً . ومما نهبوه خزانة كتب كان وقفها القاضي ابو الفرج ابن ابي البقاء . وبلغ الخبر صدقة فارسل عسكراً فوصلوا وقد فارقتها العرب . ثم ان السلطان محمد ارسل شحنة وعميداً الى البصرة واخذها من صدقة. وعاد اهلها وشرعوا في عمارتها (٢) .

---

(١) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ٧٥

(٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ١٧٢

الفصل الثالث عشر

تقويض الحاكم بامر الله معابد النصارى واليهود

١ ـ ابعاد النصارى واليهود عن مصر والعيث في معابدهم ومخطوطاتهم وكنوزهم وتدميره مكتباتهم

ولمّا اصيب الحاكم بامر الله بتغيير في عقله حمل سنة ٤٠٣ للهجرة (١٠١٢ م) على اليهود والنصارى واضطهدهم . والزمهم ان يحملوا على ثيابهم علامة تميزهم من المسلمين (١) واخرجهم من مصر الى بلاد الروم. ثم امر بهدم الكنائس والاديار واخذ جميع ما فيها وما لها . وناهيك ما كانت تحويه تلك المعاهد الدينية الكثيرة من نفائس الذخائر ونوادر الرقوق والمخطوطات التي يعجز القلم عن وصفها فضلًا عن احصائها . وقد اندثرت عن بكرة ابيها ضحية الجنون . فبقيت مدفونة في جوف الارض وُحرم الباحثون الانتفاع بها الى ما شاء الله .

٢ ـ هدم ثلاثين الف بيعة والاستيلاء على اوقافها

قال المقريزي في هذا الصدد (٢) ما نصّه : « ذكر من يوثق به ان الذي ُهدِمَ الى آخر هذه السنة (٤٠٥ للهجرة ١٠١٤ للميلاد) بمصر والشام واعمالها من الهياكل التي بناها الروم نيف وثلاثون الف بيعة . ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة وقبض على اوقافها وكانت اوقافاً جليلة على مبان عجيبة (٣) » .

---

(١) تاريخ مصر الحديث لزيدان : مجلد ١ صفحة ٢٥٩ و ٢٦٠

(٢) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : تاليف حبيب زيات : صفحة ٧ و ٨

(٣) خطط المقريزي مجلد ٢ صفحة ٤٩٦

الفصل الرابع عشر

اتلاف مكتبتي المستنصر الفاطمي وقصر الفاطميين في القاهرة

١ - اتخاذ العربان رقوق كتب المستنصر احذية لارجلهم

في السنة ٤٦٠ للهجرة ثار الاتراك على المستنصر بن الظاهر الفاطمي بمصر فنهبوا مكتبته وكان فيها نحو العشرين الف مجلد مخطوط . فاقتسموها بينهم الا جانباً منها كان خاصاً بابن المحترق حاكم الاسكندرية فأرسل اليه . فلمّا وصلت احمال هذه الكتب الى ابيار سطا عليها عربان قبيلة لواتة فاحرقوا قسماً منها واصطنعوا من جلودها احذية لهم . ثم تركوا القسم الآخر آكاماً على الرمال فغطتها الرمال حتى اصبحت تلاً عظيماً يعرف بتلّ الكتب (١) .

٢ - رواية الجبرتي عن احتراق تل الكتب في الحطابة

قرأنا مقالةً عنوانها « تاريخ دور الكتب في الشرق » بقلم السيد محمد علي البيلاوي نقيب السادة الاشراف بالديار المصرية جاء فيها عن تل الكتب (٢) المشار اليه ما حكايتُه : « ذكر الجبرتيّ في حوادث سنة ١٢٢٥ للهجرة انه ظهر بالتلّ الكائن خارج راس الصوّة المعروفة الآن بالحطابة قبالة الباب المعروف بباب الوزير في وهدةٍ بين التلول نارٌ كامنة بداخل الاتربة . واشتهر أمرها وشاع ذكرها وزاد

---

(١) تاريخ مصر الحديث : مجلد ١ صفحة ٢٧٤
(٢) مطبعة المعارف واصدقاؤها : صفحة ٢٨

ظهورها في اواخر هذه السنة سنة ١٢٢٥ وكثر تردّد الناس عليها افواجاً رجالاً ونساءً . وبلغ خبرُها كتخدا بك فنزل اليها بجمع من الاكابر . وأمر والي الشرطة بصب الماء عليها وإهالة الاتربة من اعالي التلّ فوقها . ففعل ذلك . واستمر الناس يغدون ويروحون ينظرونها نحو شهرين . فلا يبعدُ ان يكون هذا من تلال الكتب التي ذكرها المقريزي في خططه » .

٣ ـ بيع مخطوطات قيمتها مائة الف دينار لوفاء خمسة آلاف دينار

من الخسائر الفادحة التي لحقت بدور الكتب طمعاً او جشعاً ما رواه المقريزي عن مؤلف كتاب « الذخائر » الذي زار مكتبة قصر الفاطميين في القاهرة قال : « وكنت بمصر في الفسطاط في العُشر الاوّل من المحرّم سنة احدى وستين واربعمائة . فرأيت فيها خمسة وعشرين جملًا موقرةً كتباً مرسلة الى دار الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر المغربي . فسألتُ عنها فعرفتُ ان الوزير اخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين عمّا يستحقانه وغلمانهما . واستطرد بعض من شاهد ذلك بنفسه فقال : ان الكتب التي نُقلت الى دار الوزير ابي الفرج وفاءَ خمسة آلاف دينار بلغت قيمتها اكثر من مائة الف دينار » (١) .

٤ ـ عبث صلاح الدين بمكتبة الفاطميين وكنوزهم

مرّ بنا الكلام في الفصل الثاني والعشرين من الباب الثالث عن خزانة كتب الفاطميين في القاهرة . فانها كانت من عجائب الدنيا اذ لم يكُ في جميع بلاد الاسلام دار كتب اعظم منها . فصدر امر السلطان صلاح الدين الايوبي ببيعها مع جميع كنوز القصر . واستمرّ البيع مدة عشرة اعوامٍ متوالية (٢) .

---

(١) الفاطميون في مصر : صفحة ١٣٩

(٢) البصائر : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٣

الفصل الخامس عشر

احراق مكتبة سيف الدولة وانتهاب الخزانة الصوفية بحلب

روى بعض المؤرخين ان نيقفور الثاني فوكاس قيصر الروم (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ما كاد يتسلم زمام السلطنـــة في بيزنطيا حتى أعلن حرباً عواناً على سيف الدولة الحمداني (٣٠٣ - ٣٥٦ هـ) لينتقم منه . فأغار بخيله ورجله على حلب عاصمته ودكّ قصورها وأحرق جوامعها وكتبها (١) .

غير ان بني حمدان ما لبثوا ان جدّدوا مكتبة سليلهم سيف الدولة وعزّزوها حتى أربى عدد مجلداتها على عشرة آلاف مخطوط . وفي السنة ٤٦٠ للهجرة احترقت تلك الخزانة الجديدة . والسبب في ذلك ان خازنها ثابت بن أسلم ألّف كتاباً في كشف عوار الاسمعيليّة وابتداء دعوتهم . فغضب عليه اهل هذه الشيعة وقالوا انه يفسد دعوتهم . فسعوا في ان يصلب فصلب واحرقوا خزانة الكتب كما سبق القول (٢) . وفي ايام ابو العلاء المعريّ (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) كانت «خزانة الصوفية» بحلب حافلة بالمخطوطات . فنهبت على اثر فتنة بين اهل السنة والشيعة في بعض ايام عاشورا (٣) . وعلى هذا المنوال دمرت مكتبة الري في بلاد فارس وقد ذكر ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة تلك الخزانة الصوفية في قصيدته اليائيـة التي كتبها من القسطنطينية يداعب احد اصدقائه فيها قال :

ابلغ ابا حسن السلام وقل له ... هذا الجفـاء عداوة الشيعية

فلأطرفنّ بما صنعت مكابراً ... وابث ما لاقيت منك شكية

ولأجلسنّكَ للقضيّـــةِ بيننا ... في يوم عاشوراء بالشرقيـة

حتى اثيرَ عليكَ فيها فتنـــةً ... تنسيكَ يومَ «خزانة الصوفية»

---

(١) كتاب «سيف الدولة وعصر الحمدانيين» بقلم سامي الكيالي : صفحة ١٥٦ طالع ايضاً ابن مسكويه

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ١٩٨

(٣) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ١٩٨ وخطط الشام لمحمد كرد علي : مجلد ٦ صفحة ١٩١

الفصل السادس عشر

نكبات مكتبة الجامع الاموي وبعض مكاتب دمشق

في السنة ٤٦١ للهجرة اصيب الجامع الاموي بدمشق بحريق هائل دثر محاسنه وماكان به من الكتب والمصاحف . وربما حُرق فيه المصحف العثماني القديم (١) وسبب ذلك فتنة وقعت بين المغاربة والمشارقة فضُربت دار مجاورة للجامع بالنار. فاتصلت النار بالجامع وعجز الناس عن إطفائها (٢)

وبعد ترميم الجامع واصلاحه احترق مرّة ثانية سنة ١٣٣٩ مسيحية (٧٤٠ هـ) وأتهم النصارى بهذا الحريق. فنُقضت مأذنة عيسى وُجدّدت من اموالهم . وامتدّ الحريق حين ذاك الى الابنيــة المجاورة للجامع فأتلف سوق اللبّادين وسوق الورّاقين (٣). ثم اتّصل الحريق بالجامع مرّة ثالثة سنة ١٣٩٣ مسيحية (٧٦٥ هـ) فاتلف قسماً من شرق الجامع ثم رمّم ما اتلف . ثم أحرق مرّة رابعة سنة ١٤٠١ مسيحيــة (٨٠٣ هـ) عند قدوم تيمورلنك وتلفت خزانةُ الكتب والمصاحف . فاعيد سنة ١٤٠٣ مسيحية (٨٠٥ هـ) الى قريب ممّا كان عليه. ثم احترق الجامع مرّة خامسة سنة ١٤٧٩ مسيحية (٨٨٤ هـ) واعيد بنيانه (٤) .

وفي ١٤ تشرين الاول سنة ١٨٩٣ نُكب الجامع كما نُكب سابقاً بحريق هائل

---

(١) خطط الشام لمحمد كرد علي : مجلد ٦ صفحة ١٩٧

(٢) المختصر في اخبار البشر لابي الفدا : جزء ٢ صفحة ١٨٦

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧

(٤) آثار النصرانية في البلاد الشامية بقلم الخوري عيسى اسعد : جزء ١ صفحة ٩٢

التهم شيئاً كثيراً من نوادر الصكوك ونفائس المخطوطات . وكان اهمها مخزوناً في كنيسة يوحنا المعمدان التي حولها عبد الملك بن مروان الاموي الى جامع ولم يمسها المسلمون عند فتحهم المدينة (١) . وبتوالي الاحقاب اضيف الى تلك المخطوطات النصرانية مخطوطات اسلامية مهمة حفظ بعضها عند ضريح النبي يحيى . ولم يسلم من تلك البقايا الثمينة بعد الحريق الا قسم كان قد نُقل من بيت الخطابة الى قبة الملك الظاهر في عهد الوالي مدحت باشا . وقسم آخر كان مصوناً في قبة المال . وتُشاهَد هذه القبة عن يسار الداخل الى الجامع الاموي من باب البريد .

ويُروى عن عبد الله البصروي من علماء القرن الثاني عشر للهجرة انه صنّف كتاباً في تاريخ البلاد الشامية فبلغ اعيان دمشق خبره . ولما مات المؤلف دخلوا داره وآلوا ان لا يأذنوا بدفنه الا بعد ان يأخذوا التاريخ الذي وضعه . فضبطوه واحرقوه على اعين القوم مخافة ان تنكشف سيئات بعضهم (٢) .

وفي اواخر القرن التاسع عشر احرقت في دمشق مكتبة العلامة الشيخ بدر الدين الحسني والد الشيخ تاج الدين الحسني رئيس الحكومة السورية سابقاً . ومن هذا القبيل ايضاً انه لما نشب الحريق في سوق الحميدية بدمشق اندلع لسان اللهب الى خزانة مخطوطات آل الاسطواني فاتلفت قسماً منها (٣) .

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٢٦٤

(٢) خطط الشام : جزء ١ صفحة ٨

(٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٢٠٤

الفصل السابع عشر

اتلاف بعض المكتبات في الغزوات الصليبية

١ ـ احراق المصاحف في محراب داود بالقدس

روى ابن ميسر في تاريخه ان الافرنج حاصروا بيت المقدس في رجب سنة ٤٩٢ وكانوا قد ملكوا الرملة . فخرج اليهم الافضل في عساكره . فلما بلغ الفرنج خروجه جدّوا في حصار بيت المقدس حتى ملكوه فهدموا المساجد وقبر الخليل وقتلوا اهل البلد جميعهم الا اليسير . وانحازت طائفة الى محراب داود عليه السلام واحرقوا المصاحف واخذوا من الصخرة ما لا ينحصر من قناديل الفضّة والذهب والآلات (١) .

٢ ـ نكبة مكتبة طرابلس

في السنة ٥٠٣ للهجرة (١١١٠ م) نكب العلم بضياع مكتبة طرابلس الشهيرة على اثر استيلاء الصليبيين على هذه المدينة . وللمؤرخين مذاهب مختلفة في هذه القضية حللها العلامة احمد زكي باشا في احدى محاضراته بالجامعة المصرية قال (٢) :

---

(١) تاريخ ابن ميسر : صفحة ٤٦٣
(٢) كتاب الحضارة الاسلامية : صفحة ٥٣ و ٥٤

« روى مؤرخ من مؤرخي العرب انه حينما وقعت هذه المدينة في ايدي الصليبيين في سنة ٥٠٣ هـ دخل قسيس هذه الخزانة فصادف ان اول غرفة دخلها كانت تحتوي على المصاحف فوضع يده على ٢٠ نسخة منه بالتوالي . واذ وجدها جميعها مصاحف اعلن ان هذه الدار لا تحتوي الا على كتب مخالفة للحق . وبناء على هذا الحكم احرقها الفرنج فصارت رماداً ولم ينجُ من الحريق الا عدد قليل من الاجزاء تفرقت شذر مذر في كثير من البلاد . وقد رويت هذه الحادثة كما ذكرها المؤرخون الشرقيون . ولكن اذا لم نقل ان حادثة الحريق مخترعة فمن الجائز ان نفرض على الاقل انها محرّفة او مبالغ فيها بسبب العصبية القومية . وذلك لان المسلمين قد اتهموهم احياناً باحراق خزانة الاسكندرية . ولا شك ان ضمائرهم ترتاح لايقاع تهمة من هذا النوع على عاتق النصارى كذلك .

« هذه هي عبارة المسيو كاترمير (١) برمتها وهو من الباحثين الدققين . ولا يمكن ان يدخل تحت وصف المعترض الذي ربما لا يقتنع كثيراً بما يرويه العرب المحققون . لان فيهم قوماً أَلِفوا المبالغة فرماهم جميعاً بجريرة افراد منهم . وانت ترى ان كاترمير لم يخالجه ادنى شك في تقدير العدد وانما انتقد الخبر المتعلق باحراق الكتب. ولما كان هذا الخبر محلاً للشك فقد اهملته بالمرة وان كان الاستاذ جرجي يني صاحب تاريخ سورية قد أشار اليه وتأسف عليه .

« وهذه الارقام ذكرها رجل من ثقات الانكليز واكبر بحاثيهم في امور المشرق . وهو العلامة جيبون في تاريخ الدولة الرومانية (جزء ثانٍ صفحة ٥٠٥) وقال ان الفرنج احرقوها . اما ابن خلكان فقال انهم انتهبوها في السنة ٥٠٢ هـ ومثله ابن الاثير . وكلاهما قرّرا بان عددها مما لا يُعدّ ولا يُحصى » .

---

(١) كان كاترمير Quatremère من علماء الاستشراق في فرنسا (١٧٨٢ - ١٨٥٧) ومن بعض تآليفه نبذة في مجموعته المطبوعة سنة ١٨٦٢ في باريس عنوانها « محبة الشرقيين للكتب »

٣ ـ احراق الصليبيين كتب الروم في قسطنطينية

لما قام الصليبيون بتجريدتهم الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤ م) واحتلوّا القسطنطينية ارتكب جنودهم فظائع شتى من قتل ونهب واضطهاد. هذا عدا الكتب الكثيرة النادرة والمؤلفات القديمة والحديثة التي أتلفت في حرائق المدينة ولا يمكن ان تعوّض (١). ونهب اولئك الجنود ايضاً صلبان الكنائس وامتعتها وجميع ما كان ملطوخاً على ظهر الاناجيل من الفضّة والذهب (٢).

---

(١) تاريخ الانشقاق : بقلم المطران جراسيموس مسرة : جزء ٢ صفحة ٢٣١

(٢) الحروب الصليبية في الآثار السريانية : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٢٠٤

الفصل الثامن عشر

احراق مصاحف جامع اصبهان ومكتبات اردشير وغزنة وخراسان وبخارا ونيسابور والنجف وغيرها

روى سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» ما نصّه : «سنة ٥١٥ للهجرة (١١٢١ م) احترق جامع اصبهان واحترق فيه خمسمائة مصحف عليها صفائح الذهب والفضة . ومن جملتها مصحف بخط أُبَيّ بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي. وكان ابي بن كعب قبل الاسلام حبراً من احبار اليهود . وقد امره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه » (١) .

ولما احتل ابو سهل الحمدونيّ مدينة اصبهان نهب خزائن علاء الدولة ابي جعفر بن كاكويه . فحملت كتبه الى غزنة ولم تلبث ان التهمتها النيران كما سيأتي الكلام (٢) .

وفي السنة ٤٥١ للهجرة احترقت مكتبة اردشير ببلاد فارس . وكانت تحوي يوم احتراقها عشرة آلاف واربعمائة مخطوط . وفي السنة ٥٤٧ للهجرة (١١٥٢ م) خرب مسجد عقيل الذي كان مجمعاً لاهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة . ونُهب عدةٌ من خزائن الكتب في المدارس التي خربت .

وفي السنة ٥٤٨ للهجرة (١١٥٣ م) امر السلطان محمود الغزنويّ باحراق « كل

---

(١) الاعلام : لخير الدين الزركلي : صفحة ٢٨

(٢) تاريخ ابن خلدون : جزء ٤ صفحة ٤٨٥

ما كان في علم الكلام »(١) . فضلًا عن كتبٍ أعلِنَت الريبة في صحة تعليمها اعني بها كتب « الروافض واهل البدع » . وبعد سنتين احرق جنود الامير حسين مكتبة غزنة في افغانستان عندما احرقوا هذه المدينة .

ومن أفظع فظائع المكتبات ما حلّ بخراسان ونيسابور اثناء فتنة المغول . فان تولي خان رابع ابناء جنكزخان الطاغيــة أغار على هاتَين المدينتَين وقوّض ابنيتها وآثارهما الجميلة (٢) .

وأحرق جنكزخان (١١٦٢ - ١٢٢٧ م) وابنه تولي المار ذكره من المكتبات في بخارا وغيرها من مدائن العلم في بلاد فارس ما لا يُستطاع احصاؤه (٣) .

وفي السنة ٧٥٥ للهجرة احترق جامع النجف الاشرف وفيه قبر الامام علي بن ابي طالب. واحترقت معه كنوز الجامع الفاخرة ومكتبته العامرة التي كانت منهلًا لروّاد العلم ومركزاً خطيراً من مراكز الثقافة الاسلامية (٤) .

---

(١) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٣١٥

(٢) مجلة « لغة العرب » للاب انستاس الكرملي في بغداد : مجلد ٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٦٦٢ وراجع ايضاً ما سطرناه عن خزائن كتب نيسابور في الفصل الثامن عشر من الباب الثالث رقم ٤

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جلد ٣ صفحة ١١٣

(٤) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١٥٤٩

الفصل التاسع عشر

انقضاض الصاعقة على مكتبة المسجد الحرام بمكة

في الثلث الاخير من ليلة ١٣ رمضان سنة ٨٨٦ للهجرة صعد رئيس المؤذنين الشيخ شمس الدين محمد بن الخطيب في المأذنة الشرقية اليمانية القائمة على ركن المسجد النبويّ . واخذ يذكر ويمجد كعادته وكانت السماء حين ذاك متلبدة بالغيوم متوارية النجوم . وفي اقل من لمح البصر قصف رعدٌ هائلٌ وانقضّت صاعقة تتأجج ناراً أصاب بعض شظاياها هلال المئذنة . فانشقّ رأسها وانهار باقيها على سطح الحرم فعلقت به النيران . ثم اندلع الحريق وامتد الى سائر نواحي الحرم والى القبة العليا فوق الحجرة النبوية فذاب رصاصُها ولم تصل النار الى جوف الحجرة. وعند ذاك هب اهل المرؤة ينادون بالحريق طالبين النجدة. فسارع امير المؤمنين السيد قسطل بن زهير الجمالي وشيخ الحرم والقضاة وخاصة القوم وعامتهم. وتسلق اهل القوة والفتوة الى سطح المسجد حاملين المياه في القِرَب وجعلوا يسكبونها على النار . لكنهم عجزوا عن اطفائها فلاذوا بالفرار بعد ان مات منهم اكثر من عشرة رجال تغلبت عليهم النيران واحاطت بالحرم من جميع أطرافه فالتهمته واحرقت ما فيه من المصاحف والربعات وخزائن الكتب . وكانت كتباً نفيسة ومصاحف عظيمة (١) .

---

(١) تاريخ مكة تاليف قطب الدين الحنفي : صفحة ١٠٥

الفصل العشرون

احراق اسمعيل شاه مصاحف اهل السنة وكتبهم

ما كاد يعتلي عرش الملك اسمعيل شاه الاول (١٤٨٥-١٥٢٣ م) مؤسس الدولة الصفوّية في بلاد فارس حتى نشّم يثئر من قاتلي ابيــه وجدّه . فأخذ يجيّش الجيوش ويدوّخ البلدان ويتابع فتوحاته حتى ملك تبريز واذربيجان وخراسان والعراقين العربيّ والفارسيّ واوشك ان يدّعي الربوبية . فقتل خلقاً ينوف على الف الف (مليون) نسمة . ولا ُيعهد في الاسلام ولا في الجاهلية ولا في الامم الغابرة من اقترف مثل هذه الفظائع كاسمعيل شاه . ولم يكتف هذا الطاغية بذلك كله بل استاقه الجور والعتوّ ففتك باعاظم علماء فارس ولم ينجُ احد منهم بعد تلك الكارثة . ثم احرق مصاحفهم وجميع كتبهم تشفّياً لكونها مصاحف اهل السنّة . وكان كلما مرّ بقبور مشايخهم نبشها واخرج عظامهم واحرقها . وكان اذا قتل اميراً من الامراء استباح زوجته وامواله وجعلها حلالاً لشخص آخر (١) .

---

(١) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : صفحة ١٢٦ وعنوان المجد في تاريخ نجد : تاليف عثمان بن عبد الله بن بشر : صفحة ٢٥

الفصل الحادي والعشرون

اجتراف السيول عدة مكتبات واتلافها

١ - اجتراف كتب ابن الدهان ببغداد

كان سعيد ابن الدهان النحويّ البغداديّ (٤٩٤ - ٥٦٩ هـ) سيبَوْيه عصره. وانشأ في النحو تصانيف مفيدة نضرب صفحاً عن ذكرها لشهرتها ووفرتها. وانتقل ابن الدهان من بغداد مسقط رأسه الى الموصل قاصداً الوزير جمال الدين الاصبهاني المعروف بالجوّاد. فتلقاه الوزير بالترحاب واحسن اليه وعاش ابن الدهان مدة في كنفه.

وكان لابن الدهان خزائن كتب كثيرة افنى عمره في جمعها واقتنائها. واتفق انه على اثر وصوله الى الموصل فاضت مياه دجلة واغرقت بغداد. وكانت كتبه باقية فيها فسيّرَ من يحضرها اليه. وكان وراء داره مدبغة غمرتها السيول وتسرّبت منها الى دار ابن الدهان فعاثت فيها وفي خزائن كتبه معاً. فلمّا حُملت اليه الكتب على تلك الصورة اشاروا عليه بان يطيّبها بالبخور ويصلح منها ما يمكن اصلاحه. فبخّرها باللاذن وبلغ ما انفقه عليها من هذا البخور اكثر من ثلاثين رطلاً. فتصاعد بخار اللاذن الى رأسه وعينيه واحدث له العمى (١). ولا غروَ فان خزانة كتب ابن الدهان كانت من احفل الخزائن الخاصة في عصره

---

(١) ابن خلكان: مجلد ١ صفحة ٢٦١-٢٦٢

بدليل احتياجها الى تلك الكمية الوافرة من اللاذن لاجل تبخيرها . ومن شعر ابن الدهان هذان البيتان (١) :

بالكتب لا تحسبنْ أنْ مثلنا ستصيرُ
فللدّجاجةِ ريشٌ لكنّها لا تطيرُ

٢ ـ احتراق كتب المسجد الحرام بمكة

في السنة ١٠٥٥ للهجرة وقع في مكة سيل عرمرم لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه المدينة . فدمّر ابنيتها ودخل المسجد الحرام وأتلف ما في قبّة الفرّاشين من المصاحف والرباع والكتب (٢) . فكانت الخسارة جسيمة على العلم في تلك النكبة الفادحة .

٣ ـ احتراق مكتبة دير الربان هرمزد بجوار الموصل

بالقرب من الموصل دير قديم للكلدان يُسمّى دير الربّان هرمزد كان يشتمل على مكتبة ثمينة حوت مئات من المخطوطات القديمة المكتوبة على رقّ . فحلّت بها نكبات شتى ولا سيما عام ١٨٤٤ اذ خرّب الاكراد الدير المذكور وأعملوا السيف في رهبانه . فاستطاع الرهبان ان يهرّبوا نحو خمسمائه مخطوطة اودعوها قبواً قديماً مجاوراً للدير . غير ان مطراً غزيراً سقط من اعالي الجبل فاجتاحت سيوله القبو والكتب معاً ودفعتها الى قعر الوادي حيث تلفت على بكرة ابيها . ولم يُعثَر لها بعد ذلك على اثر (٣) .

---

(١) نكات الهميان : صفحة ١٥٨

(٢) خلاصة الاثر : جزء ٢ صفحة ١٧٨

(٣) اثر قديم في العراق لمؤلفه كوركيس حنا عواد : صفحة ٥٠-٥٤

الفصل الثاني والعشرون

احراق ابن الآبار البلنسي واحراق كتبه معه

كان ابن الآبار (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ) من كبار الشعراء والمؤرخين في عصره. وكان حافظاً حسن الخط. رشحه سلطان تونس لكتابة علامته في صدر مراسلاته فنهض ابن الآبار بذلك مدة من الزمان. ثم عهد السلطان في هذه المهمة الى ابي العباس الغساني فاخذ يكتب له بالخط المشرقي وهو افضل لدى السلطان من الخط المغربي. فشق ذلك على ابن الآبار لايثار غيره عليه فعوتب على ذلك. فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وانشد متمثلاً :

اطلب العز في لظى وذَرِ الذلَّ ولو كان في جنان الخلود

فلما نمي الخبر الى السلطان امره ان يلزم بيته. ثم ما لبث ابن الآبار ان استعتب السلطان بتأليف كتاب رفعه اليه سماه «اعتاب الكتاب» وضمنه اخبار مَن عُوتب منهم واستشفع بابنه المستنصر. فغفر له السلطان واقال عثرته واعاده الى الكتابة. ولما مات السلطان دعاه امير المؤمنين المستنصر الى حضور مجلسه. ثم حصل بينهما نزاع كانت عاقبته وخيمة على ابن الآبار. فان السلطان امر بالقاء القبض عليه وبعث الى داره مَن نقل اليه كتبه واوراقه باجمعها. فالقى بينها فيما زعموا قرطاساً يشتمل على ابيات افتتحها بقوله :

طغى بتونس خَلَفٌ سموه ظلماً خليفة

فاغتاظ السلطان على ابن الآبار وامر بامتحانه ثم بقتله . فقُتل قعصاً بالرماح في منتصف محرم سنة ٦٥٨ للهجرة ثم أحرق شلوه . وحملت مجلدات كتبه واوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه (١) .

وكان ابن الآبار قد شعر بما سيؤول اليه حاله فجاشت نفسه ونطق بهذين البيتين:

اذا ما رأيتَ الرسوم انمحت ولم يُوعَ حقٌ لذي منصبِ
فخذ في التحوّل عن تونسٍ واترك معالمهـا واهرب

(١) نفح الطيب : جزء ١ صفحة ٦٢١-٦٢٢

الفصل الثالث والعشرون

اكتساح المغول مكتبات ما بين النهرين والعراق وسوريا وتركستان والهند

١ ـ انقضاض يساور التتري على مكتبات ملطية

أبى الدهر الا محاربة الكتب والمكاتب فسلط عليها في كل عصرٍ اقواماً طغاة استباحوا محارمَها وقوّضوا معالِمَها . ولولا المغول او التتر الذين فاجأوا الدول العربية كالسيل العرم في القرن السابع للهجرة لَسَلِمَتْ من كنوزها العلمية بقيّة تُذكر . ومن أقدم الطغاة التتر الذين اورد التاريخ اخبار فظائعهم كان قائدهم « يساور » الذي انقضّ في تموز السنة ١٢٥٢ م على ملطيـة وعلى ما جاورها من المدن والدساكر . فابادها وشتت شمل سكانهـا ونهب كل ما فيها (١) . ثمّ حمل على اديارها ومساجدها فأحرقها واحرق معها خزائن الكتب . نذكر منها مكتبة الطبيب اهرون والد المفريان ابي الفرج ابن العبري كما سلف القول في غير هذا الفصل .

٢ ـ اجهاز هولاكو على مكتبات بغداد حرقاً وغرقاً

لمّا زحف التتر الى بغداد بقيادة هولاكو عام ٦٥٦ للهجرة (١٢٥٨ م) لم

(١) تاريخ الدول السرياني : صفحة ٤٩٢-٤٩٣

يشفقوا على خزائن كتبها العامة والخاصة . فاحرقوا جانباً منها وطرحوا بعضها الآخر في نهر دجلة فسدّ مجراه . وزعم بعض المؤرخين ان المغول او التتر فعلوا ذلك انتقاماً مما فعله المسلمون في اول الفتح العربي بكتب الفرس وعلومهم. وادّعى آخرون ان هولاكو ابتنى بتلك الكتب اسطبلات الخيول وطاولات المعالف عوضاً عن الطين . وكان هولاكو يعيث سبعة ايام في مدينة بغداد فاستباحها ووطىء سكانها بالاقدام . ثم اباد خليفتها المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٤ هـ) واستولى على قصور الخلافة وذخائرها (١) .

٣ - قسط مدينة دمشق من مظالم هولاكو وغازان التتريين

ونالت مدينة دمشق قسطها الوافر من مظالم هولاكو وفظائعه . فان هذا الطاغية لما دخلها عام ٦٥٨ للهجرة أحرق طائفة من مكتباتها . ونقل منها جانباً غير يسير الى مكتبة انشأها في مراغة باذربيجان .

وفي السنة ١٣٠٠ للميلاد اغار غازان ملك التتر على دمشق فاحرق الشيء الكثير من كتبها . وقد تفجع علاء الدين الاوتاريّ الدمشقيّ لتلك النكبة الهائلة فنظم فيها قصيدة نقتطف منها ما يلي (٢) :

أحسن الله يا دمشقُ عزاكِ   في مغانيكِ ياعمادَ البلادِ...
طرقَتْهم حوادث الدهر بالقتـل ونهب الاموال والاولادِ
وبنات محجّبات عن الشمس تناءَت بهنّ ايدي الاعادي
وقصور مشيّدات تقضّت   في ذراها الايامُ كالاعيادِ
وبيوت فيها التلاوة والذكرُ وعالي الحديث والاسنادِ
حرقوها وخرّبوها وبادت   بقضاء الله ربّ العبادِ

---

(١) مختصر تواريخ القرون المتوسطة : تاليف القس لويس رحماني : باب ٣ فصل ٨ صفحة ٣٠٣
(٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٣٧٦

٤ ـ تحويل مكتبات سمرقند وبخارا والهند الى رماد

لمّا تولى اباقا شؤون المملكة المغوليّة سنة ٦٦٤ للهجرة (١٢٦٥ م) خلفاً لابيه هولاكو تمادى المغول في تخريب دور العلم في اغلب البلدان الاسلامية. فاحرقوا مدرسة سمرقند ومدرسة مسعود بك في بخارا سنة ٦٧١ للهجرة . وكانت كلتا المدرستين من اعظم مدارس ذلك العصر تشتمل كلّ منهما على مكتبة معتبرة . فالتهمت النيران مخطوطاتهما الوافرة وحولتها الى رماد . ولم تسلم مكتبات الهند ايضاً من الكوارث اذ لم يبقَ منها اثر بعد الفتنة فاحترق بعضها ونهب البعض الآخر . والقليل الذي بقي من كتب الهند بيع بثمن بخس (١) .

٥ ـ حرق مكتبة ابي الفداء في حماة

من الرزايا الفادحة التي نزلت بالعلم احتراق مكتبة ابي الفداء صاحب مدينة حماة سنة ٦٨٧ للهجرة (١٢٨٨ م) . وقد ذهبت فيها طعاماً للنار مخطوطات لا تحصى ولا تقدر بثمن .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٥

الفصل الرابع والعشرون

بيع مكتبة المدرسة الفاضلية بارغفة خبز في اثناء المجاعة بمصر

مما يثير الاشجان ويستنزل الدموع من العيون ما حل من النكبات بالخزانة العظيمة التي اشتراها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (٥٢٩-٥٩٦ هـ) في ايام صلاح الدين الايوبي وحبسها على المدرسة الفاضلية التي انشأها في القاهرة . وكانت هذه الخزانة خاصة بالمارستان العتيق قبل نقلها الى دار العلم التي امر السلطان المشار اليه باتلافها . فاختار منها القاضي الفاضل مائة الف مجلد وزاد عليها كثيراً حتى بلغ مجموع كتبه قبل موته بعشرين سنة مائة واربعة وعشرين الف مجلد . وكان يقتني المخطوطات من كل فن ويجتلبها من كل جهة ولديه نساخ لا يفترون ومجلدون لا يبطلون من العمل . واحتوت تلك الخزانة مصحفاً اشتراه القاضي الفاضل بنيف وثلاثين الف دينار على انه مصحف الخليفة عثمان . وكان هذا المصحف محفوظاً في خزانة مفردة له غربي المحراب . فلما وقع الغلاء بارض مصر في سنة ٦٩٤ للهجرة صار طلبة المدرسة الفاضلية يبيعون كل مجلد برغيف من الخبز سداً لجوعهم. وبقيت من تلك الخزانة بقية تداولتها ايدي الفقهاء بالعارية فتفرقت (١) .

---

(١) احمد زكي باشا : مقالته في المقتطف

الفصل الخامس والعشرون

حريق خزانة الكتب في القاهرة

ذكر المقريزي خبر هذا الحريق في خزانة الكتب فقال ما نصه : « وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة احدى وتسعين وستمائة فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً كان من ذخائر الملوك . فانتهبها الغلمان وبيعت اوراقاً محرقة وظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها واخذوها بابخس الاثمان (١) . فكانت تلك النكبة وبالاً على العلم وذويه .

(١) الخطط المقريزية : جزء ٣ صفحة ٣٤٥

الفصل السادس والعشرون

احراق كتب ابن حزم الاندلسي

اشتهر في القرن السابع للهجرة ابو محمد بن حزم الاندلسي الذي تقلب في المناصب العالية واحرز جاهاً ومالاً جزيلًا . ثم زهد في ذلك كله ومال الى العلم اذ رأى رتبته فوق كل رتبة . وكلف باقتناء الكتب كلفاً شديداً حتى انه حشد منها في منزله قسطاً وافراً .

وكان ابن حزم من أعلم علماء الاندلس واكثرهم تأليفاً . اخذ عليه الفقهاء بعض المآخذ وابلغوا المعتضد بن عبّاد امير اشبيليَة ما ينقمون به عليه . فجمع المعتضد كتبه وأحرقها وفي ذلك يقول ابن حزم :

دعونيَ من احراق رَقٍ وكاغدٍ وقولوا بعلم كي يرى الناسُ من يدري
فانْ تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي تضمنه القرطاس اذ هو في صدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي وينزل إنْ أنزل ويدفن في قبري

ومات ابن حزم سنة ٤٥٦ للهجرة . ويقال انه ألّف نحو اربعمائة مجلد لا نعرف الآن منها سوى واحدٍ او اثنين . وذهب الباقي طعمةً للنار (١) .

---

(١) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ١٤١ وكتاب «حرية الفكر» لسلامه موسى : صفحة ١٠٢ و ١٠٣

الفصل السابع والعشرون

فواجع مكتبات الاندلس والاسكوريال

١ ـ احراق ثمانين الف مخطوط في ساحة غرناطة

على اثر الحرب التي نشبت في الاندلس بين العرب والاسبان وكانت نتيجتها اضمحلال الدولة العربيـة في الغرب توالت المحن على خزائن مخطوطاتها الثمينة التي كانت تحصى بمئات الالوف. فذهبت مأسوفاً عليها اما نهباً وسلباً واما ضحية التخريب واما فريسة للنيران كجاري عادة رجال الفتح في تلك الايام (١) وافظع نكبة منيت بها الاندلس حدثت عام ١٤٤٩م اذ جمعت المخطوطات من كل الانحاء واحرقت اكداساً في اكبر ساحات غرناطة . ولم يستثنَ منها سوى ثلاثمائة مجلد في الطب والرياضة اهديت الى جامعة « القلعه » التي انشاها الكردينال زيمنس. ويقال ان عدد المخطوطات العربية التي ابيدت في تلك الفاجعة بلغ نحو ثمانين الفاً (٢).

٢ ـ انقضاض صاعقة على الاسكوريال احرقت قسماً من مخطوطاته

من الارث العلمي العظيم الذي جمعه خلفاء الاندلس وعلماؤها مدة خمسة قرون لم يسلم سوى بضعة آلاف مجلد حفظت في مكتبة الاسكوريال بجوار مدريد عاصمة اسبانيا . ثم اضيف اليها سنة ١٦١٢ ما غنمه الاسبانيون من المخطوطات التي كانت خاصة بمولاي زيدان سلطان مراكش. وقد التهمت النار قسماً من هذه المخطوطات بتاريخ ٧ حزيران ١٦٧١ في حريق نشب في الدير المذكور بسبب صاعقة سقطت عليه (٣) فكان الاسف عليها شاملاً في الاندلس .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٣ صفحة ١١٣

(٢) مقالة عنوانها « انقذوا تراث الاندلس » بقلم محمد عبدالله عنان (مجلة « الرسالة » سنة ٤ صفحة ١٦٨٥ و ١٦٨٦)

(٣) Charles Graux : Essai sur les origines du fond grec de l'Escurial, p. 319

الفصل الثامن والعشرون

غارات تيمورلنك على مكتبات البلاد الهندية والفارسية والعربية

١ ـ محو تيمورلنك جميع المكتبات في ما دوخه من الاقطار

في القرن الرابع عشر ظهر تيمورلنك (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥) الطاغية وملك عدة مدن في بلاد الهند وفارس والعراق وما بين النهرين وسوريا فكان لا يدخل في سيره قرية الا افسدها ولا ينزل على مدينة الا محاها وبددها (١) .

٢ ـ غارة تيمورلنك على ملة الصابئة

الصابئة او الصبّا ويقال لهم المندويون قوم يُعرفون بنصارى مار يوحنا يسكنون في النواحي الشرقية من العراق ولا سيما في اطراف البصرة. وبلغ عددهم في القرن الرابع عشر للميلاد عشرين الف بيت ولغتهم سريانية محرّفة ممزوجة بالفاظ عربية اطلق عليها اسم «النبطية» . فلما شن تيمورلنك الغارة على تلك الاصقاع القى الذعر في قلوب سكانها. وما كان من عامله المتولي بلاد الصابئة الا ان افرغ جهده في ابادتهم ومحو آثارهم . فهدم كنائسهم واحرق كتبهم وشتت شملهم حتى انتزحوا عن ديارهم الى بلاد الهند . ولم يبق منهم الآن الا بضعة آلاف في سواد البصرة (٢) .

---

(١) مجاني الادب : جزء ٦ صفحة ٣٣٢

(٢) مختصر تواريخ الكنيسة للمطران يوسف داود : صفحة ٦١٤-٦١٥ طبعة الموصل

٣ ـ تخريب مكتبات طورعبدين وانتحاب اشعيا الباسبريني عليها

ذكر غير واحد من المؤرخين ان تيمورلنك شد سنة ١٣٩٣ للميلاد في جيش كثيف على طورعبدين فدك اديارَه وخرب مدارسه وقوض كنائسه. ثم احرق ما كانت تشتمل عليه تلك المعاهد من الامتعة الفضية والاواني الذهبية والكتب القديمة الثمينة التي كانت مخطوطة باللغات العربية والسريانية واليونانية والفارسية وغيرها . واليك ملخص ما رواه شاهد عيان وهو اشعيا الباسبريني (١) . المتوفى سنة ١٤٠٠ م في قصيدة له . قال ما تعريبه :

« هوذا الاتراك ينهبوننا والاكراد يسلبوننا . . . دكوا الكنائس والهياكل واستحوذوا على اثاثها ورياشها . بعثروا مدافن الاباء... واستباحوا كتب الاناجيل وسلبوا الكتب المقدسة . . كسروا الايقونات والصور والصلبان المرصعة واصطنعوا منها قلائد . مزقوا المصنفات والحلل والسجوف فخاطوها قمصاناً وثياباً ... امسى دير قرتمين (دير العمر) خراباً يباباً بعد ما كان جنة غناء . . . انتزعوا المسامير الفضية والذهبية من دفوف الاناجيل الجميلة . . . . ولم يبقوا على اخشاب الابواب فاحرقوها قاطبة بالنيران (٢) »

٤ ـ حرق تيمورلنك كتب مدرستي العادلية والقضائية في دمشق

في وقعة تيمورلنك سنة ٨٠٣ للهجرة (١٤٠٠ م) استعرت النيران في دمشق مدة ثلاثة ايام متوالية فاتلفت اسواقها ومنازلها ومعابدها ومدارسها . وكانت النكبة شديدة باحتراق خزائن كتب المدرسة العاذلية والمدرسة القضائية (٣) .

---

(١) نسبة الى باسبرينا وهي قرية شهيرة بطور عبدين

(٢) الكنز الثمين للقرداحي : طبعة رومة سنة ١٨٧٥ صفحة ١١٣-١١٨

(٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٨

الفصل التاسع والعشرون

اساءة الاسبانيين والبرتقاليين والافرنسيين الى العلم وحرية الاديان

١ – نهب الاسبانيين مكتبة الجامع الاعظم بتونس

في السنة ٩٧٨ للهجرة (١٥٧٠ م) جرت في تونس موقعة عُرِفت بخطرة الدواميس دارت بها رحى الحرب بين علي باشا التركي وبين امير تونس محمد الحفصي. فاستنجد هذا دولة اسبانيا التي ارسلت اسطولها الى «حلق الوادي» وأيّدت محمداً في امارته . فهرب السكان من شدة خوفهم ودخلوا الغابات وعمل فيهم الجوع . ثم ارسل اليهم محمد الامان فرجعوا . وكان النصارى (الاسبان) قد استولوا على اكثر بيوتهم ونهبوا خزانة الكتب التي بالجامع الاعظم وخربوا المدارس ومزقوا كتب العلم وضربوا النواقيس (١) ووطئت سنابك خيلهم ما خلّفه علماء تونس من مؤلفات كانت تضاهي ما اجتمع من الكتب في نيسابور ومرو وبغداد وقرطبة (٢) .

٢ – اتلاف الاسبانيين كتب سكان المكسيك القدماء وسجلاتهم

كان اهل المكسيك يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على منسوجات قطنية

---

(١) دائرة المعارف للبستاني : مجلد ٦ صفحة ٢٧٨

(٢) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٢٠٤

مصبوغة بالوان مختلفة رُسمت عليها احرفٌ وعلامات غريبة. قال احد المؤرخين : لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات ورسوماً وصوراً في المنسوجات وجلود الحيوانات وقشور الشجر وسجلات قديمة فأتلفوها غير مبقين على شيء منها . ويُظنّ انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء الى حلّ رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها وكيف وصلت الى العالم الجديد (١) .

٣ ـ احراق مطران غوا البرتغالي كتب النساطرة الملباريين

في اواخر القرن السادس عشر اشتهر الكسيس منش رئيس غوا البرتغالي اللاتيني . وغوا هي جزيرة في الهند استعمرها البرتوغاليون ولم تزل تحت حكمهم حتى اليوم. وفي السنة ١٥٩٩ عقد المطران الكسيس المشار اليه مجمعاً في ديامبر (٢) حضره ثمانمائة وثلاثة عشر شخصاً من كهنة النساطرة واعيانهم الذين انضموا في ذلك العهد الى الكنيسة الكاثوليكية . واحدث ذلك المجمع قوانين جديدة لنساطرة الملبار المتكثلكين أدخلت في مؤلفاتهم الدينية القديمة . ولم يكتف المطران الكسيس بذلك بل أمر ان تحرق جميع الكتب الطقسية التي كان يستعملها النساطرة في تلك الامصار . ثم قرّر في المواد ١٤ و ١٥ و ١٦ من احكام مجمع ديامبر ما ملخّصه :

« فلتحرق كتب فروض المجيء والميلاد التي مزّقناها قطعاً قطعاً . ومن حوى مثل هذه الكتب ولم يرسلها الى المطران خلال شهرين منذ اطّلاعه على هذا الحكم . . . فانه يسقط في الحرم » (٣) .

---

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : صفحة ٢٦١

(٢) مختصر تواريخ الكنيسة للمطران يوسف داود : صفحة ٦١١ طبعة الموصل

(٣) ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان : بقلم الاب بطرس نصري : جزء ٢ صفحة ١٦٣

٤ ـ احراق كتب اليهود والبروتستان في شوارع باريس

اشتهر اولياء الامر الفرنسيون في القرون الوسطى بشديد حرصهم على معتقدهم الكاثوليكي . وذاع عنهم في الوقت نفسه تعنّتهم مع من كان مخالفاً لمعتقدهم كاليهود والبروتستان. يؤيد ذلك حكم صدر باحراق كتاب التلموذ فحشدوا جميع نسخه المخطوطة ونقلوها على اربع وعشرين عجلة الى ساحات مدينة باريس. وهناك اضرموا فيها النيران على مرأى من سكان العاصمة فالتهمتها بأجمعها .

وتصرّف الفرنسيون التصرّف عينه في مصاحف البروتستان الدينية في القرن السادس عشر فجمعوها وكدّسوها كلها اكداساً اكداساً . ثم اطلقوا فيها النيران فأتت عليها برمّتها ولم تُبقِ منها اثراً (١) .

---

(١) La vie de Paris au moyen âge, Par Pierre Champion, page 185

الفصل الثلاثون

مصائب مكتبات انكلترا

١ ـ احراق مكتبة اوكسفورد وغيرها

من الخسائر الكتابية الفادحة التي سطرها التاريخ باسف شديد ما جرى حين الانقلاب الديني في انكلترا في القرن السادس عشر. فان مكتبات جمة أحرقت حين ذلك. اخصها مكتبة اوكسفورد الثمينة التي ابادها كرمويل (١٥٩٩-١٦٥٨) في اواخر حياته.

٢ ـ تصرف البدالين والمجلدين في مخطوطات الاديار

كتب بال احد علماء الآثار سنة ١٥٨٦ للميلاد مقالة مسهبة عن اتلاف كتب الاديار في انكلترا حين الاضطهاد الذي ثار على الكاثوليك قال: « ان مخطوطات المكتبات كانت تباع جزافاً للبدالين (باعة المأكولات) ليغلفوا بها ما يبيعونه من المأكولات والاسماك. وكان المجلدون ايضاً يشترون المخطوطات الكاثوليكية النفيسة بابخس الاثمان ويبطّنون بها الكتب الحديثة. وكثيرون من الانكليز البروتستان كانوا يدفعون المخطوطات الى اولادهم ليحرقوها فيبتهجوا بمرأى لهيبها». وقال كاتب آخر: «ان اوراق المكتبات الثمينة كانت تستعمل لتغليف قطع الحلواء وغيرها».

٣ ـ اجتياح مكتبات جمة في حريق لندن سنة ١٦٦٦

في السنة ١٦٦٦ شبّ حريق عظيم في لندن اجتاح تلك العاصمة البريطانية من ادناها الى اقصاها . وروى المؤرخون يومئذ ان الحريق المذكور كان افظع فواجع عصرهم واسترسلوا يصفونه بقولهم : « كأن نيراناً من السماء تمطر على المدينة » . وقد ذهبت مكتبات جمة خاصة وعامة طعاماً للنيران . منها مكتبة « شركة نشر الكتب » التي كانت في مستودع كبير بشارع باترنوستر (١) .

٤ ـ احتراق مكتبات غوطون

لمّا نشب حريق Ashburnham House في ناحية وستمنستر اصابت نيرانه مكتبة غوطون الشهيرة . وكانت هذه المكتبة القديمة العهد غنيّة بالمخطوطات الثمينة فذهبت برمتها وامست اثراً بعد عين (٢) .

(١) مجلة الآثار : مجلد ١ صفحة ٣٣١
(٢) مجلة الآثار : مجلد ١ صفحة ٣٣١

الفصل الحادي والثلاثون

اغراق مخطوطات في الانهار والبحار والآبار

١ ـ اغراق داود الطائي كتبه في الفرات

روى ابن خلكان في تاريخه ان داؤد الطائي بن نصير الكوفي لما تبصّر بالعلوم اغرق كتبه في نهر الفرات . وذكر البقاعي في حاشيته على شرح الالفيّة للزين العراقي قال : سألتُ شيخنا ابن حجر العسقلاني عمّا فعل داؤد الطائي وامثاله من اعدام كتبهم ما سببُه ؟ فقال : لم يكونوا يرون انه لا يجوز لأحد روايتها الا بالاجازة لا بالوجادة . بل يرون انه اذا رواها احد بالوجادة يضعف . فرأوا ان مفسدة اتلافها اخفّ من مفسدة تضعيف بسببهم . وقد حلّت وفاة الطائي سنة ١٦٥ للهجرة (٧٨١ م) (١) .

وذكر ياقوت الرومي عن داؤد الطائي في كتابه « معجم الادباء » قوله : «داؤد الطائي ويقال له تاج الامّة طرح كتبه في البحر. (اي بحر الفرات) وقال يناجيها : نِعمَ الدليلُ كنتِ ! والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول !» (٢) .

---

(١) ابن خلكان : جزء ١ صفحة ٢٢٠

(٢) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ٢١

٢ ـ تغريق هولاكو خزائن كتب بغداد في دجلة

أفظع نكبة رواها المؤرخون عن تغريق الكتب هي التي اقدم عليها الطاغية هولاكو التتري عندما دوّخ بغداد عاصمة العباسيين سنة ٦٥٦ للهجرة (١٢٥٨ م). فانه اباد مكتبات هذه المدينة واتلفها عن بكرة ابيها كمكتبة بيت الحكمة ومكتبة المدرسة النظامية ومكتبة المدرسة المستنصرية وخزانة الدار الخليفية وغيرها من مكتبات الامراء والوزراء والاعيان وارباب المحابر . فذهب بعضها طعاماً للنار وبعضها عرضة للنهب . اما معظمها وكان كثيراً جداً فقد امر هولاكو ان يطرح في نهر دجلة فسدّ مجراه . وكانت جيوش هولاكو تجتاز من شاطىء الى شاطىء على اكداس من تلك الكتب المخطوطة كانها جسر معقود ! !

٣ ـ غرق مصحف الخليفة عثمان في البحر

هو المصحف الشهير الذي كان في منبر جامع قرطبة وقد مرّ وصفه في الفصل الثاني من الباب الاول . ونُقل سنة ٥٥٢ للهجرة بمجالي التكريم والتعظيم من قرطبة الى مراكش في عهد امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي . وظل المصحف بيد السلاطين يعتنون به ويحملونه في اسفارهم متبرّكين به حتى اصبح في حوزة السعيد علي بن ادريس بن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله. وبعد قتل السعيد سنة ٦٤٥ للهجرة قريباً من تلمسان نُهب المصحف . فعثر عليه ملوك بني عبد الواد اصحاب تلمسان وحرصوا عليه كل الحرص في خزائنهم . ولبثوا محتفظين به ريثما افتتح افريقيا السلطان ابو الحسن المرينيّ. فاستولى حينذاك على المصحف وحمله معه تبرّكاً في رحلاته وفتوحاته . واتفق انه عندما قفل بحراً من تونس الى المغرب سنة ٧٥٠ للهجرة حدث في البحر هيجان عظيم أغرق المراكب بمن فيها من نفوس وما فيها

من نفائس يعزّ وجود نظيرها . واخصها واثمنها مصحف الخليفة عثمان فكان ذلك آخر العهد به (١) .

٤ ـ نقل كتب الطريحي وطرحها في البحر

اقتنى الشيخ فخر الدين الطريحي كتباً كثيرة مخطوطة في غاية الجودة. فانتقلت الى ورثته بعد وفاته سنة ١٠٨٥ للهجرة . ولم يسلم منها شيء يعتدّ به الا اوراق متفرّقة لدى ذرّيته. وحدّث بعض الاعلام انه رأى بعينه في سرداب بدار الشيخ نعمة الطريحيّ ما يقرب من ثلاثة احمال من اوراق كتب مبعثرة قد اتلفها المطر. فنقلِت باجمعها والقيت في البحر (٢) .

٥ ـ فقدان سفينتي مخطوطات للسمعاني في النيل

في السنة ١٧١٥ وافى العلاّمة الكبير يوسف سمعان السمعاني من رومة ليزور لبنان مسقط رأسه . فانتهز الفرصة وطاف اكثر الانحاء الشرقية كدمشق وحلب والقدس واديار سوريا ولبنان وصعيد مصر متفقداً خزائن كتبها القديمة . وجمع منها ومن بيوت الخاصة ما تيسر له من المخطوطات النادرة في اللغات العربية والسريانية والقبطية .

ومن الاماكن التي تعهّدها السمعانيّ دير صيدنايا بجوار دمشق حيث عثر على طائفة من المخطوطات ألقيت في احد جوانب الهيكل مأكلاً للعث والارضة فأذن له باخذها (٣) . وقد شحن ثلاث سفن من المخطوطات وعاد بها قاصداً رومة ليجعلها في المكتبة الواتكانية لانه كان احد امنائها . بيد انه لسوء الطالع غرق في النيل

---

(١) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى : لاحمد بن خالد الناصري : جزء ١ صفحة ١٥٠

(٢) ماضي النجف : تأليف جعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة : صفحة ١٠٤

(٣) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : لحبيب زيات : صفحة ١٠٠

سفينتان من تلك السفن الثلاث ولا يُقدّر ما فيهما باقل من عشرات الالوف من المجلدات (١) . ولا يزال علماء المشرقيات يندبون هذه الخسارة الجسيمة التي لا تعوّض . وفي عداد ما غرق من تلك الذخائر الثمينة «الياذة اوميرس» منظومة بالشعر السرياني بقلم ثاوفيل الرهاوي رئيس منجمي الخليفة المهدي (٧٧٥-٧٨٥ م) في بغداد .

٦ ـ غرق مكتبة عظيمة شحنت من الصين الى انكلترا

روى والد اللورد بيكنسفلد أنّ رجلاً غنياً يُدعى Heer Huld سافر من انكلترا في اوائل القرن الثامن عشر الى بلاد الصين حيث قضى ثلاثين سنة كاملة . وهناك اقتنى الوفاً من الكتب تضمّنت آداب الصينيّين وعلومهم وفنونهم واسرار صناعاتهم القديمة وتواريخهم ليؤلف منها في وطنه مكتبة معتبرة . فلما اراد الرجوع الى اوروبا شحن تلك الكتب في سفينة كبيرة هبّت عليها العواصف في عرض البحار فاغرقتها . هكذا ذهبت تلك المساعي الحميدة ادراج الرياح بفقدان ثروة علمية عظيمة (٢) .

٧ ـ اغراق القرصان ثلاث سفن شحنت كتباً من البندقية الى لندن

كان مافاي بينل يملك في البندقية مكتبة ثمينة تضم مئات الالوف من اجود المصنفات بينها مخطوطات من القرن الحادي عشر الى القرن الرابع عشر . فباعها ورثته الى كتبي في تلك المدينة وهذا شحنها في ثلاث سفن الى لندن . فدهمها القرصان ولما لم يجدوا فيها غير الكتب ألقوا بهذه في البحر واكتفوا من الغنيمة بالسفن الثلاث (٣) .

---

(١) خطط الشام : لمحمد كرد علي : مجلد ٦ صفحة ١٩٨
(٢) اعداء الكتب : لجرجي سكسك (مجلة الآثار : مجلد ١ صفحة ٣٣٢)
(٣) مجلة الآثار : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣٢

٨ ـ القاء كتب عبد العزيز النجفي في البحر وفي الابار

اقتنى عبد العزيز كتباً وافرة طلبها من الهند والعراق حتى انافت على الالوف . وكانت مخطوطة ومذهبة قد اطلع على بعضها الشيخ علي آل كاشف الغطا . وبعد وفاة عبد العزيز جامعها تفرّقت بين آله فباع فريق منهم حصته واهمل الفريق الآخر حصصه حتى امست فريسة للأرضة . فتلف اكثرها على ممرّ الاعوام وألقيت جملة منها في بحر النجف وفي الآبار (١) .

٩ ـ طرح كتب في بئر كنيسة الموصل

لمّا انضمّ سريان قرقوش بجوار الموصل الى الكثلكة سنة ١٧٨٠ طرحوا في بئر كنيسة الطاهرة بالموصل جميع الكتب المشتملة على ما يخالف معتقدهم . وكانت مجلدات كثيرة تنطوي على قضايا مهمّة واخبار تاريخية ومباحث علمية في كل فنّ ومطلب . ويتناقل شيوخ قرية «قرقوش» عن اجدادهم انهم خسروا كنزاً عظيماً بفقدان تلك الكتب (٢) .

---

(١) ماضي النجف : صفحة ١٠٤

(٢) عناية الرحمان في هداية السريان : للمطران افرام نقاشة : صفحة ٢٦٢

الفصل الثاني والثلاثون

غارة الجزار على مكتبات جبل عامل

في السنة ١٢٠٩ للهجرة (١٧٩٤ ميلادية) جرى خلاف بين احمد الجزار واعيان جبل عامل ادى الى ثورة سكان هذا الجبل عليه . فارسل الجزار عسكره ففتك بهم واهلكهم قتلاً وحبساً حتى افنى الحرث والنسل (١) . واخبرني الحاج احمد عارف الزين صاحب مجلة «العرفان» في صيدا ان الجزار اجهز في تلك الثورة على خزائن كتب جبل عامل ونقلها الى مدينة عكا . وبينها مكتبة مهدي خاتون في قرية «جويا» كانت تشتمل على زهاء اربعة آلاف مخطوط . فانتقى الجزار قسماً منها ضمه الى خزائن الجامع المعروف باسمه . اما الباقي فقد وزعه على افران عكا التي ظلت توقد تلك المخطوطات مدة ثلاثة ايام متوالية .

---

(١) مجلة العرفان : مجلد ٥ صفحة ٢٣

الفصل الثالث والثلاثون

غائلة مخطوطات صيدنايا

١ - مكتبة دير الشاغورة واقدام البطريرك متوديوس على احراق مخطوطاتها

للروم الارثذكس دير قديم في صيدنايا من اعمال دمشق يقال له دير السيدة او دير الشاغورة . وقد مرّ بنا وصف مكتبته الشهيرة التي كانت آهلة بالمخطوطات النادرة في اللغات العربية واليونانية ولا سيما السريانية . وكان للسريان مذبح خاص بهم شيدوه على اسم مار يعقوب في شمال كنيسة الدير المذكور (١). وظلوا مستأثرين بذلك المذبح الى ان هُدم في اواسط القرن التاسع عشر كما روى الاسقف اسبنسكي الذي زار صيدنايا في السنة ١٨٤٣ ميلادية.

فخشي البطريرك الانطاكي متوديوس (١٨٢٣ - ١٨٥٠) ان تكون كثرة المخطوطات السريانية حجة للسريان يتقوّون بها على تأييد حقوقهم في الدير . فاتّقاءً لهذا الخطر الوهمي أمر باضرام النار في المخطوطات السريانية (٢) . وكان ذلك في الربع الثاني من القرن التاسع عشر في عهد الحاجة كاترينا مبيض رئيسة الدير (١٨٣٤ - ١٨٥١) .

٢ - اتخاذ مخطوطات المكتبة وقيداً في تنور الدير مدة اربعة ايام

الى القراء ما اثبته البحاثة حبيب الزيات عن حريق هذه المخطوطات السريانية

---

(١) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : صفحة ٩٧
(٢) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : صفحة ٩٧

وعن تلاعب وكلاء الدير بالمخطوطات العربية قال :

« ولا يخفى ما ضاع على العلم والتاريخ الشرقي من الفوائد والتعليقات التي كان يمكن اقتباسها من هذه الذخائر القديمة . وقد كان لاحراقها عمداً بيد التعصب والجهل رنة إكبار وإنكار في نفوس علماء المشرقيات حين وقفوا على شرح هذه الفظيعة الشنعاء في المقالة التي كنا نشرناها في تموز سنة ١٨٩٩ في مجلة المشرق. بعد ان تلقينا من فم شاهد عياناً اي من فم رئيسة الدير نفسها الحاجة سعدى هلال تفصيل الواقعة . قالت :

« كنت يومئذ فتاة صغيرة عند جدتي في زمان رئاسة الحاجة كاترينا مبيض (١٨٣٤ - ١٨٥١) ووكالة والد الخوري ميخائيل كك والشخاشيري وجبران الميداني . وكانت المكتبة في ذلك العهد حافلة بالمخطوطات السريانية النادرة . فانها كانت وافرة جداً حتى خشي الوكلاء من كثرتها ان تكون حجة بيد السريان يتقوّون بها على اثبات حقوقهم على الدير. فاجمع رأيهم على اخراجها واتلافها تخلصاً من شرها . فجمعوها ومعظمها من نفائس الكتب المخطوطة على رق الغزال . وبدأوا يحرقونها تحت القناطر (واشارت الى مكانها) ثم كرهوا ان تذهب نارها ضياعاً فجمعوها في فرن الدير لتكون وقوداً له وخبزوا عليها خبزتين. وظلت النار تشتعل اربعة ايام في تلك المخطوطات خلا ما أحرق منها تحت القناطر . لان الخبزة تبتدىء يوم الخميس ولا تنتهي الا يوم السبت (١) .

« ولم يقع التفريط في الكتب السريانية وحدها بل شمل سائر المخطوطات على السواء . وهي منذ وجدت في الدير لم تبرح قنصاً لكل صائد ونهباً لكل وارد . تتناول منها الايدي ما تختار وتشاء بطريق الاستعارة او العازة . فذهبت كل نفائسها ولم يسلم منها لهذا الوقت الا حثالة ليس فيها للعلم كبير غناء . . . وغاية ما يستفاد من البحث فيها بعض الحواشي والتعليقات في التراجم والانساب » .

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١١٧-١١٨

الفصل الرابع والثلاثون

اندثار مخطوطات ثمينة ومدارج قديمة في مصر

١ - تبعثر مكتبة جامع ازبك بن ططخ بين الانقاض

من الخزائن المشهورة التي بُعثرت في القرن التاسع عشر مكتبة جامع ازبك بن ططخ في القاهرة . فان مخطوطاتها النادرة وبينها الشيء الكثير من كتب علم الفلك والميقات وادواتها تشتتت اوراقها تحت الانقاض باهمال ديوان الاوقاف في القاهرة . وجرى ذلك في زمن اسمعيل باشا خديو مصر (١٨٦٣ - ١٨٧٩) عندما امر بهدم هذا الجامع لانشاء شارع محمد علي (١) . وقد سبقنا فوصفنا هذه المكتبة المعتبرة في خزائن كتب القاهرة .

٢ - احراق الفلاحين خمسين مدرجه قديمة ليشموا طيب رائحتها

لا يخفى ما تحويه ارض الفراعنة من العاديات الغالية الثمن. فكان الفلاحون حين نبشهم الدفائن والخبايا وعثورهم على مدارج او بردي او قراطيس مكتوبة عمدوا الى اتلافها كلهـا . لكنهم كانوا اذا وجدوا بينها ذهباً او فضة احتفظوا به وتقاسموه . وهذا امر قديم ذكره المؤرخ عبد اللطيف البغدادي لما جاء القطر المصري وقال انه كان شائعاً في طول البلاد وعرضها يأتيه الجشعون. ولعل اولئك الجهلة اتلفوا من الكنوز العلميـة والتاريخية ما لا يقدر له ثمن ولا تُعرف له قيمة . من ذلك ان بعض الفلاحين اكتشفوا بقرب الجيزة خمسين درجاً مكتوبة باليونانية في صندوق من خشب الجميز . وقد عرضوها على احد التجار فاختار واحداً منها ثم احرقوا بقية الدروج لكي يشموا طيب رائحتها (٢) .

---

(١) مقالة « تاريخ دور الكتب في الشرق » بقلم السيد محمد علي البيلاوي نقيب السادة الاشراف في الديار المصرية . نشرت في كتاب عنوانه « مطبعة المعارف واصدقاؤها » صفحة ٢٩ و ٣٠

(٢) المقتطف : مجلد ٢١ سنة ١٨٩٧ صفحة ٥٩١

الفصل الخامس والثلاثون

رزايا مكتبات النصارى في سوريا ولبنان

١ - نظرة اجمالية

من اشد رزايا المكتبات في الشرق ما حلّ بمكتبات النصارى من النهب والتدمير والحريق في اثناء الفتن الاهلية . وكانت تلك المكتبات تشتمل على كل نفيس من المخطوطات العلمية والرقوق النادرة والسجلات القديمة التي جمعها رؤساء النصارى وحفظوها في بيعهم واديارهم مدة قرون عديدة . ومن طالع اخبار تلك الاديار في شتى العصور علم ان كلاً منها نُهب او احرق مرّات عديدة . وقد انتزع منها السالبون كل ما وصلت اليه ايديهم من المقتنيات العزيزة والكتب الثمينة .

٢ - خسارة كتب جمة في ثورة لبنان عام ١٨٤٠

مما يؤيد تلك الخسائر وثيقة رسمية محفوظة بين وثائق قصر الامير بشير الشهابي في بتدّين . وهي مسجّلة تحت رقم ٣٥٨٣ ورد فيها ذكر كتب خطّية ومطبوعة نُهبت او احرقت عام ١٨٤٠ حين فتنة ثارت في جبل لبنان . وجاء في الوثيقة عينها ان اصحاب تلك الكتب طالبوا الحكومة العوض عما فقدوه .

٣ - نهب كتب دير مار افرام الرغم عام ١٨٤١

في السنة ١٨٤١ تعدى بعض الرعاع على دير مار افرام الرغم بجوار الشبانية

بجبل لبنان . فانتهبوا امتعتَه ومكتبتــه . وخرّبوا اضرحة المطارنة في الكنيسة واحرقوا رفاتهم وذرّوا الرماد في الحقل . ثم قبضوا على راهبين من رهبان الدير والقوهما على صخور الوادي لناحية الغرب فقضيا لساعتهما (١).

٤ ـ حريق مكتبتي الروم الكاثوليك والسريان بحلب عام ١٨٥٠

في فتنة السنة ١٨٥٠ احترقت كنيسة الروم الكاثوليك ودارها الاسقفيـة بحلب فذهب ما فيها من الاواني الثمينة والكتب المخطوطة ضحية النار .

وقس على ذلك بيعة السريان الكاثوليك ودارها البطريركية فانهما احترقتا في ١٦ تشرين الثاني ١٨٥٠ ولم يبقَ منهما حجر على حجر . واليك ما ورد في ترجمة مار اغناطيوس بطرس السابع بطريرك السريان الانطاكي (١٨٢٠ ـ ١٨٥١) الذي جرى هذا الحريق في عهد رئاسته ونصّه (٢) :

« ولشدّ ما كان أسف البطريرك على فقدان كتبه التي كانت تُعَدّ بالالوف ولاسيما الكتب المخطوطة النادرة الوجود . فانها ذهبت فريسة الحريق مع سائر السجلات البطريركية . ولم يسلم منها الا شيء يسير كان مطموراً تحت الرماد . . . وهنا لا بد من التنويه بمصحف الاناجيل المخطوط بالقلم السطرنجيلي الجميل منذ القرن الحـادي عشر في قبرس . ثم نقله الاتراك لدى استيلائهم على الجزيرة المذكورة الى القسطنطينية حيث اشتراه بعض السريان واهدوه الى كنيسة حلب . فكان مزيناً بنقوش بديعة ومكتوباً بحروف كلها من ذهب وفضة بما لا يوصف من سلامة الذوق وبراعة الخط (٣) . وقد اخبرنا البطريرك اغناطيوس جرجس الخامس (١٨٧٤ ـ ١٨٩١) ان بعض اوراق هذا المصحف التي سلمت من الحريق بيعت بمبلغ

---

(١) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : صفحة ٩٨

(٢) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : صفحة ١٠٨

(٣) كتاب « الآثار الخطية » بالفرنسية : للاب انطون رباط اليسوعي : مجلد ١ صفحة ٣٨٩

الف وثلاثمائة فرنك (ذهب) . وكانت علائم التأثر ظاهرةً على وجه البطريرك عند ذكره هذا الاثر العظيم القيمة والنادر الوجود »

وقد اطلعنا على رسالة مسهبة وجّهها البطريرك اغناطيوس بطرس السابع الى القس ميخائيل ازرق رئيس دير الشرفة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠ نقتطف منها ما يلي : « في ١٧ الجاري داهمتنا نكبة عظيمة جداً نحن ومسيحيّ حلب . وهو ان الرعاع قاموا بغتة على النصارى فابتدأ النهب والقتل وسبي العرض . ثم دخلوا علينا وابتدأوا يضربوننا ضرباً قاسياً بالسيوف والعصي والخناجر والسكاكين حتى صار يسيل دمنا نظير الينابيع . ونهبوا جميع مقتنانا وامتعة البيت والكسوة ونهبوا الكنيسة ايضاً . وبعده حضر رجل مسلم (١) . حملنا على ظهره واخذنا لبيته في جراحاتنا وسَيَلان دمنا . ثم بعده رموا الحريق بالكنيسة والبيوت التي حولها وجميع القلالي مع المكتبة وكتب الكنيسة ... وبالنتيجة خرجنا عريانين نظير ما خرجنا من بطن امنا فاقدين كل شيء فقراء متسولين ليس لنا مكان نسكنه (٢). »

٥ ـ تلف مكتبات المسيحيين بدمشق عام ١٨٦٠

كل ما رويناه عن احتراق مكتبات النصارى في حلب عام ١٨٥٠ يصدق بحذافيره في مكتبات نصارى دمشق حين فتنة السنة ١٨٦٠ ايضاً . فان الرعاع ابادوا كنائس الروم الارثذكس والروم الكاثوليك والسريان واديارهم واوقافهم التي انفقوا على تشييدها قناطير الذهب منذ اقدم العصور المسيحية . فلم يسلم من ذخائرها الكثيرة وسجلاتها العتيقة شيء على الاطلاق . وبين تلك الذخائر اليتيمة

---

(١) هذا الرجل الشهم هو الحاج عثمان حمصاني

(٢) محفوظات دير الشرفة : رسالة البطريرك اغناطيوس بطرس السابع بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠

انجيل قديم جداً مكتوب على رق الغزال يرتقي عهد نساخته الى القرن الرابع للميلاد كان في كنيسة السريان الكاثوليك بدمشق (١) .

٦ - حرق مخطوطات اديار زحلة ونهب بعضها عام ١٨٦٠

اثبتت مجلة المشرق (٢) ان الخوري نيقولاوس صائغ خلّف تآليف جمّة أحرِقَت سنة ١٨٦٠ بعين الدوق في زحلة . وأحرِقَت معها كتب عزيزة الوجود كان استعارها من دير الشير السيد باسيليوس شاهيات الحلبي يوم كان اسقفاً على زحلة . فذهبت هذه الكنوز الثمينة ضحية النار . وقد المعَ الاستاذ عيسى المعلوف الى اتلاف مكتبات زحلة بقوله : « كان في الدار الاسقفية الكاثوليكية وفي مار الياس (الطوق) الخنّاوي ومار الياس (الضيعة) المخلصي وفي دير الآباء اليسوعيين كتب مخطوطة نفيسة احرقت ونُهبت في السنة ١٨٦٠ وبقاياها قليلة ليست بذات شان (٣) . ويؤيد ذلك ما اثبته العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق عما تلف في فتنـــة السنة ١٨٦٠ من مجاميع كتب الكنائس والاديار في دمشق وبعض لبنان ولا سيا في زحلة (٤) .

---

(١) رسالة المطران يعقوب حلياني بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٨٦٠ (مجلد ٤ من مجموعـــة « العقد الثمين في رسائل الآباء الى البنين » المحفوظة في خزائن مخطوطات دير الشرفة)

(٢) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١١٠-١١١

(٣) تاريخ مدينة زحلة : لعيسى المعلوف : صفحة ٢٨٢

(٤) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٢٠٤

الفصل السادس والثلاثون

جوائح مكتبات بلاد ما بين النهرين عام ١٨٩٥ و ١٩١٥

١ - جائحة مكتبة سعرت

افرغ اساقفة الكلدان في سعرت ولا سيما السيد بطرس برططر(١٨٥٨-١٨٨٤) جهوداً طيبة في تعزيز مكتبتهم . وجعلوا مركزها في دير مار يعقوب الحبيس . وضموا اليها مخطوطات قديمة ثمينة جمعوها من اطراف كردستان والعراق وما بين النهرين .

لكن هذه المكتبة الغنية انتابتها نائبتان فادحتان اجتاحتاها وقضتا على جميع كتبها مخطوطة ومطبوعة . فالنائبة الاولى وقعت في خريف السنة ١٨٩٥ عندما حمل الاكراد عليها واتلفوا معظمها واتخذوا من رقوقها احذية لارجلهم . واوقدوا بعضها في مواقد الطبخ ومزّقوا البعض بالخناجر .

اما النائبة الثانية فقد حلت بها في اواسط آب سنة ١٩١٥ في عهد المطران ادّى شير ابرهينا (١) . فان الاكراد بعدما فتكوا به فتكاً ذريعاً كما ألمَعنا أجهزوا على مكتبته وأتلفوها باجمعها ولم يَذَروا منها شيئاً . وكانت تحوي ما عزّ وندر من المخطوطات والمطبوعات . فكان اتلافها مصيبة من اعظم المصائب بل نكبة جديدة على الكتب والمكتبات .

---

(١) طالع اخباره في مجلة المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ٨٤ و ٨٥

٢ - جوائح مكتبات طورعبدين وغيرها

ما اوردناه عن مكتبة سعرت ينطبق تماماً على كثير من مكتبات بلاد ما بين النهرين ولا سيما مكتبات طورعبدين . وقد أتينا باختصار على ذكر ما انتابها من المحن العديدة في سالف الزمان . ولما جاءت الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) أجهز الاكراد على ما سلم من بقاياها وعلى ما أضيف اليها بتعاقب الايام من الكنوز العلمية وأمست اثراً بعد عين .

الفصل السابع والثلاثون

اشهر رزايا المكتبات في ايطاليا

١ ـ حرق اثني عشر الف مخطوط في كريمون.

كان في مدينة كريمون بايطاليا مكتبة امتازت باحتوائها بين مخطوطاتها على اثني عشر الف مجلد باللغةِ العبرانية. فجُمعت تلك المجلدات برمتها في احدى ساحات المدينة وأحرقت علناً سنة ١٥٦٩ بدعوى انها غريبة المذهب (١).

٢ ـ احتراق مكتبات تورينو

من اكبر النكبات التي اصيب بها العلم عام ١٩٠٤ احتراق مكتبة تورينو الشهيرة. فان النيران التهمت منها ثلاثة آلاف وسبعمائة مخطوط باللغات الشرقية وثلاثة آلاف مخطوط باللغتين اليونانية واللاتينية ومائة الف مجلد من الكتب المطبوعة. هذا ما عدا الوثائق الخطيرة الغالية الاثمان التي امست اثراً بعد عين.

٣ ـ تدمير مكتبة دير كاسينو

يقع هذا الدير الكبير على قمة جبل كاسّينو وهو من اشهر اديار ايطاليا ومن ارسخها في الآثار التاريخية. احتوى على مكتبة ضُرِبَ المثل في نفائسها الغريبة ونوادر مخطوطاتها التي نمّقتها ايدي الرهبان مدة اجيال عديدة. وقد احتلّ الالمان هذا الدير حين الحرب الكبرى الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) فجعلوا منه حصناً منيعاً. وبعدما نهبوا ذخائره الثمينة واتلفوا مكاتبه النادرة المثال دمروه تدميراً حتى لم يبق منه حجر على حجر. هكذا زال من الوجود معهد ادبي وكتابي عظيم له صفحة مجيدة في عالمَي العلم والفن.

---

(١) مجلة الآثار: مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣١

الفصل الثامن والثلاثون

تدمير الالمان مكتبات شتى في محاربتهم جيرانهم

١ - تخريب الالمان مكتبة ستراسبورغ في فرنسا سنة ١٨٧٠

في حرب السنة ١٨٧٠ دمرت قنابل البروسيويين مكتبة ستراسبورع العامرة. وقد التهمت النيران فيها مخطوطات رسمية ثمينة بينها اوراق محاكمة غوتنبرغ مخترع الطباعة وشركائه.

٢ - تهديم الالمان مكتبة كلية لوفان في بلجيكا سنة ١٩١٤

ابقى لنا تاريخ الحرب العظمى (١٩١٤-١٩١٨) اخبار غوائل هائلة تقشعر لها الابدان عن تدمير بعض دور الكتب الشهيرة . وحسبنا الاشارة الى مكتبة لوفان الذائعة الصيت في بلجيكا وقد دمرتها قنابل الالمان في شهر آب سنة ١٩١٤ دون ان يكترثوا لكرامة العلم . وكانت خزائنها تشتمل على مائتي الف مجلد مطبوع او مخطوط بينها جانب لا يستهان به من الكتب الشرقية فضلاً عن الكتب العربية التي تدور ابحاثها حول الشرق والشرقيين ولا سيما العرب . فخسر علماء الاستشراق باندثارها ثروة علمية لا تقدر بثمن. وما كادت تضع تلك الحرب العظمى اوزارها حتى بادر البلجكيون الى ترميم مكتبة لوفان واعادة مجدها السابق . فانفقوا لذلك مبالغ طائلة من المال وتواردت عليهم هدايا الكتب بعشرات الالوف من جميع الاصقاع شرقاً وغرباً . لكنه في ايار سنة ١٩٤٠ أغار الالمان مرة ثانية

على مملكة بلجيكا فاكتسحوا مدنها العامرة وسهولها وجبالهـا . وضربت طائراتهم مكتبة لوفان الحديثة فدمرتها ايضاً والتهمتها النيران (١) .

٣ ـ اكتساح الالمان مكتبات شمال فرنسا سنة ١٩٤٠

تواترت على فرنسا في حرب الالمان عام ١٩٤٠ نكبات مريعة يعجز القلم واللسان عن وصفها . ومن افدح ما دوّنـه التاريخ عن هجومهم في مدافعهم الضخمة وسيّاراتهم المحرقة وطائراتهم الجوية انهم اجتاحوا جميع مدن فرنسا الشمالية ودساكرها. فاكتسحوا كل مدينة او قرية اجتازوا بها ومحقوا معالم العلم والدين. واتلفوا الاخضر واليابس . وكان من نتائج ذلك الهجوم الهائل ان بادت عشرات المكتبات وامست اثراً بعد عين . نذكر منها : مكتبات ليل وكمبري واميان وارتوا واراس وروان ودنكرك وكالِه وبوفِه ومنديديه الخ الخ .

٤ ـ غارات الالمان على مكتبات انكلترا سنة ١٩٣٩ و ١٩٤٠

يتعذر على ابلغ الكتّاب ان يصفوا الرزايا الفظيعة التي حلّت بانكلترا ولاسيما بلندن عاصمتها عام ١٩٤٠ و ١٩٤١ حين غارات الالمان الجوّية عليها . فاذا صرفنا النظر عن المدن العامرة التي دكوها وقضوا عليهـا وعن آثار الحضارة التي محقوها واتلفوها لا نرى بدأ من الالماع الى ما انزلوه بمكتباتها العظيمة . فقد شنّوا غارات شعواء على مكتبة المتحف البريطاني وعلى مكتبة جامعة لندن اللتين لا تقدّر ثروتهما بثمن . وقس عليهما مكتبات اخرى غنيـة بمخطوطات الاوائل ومطبوعات الاواخر كمكتبات برمنغام ومنشستر وبريستول وكوفنتري وغيرها. وعليـه فلسنا نستطيع ان نبتّ في مقدار الخراب ومدى التدمير الا بعد الاطلاع على الاحصاآت الرسمية بهذا الشان .

---

(١) جريدة « البشير » : سنة ٧٠ عدد ٦٠٩٩ في ٢٢ ايار ١٩٤٠

الفصل التاسع والثلاثون

فظائع الشيوعيين فى مكتبات اسبانيا

١ ـ احراق عدة مكتبات وسلب كتب وافرة من اديار الرهبان

ما كنا نفرغ من تبييض هذا الكتاب حتى اشتعلت نيران الحرب الاهلية (١٩٣١ ـ ١٩٣٩) في اسبانيا . فكان ذلك وبالاً على الحضارة والعلم في القرن العشرين . فان الحمر (البلاشفة الشيوعيين) ارتكبوا من الفظائع ما لا يقع تحت حصر . فاتلفوا المعاهد العلمية وقوضوا الصروح الاثرية كالمتاحف والمكاتب وغيرها نذكر منها قصر «الحمراء» الشهير الذي بناه خلفاء العرب في بلاد الاندلس .

ومما هدمه الشيوعيون باسبانيا دير «فيش» الفخم واحرقوا مكتبته الشهيرة (١) . وسلبوا من خزائن دير «باسترانا» كامل المخطوطات الثمينة المتعلّقة باعمال الرسالات في الصين وجزر الفيلبيين . واحرقوا كذلك المكتبة النفيسة التي جمعها الرهبان الفرنسيسيون في ديرهم الرئاسي بمدينة مدريد (٢) وغيرها من خزائن الكتب الغنية بالذخائر العلمية وخرائد المخطوطات..

٢ ـ نهب جامعة كوميلاس وتشتت كتبها ومخطوطاتها

ما اكتفى الشيوعيون الاسبان بارتكاب الفظائع وتقويض المكتبات كما سلف القول بل راحوا ينهبون كل ما عثروا عليه من الكنوز العلمية . ومن جملتها مكتبة

---

(١) جريدة «البشير» في بيروت : ١٥ كانون الاول ١٩٣٦ عدد ٥١١٣

(٢) رسالة العمال في حلب : سنة ٧ عدد ٨٢ و ٨٣

« جامعة كوميلاّس » وهي من المعاهد الشهيرة التي حوت احدث ما ابتكره العقل البشري من التحف الفنيـة والكنوز العلميـة . وبعثروا ما كان في خزائنها من الكتب الفنية والمخطوطات النادرة المثال المحفوظة منذ اعوام طويلة (١) .

٣ ـ اعتداء الشيوعيين على دير مونسرات

للرهبان البندكتيين دير قديم عظيم يقال له « مونسرّات » بضواحي مدينـة برشلونة في مقاطعة قشتلانة. يسكنه نحو مائتي راهب جلهم من اعلام العلماء وكبار المؤلفين . بينهم لجنة تولت ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القشتلانيـة وعلى رأسها المستشرق الذائع الصيت الاب بونونتور اوباخ . وقد انجزت اللجنة حتى الآن عدة اجزاء من ترجمـة العهدين القديم والجديد ونشرتها بالطبع مزينة بالرسوم. وفي هذا الدير مطبعة عامرة تنطوي على آنية ثمينة وكنوز وافرة. الا ان الشيوعيين لم يحترموا العلم والفضيلة بل اعتدوا على كل ما في الدير كما اعتدوا على مكتبته العامرة بالمخطوطات النفيسة . ولو لم يتدارك الرهبان ويخفوا ما تيسر من تلك الكنوز لتفاقمت الخسائر وامست النكبة اجسم وافظع .

٤ ـ احصاء النوازل الكتابية في الحرب الاسبانية

ابتدأت الحرب الاهلية في اسبانيا عام **١٩٣١** وانتهت **١٩٣٩** بانتصار الجنرال فرنكو على الشيوعيين . فبلغ ما دمّره هؤلاء ونهبوه واحرقوه خمسة عشر الفـاً وخمسمائة من الاديار والمعابد والمدارس . وكان يحوي اكثرها خزائن حافلة بالمطبوعات فضلاً عن المخطوطات المحفوظة فيها منذ مئـات الاعوام .

الفصل الاربعون

احتراق مكتبة مرينتال في انكلترا

وفي شهر نيسان ۱۹۳۷ شبت النار في دير شيده الاباء الفرنسيسيون في مرينتال بالقرب من مدينـة ماينس في انكلترا فدمرته تدميراً . واحترق اكبر قسم من المكتبـة التي حوت اثمن المخطوطات واندرها . وقد بني هذا الدير في القرن الرابع عشر للميلاد وهو مزار يحجه الجماهير منذ ذلك العهد (۱) .

---

(۱) جريدة «البيرق» في بيروت : عدد ۲۱۲٦ في ٦ نيسان ۱۹۳۷

الفصل الحادي والاربعون

الاجهاز على الكتب بعد الحرب العظمى

١ ـ تواطؤ البلاشفة على احراق الكتب المتعلقة بالقياصرة

لما وضعت الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) اوزارها حدث انقلاب كبير في الشعوب والحكومات اودى الى انقلاب اكبر في الافكار والمبادىء . ومن تتبع مجرى الحوادث العالميـة وجدها حافلة بالثورات والاضطرابات الناتجة عن المبادىء الجديدة التي نشرها حملة الاقلام في الصحافة او دونوها في بطون الكتب .

ولاجل ذلك رأينا زعماء الاتجاهات السياسية وارباب الاوضاع الاجتماعية الحديثة يرهبون الكتب التي تنافي مواضيعها آراءهم وتعاليمهم . فبادروا الى مكافحتها بكل الوسائل حتى عفا اثرها بتوالي الايام من ادمغة شعوبهم التي امتزجت امتزاجاً وثيقاً باخلاقهم واهدافهم . هكذا تواطأ البلاشفة في روسيا على احراق جميع الكتب التي لها علاقة بالقياصرة من آل رومانوف . ثم اعملوا النهب والهدم بالمكتبات الخاصة والعامة بما فيها من المخطوطات الثمينة والفنون الرائعة .

٢ ـ تجميع مصنفات اليهود من انحاء المانيا والنمسا وسحقها في المحاشد العامة

وحذا حذو البلاشفة في روسيا النازيون في المانيا . فانهم سحقوا كتب علماء اليهود على بكرة ابيها وابادوا المؤلفات التي تندد بالمبادىء الاشتراكية الوطنيـة .

وعلى اثر ضم النمسا الى دولة المانيا عام ١٩٣٨ نُشِرت اعلانات رسمية ولُصِقت على الجدران تدعو الاهالي الى احضار ما عندهم من مؤلفات مكتوبة باقلام يهودية لاجل اتلافها . وشهدت مدن النمسا محاشد غريبة لاحراق الكتب اليهودية على اختلاف مواضيعها . وقد جمعت من مكاتب العامة والخاصة . وهي تشتمل على تصانيف لا تحصى لمشاهير كتابهم مثل اميل لدويغ وارثر شنيتزلو واستفان زويج وفيكيبوم وغيرهم وغيرهم . ومن ابرز تلك المحاشد التي تقشعر لها الابدان ما جرى بتاريخ ٣ ايار ١٩٣٨ في ميدان « رازيدنس بلاتزر » في مدينة سلزبورغ (١) .

٣ ـ اعتداء النازيين على مكتبة كردينال فينا عام ١٩٣٨

في ٨ تشرين الاول سنة ١٩٣٨ قام شبان النازي انصار هتلر بتظاهرة عدائية ضد الكردينال انتسير رئيس اساقفة فينا فهاجموا القصر الكردينالي وقاموا فيه باعمال النهب والحريق والتخريب. واتلفوا مكتبته الثمينة التي حوت انفس الآثار منذ قرون عديدة (٢) .

٤ ـ اجهاز الاتراك على الكتب التركية ذات الصبغة العربية

عندما خلع الكماليون آخر سلطان عثماني عن عرش اجداده وطردوه من تركيا مع سائر العترة السلطانية اجهزوا على جميع الكتب التي تنزع الى سلاطين بني عثمان وتتغنى بامجادهم . وما اكتفوا بذلك بل اتلفوا جانباً عظيماً من التآليف التركية ذات الصبغة العربية .

(١) جريدة فتى العرب في دمشق : سنة ٢٠ عدد ٤٧٠٦ بتاريخ ٣ ايار ١٩٣٨

(٢) جريدة « البشير » البيروتية : مجلد ٦٩ عدد ٥٦٢٦ في ١١ تشرين الاول ١٩٣٨ وجريدة « بيروت » : سنة ٣ عدد ٥٩٣ في ١١ تشرين الاول ١٩٣٨

الفصل الثاني والاربعون

نكبة مكتبة بطريركية الفنار في اسطنبول

بطريركية الفنار هي مركز للبطريرك المسكوني الذي يعتبر أعلى رئيس ديني لملة الروم الارثذكس . ففي تلك البطريركية مكتبة عامرة قديمة العهد اشتملت على وثائق ثمينة وكتابات نفيسة ومحفوظات جزيلة الفائدة يرجع اليها الباحثون في الشؤون العلمية والقضايا التاريخية . وقد صبرت تلك المكتبة البطريركية على محن الدهر حتى دهمتها في ٢١ ايلول سنة ١٩٤١ نكبة جسيمة أتلفت جانباً من محتوياتها النفيسة .

ففي التاريخ المذكور شبّ حريق هائل في حي الفنار في اسطنبول فالتهمت النيران ما يُربي على ثلاثمائة منزل وتركت نحو الف نفس بلا مأوى . وقد لحق بالدار البطريركية خسائر فادحة اذ اندلعت ألسنة اللهيب الى مكتبتها والى ردهة السنودس المقدسة وبعض غرف الرهبان فأتلفت الصور الفنية الثمينة . واصاب بعض العطب كنيسة القديس جاورجيوس . ولم تسلم محفوظات كنيسة القديس اوسطاثيوس وخزانتها من التلف . ولم ينجُ غبطة البطريرك المسكونيّ نفسه من الحريق الا بعناية الهية . وقد أحدثت هذه النكبة تأثيراً بليغاً في جميع الاوساط ولا سيما لاجل الخسائر الفنية التي لا تُعوّض (١) .

---

(١) مجلة « المسرة » مجلد ٢٧ سنة ١٩٤١ صفحة ٣٧٩-٣٨٠ وجريدة « اسيا » في بيروت : مجلد ١ عدد ٦٠ في ٢٣ ايلول ١٩٤١

الباب السابع عشر

النوازل الادبية بالمكتبات والكتب

الفصل الاول

اعداء الكتب والمكتبات

اثبتنا في فصول سابقة بعض رزايا مادية انتابت الكتب ونكبت بها المكتبات . ولا نرى الان مندوحة عن تدوين بعض رزايا ادبية لا تقل عن تلك فظاعة بل تفوقها ضرراً وفداحةً . لان الاولى اذا كانت تبيد الكتب وتفتك بالمكتبات فان الثانية لا تقتصر على ذلك فقط بل تقيد الحرية الفكرية وتبلبل المشتغلين في المعاهد الكتابية تبلبلاً يفقدهم الطمأنينة والانتظام . وناهيك ما يترتب على ذلك التقيد الفكري وعلى تلك البلبلة المعنوية من دواعي تقهقر الادب وخنق الثقافة والاساءَة الى معاهد العلم .

ليس الذين دمروا المكتبات واحرقوا الكتب في القرون الغابرة هم وحدهم اعداءها كما يتبادر الى الظنّ . كلاً ثم كلاّ . فان اولئك ما ارتكبوا تلك الجنايات الهائلة الا عن توحش بربريّ او جهل مطبق او تعصب ديني او عداوة سياسية . اما مرتكبو الجرائم الادبية في حق الكتب والمكتبات فلا يقلون عنهم فظاظةً وسخافةً . لانهم على رغم تظاهرهم بالغيرة على مصالح المكتبات والحرص على كنوزها نراهم يتذرّعون بنفوذهم او تسوقهم جهالتهم الى القضاء على كل مشروع ادبي وعلى كل معهدٍ كتابي . فيحققون فيهم قول ابي العلاء المعري عن بعض امراء زمانه :

يسوسون الامور بغير عقلٍ ويَنفذ امرُهم ويُقال ساسهْ

ولا شك ان مرتكبي تلك الجرائم الادبية يجدّدون بافعالهم الطائشة ذكرى جنكزخان الطاغية وابنه تولي وحفيده هولاكو وطغرل السلجوقي وغازان التتريّ وتيمورلنك العاتي وغيرهم ممن طغوا وبغوا . فكانوا آفة الآفات على الكتب والمكتبات . وقد ألمعنا في بعض الفصول اليهم والى ما اقترفوه من الاعمال الهمجية التي يندى لها وجه الانسانية خجلًا . فكأن اعداء العلم هؤلاء ومَن جاراهم حاولوا ان يخلدوا لدمامتهم الممقوتة صفحة سوداء لطخت تاريخ حياتهم بوصمة العار والشنار على كرور الاعصار .

سبق لنا ان روينا اخبار الخلفاء والعظماء والعلماء والكرماء ممّن شيّدوا « دور العلم » وأسّسوا « بيوت الحكمة » فسطرنا لهم آيات الشكران . اما الان فقد اضطرّنا الانصاف ان نقبّح افعال جميع الذين يختلقون المشاكل او ينفثون المفاسد لتنكيس رايات الادب ومناصبة الساعين لتعزيز خزائن الكتب . كيف لا وقد نصبوا لها المكايد وسدّوا في وجوهها الطريق المؤدية الى تعميم المعارف بين طبقات الامة . وهذا نوعٌ من القتل ارتكبوه او بالحريّ تعمدوهُ لتقويض اركان مكتبات جليلة محترمة لها تاريخها المجيد وشأنها الرفيع في البنيان الثقافي الذي تستند اليه الشعوب العربية . وقد صدق فيهم قول الشاعر :

قَتْلُ امرءٍ في غابةٍ جنايةٌ فيها نَظَرْ
وقتلُ شعبٍ آمنٍ جريمةٌ لا تُغْتَفَر

الفصل الثاني

لصوص الكتب والمكتبات

١ ـ خيانة بعض قوّام المكتبات

على رغم اعتناء الملوك وائمّة الادب بالمكتبات وشديد حرصهم على ذخائرها فانها لم تخلو في كل آن من افراد طمّاعين او وكلاء خونة قحموا على انتهاب خرائدها واختلاس اغلب نفائسها بلا تورّع ولا حياء . وهو داءٌ وبيلٌ بليت به خزائن كتب الشرق والغرب معاً دون استثناء . ولولا ذلك لبقيت تلك المكتبات سالمة وازدادت الرغبة في الاختلاف اليها والاستفادة من محتوياتها .

٢ ـ سرقة مكتبات تونس

حدّثنا صاحب « المشرع الملكي » عن بعض معاصريه في تونس انه بعدما أصيب بما اصيب به ابناء ذلك العصر من هدر الدماء واستباحة الاموال دخل الى مكتبته احد خدامه فاستحوذ عليها . وحمل هذا الخادم الى داره ما سرقه من كتب سيده وباعها من البقالين فاستعملها هؤلاء بدورهم في لفّ بضائعهم . ولسنا نغمّض عن ذكر خزائن عامة في تونس لعبت بها الايدي الاثيمة وقد كانت حافلة بمخطوطات ثمينة لا يحصى لها عدد . نخص منها بالذكر خزانة جامع الزيتونة بالعاصمة وخزانة الجامع الاعظم في القيروان . وقس عليهما سائر المكتبات التي لم يكن يخلو منها جامع او مدرسة كجامع حموده باشا وجامع صاحب الطابع . فقد اختلس اللصوص

من هذه المكتبات ما استأثرت ببعضه مكتبات خاصة وتلقفت بعضه الآخر خزائن اوروبا على يد فريق من الخونة كسليمان الحرائري (١٨٢٤ - ١٨٧٤) وغيره (١).

٣ - سرقة كتب ابي الغنائم الشيباني الضرير

وكان لأبي الغنائم الشيباني الضرير (٥٦٥ هـ) في بغداد خزانة حافلة بالمخطوطات اللغوية والادبية. لانه برع في النحو وبلغ فيه الغاية وسمع كثيراً من كتب الادب ودواوين العرب . ولم يكن يهتدي الى الطريق بغير قائد كما يهتدي العميان حتى سرِقت كتبه . وقد سرقها جار كان يأتيه في كل ليلة وهو قريب من منزله (٢) .

٤ - استباحة الخشاب النحوي كتب الناس

يُروى عن ابي محمد عبدالله الخشّاب النحوي انه كان اعلم اهل زمانه بالنحو حتى يقال انه كان في درجة الفارسي . وكانت له معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة . وما مر علم من العلوم الا وكانت له فيه يد حسنة . وخلّف مؤلفات كثيرة ووقف كتبه على اهل العلم ومات سنة ٥٦٧ للهجرة . وكان الخشّاب اذا حضر سوق الكتب واراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال انه مقطوع ليأخذه بثمن بخس . واذا استعار من احد كتاباً وطالبه به قال : دخل بين الكتب فلا اقدر عليه (٣) . ومن شعره ملغزاً في كتاب :

وذي اوجهٍ لكنه غير بائحٍ بسرٍّ وذو الوجهين للسرّ مظهرُ
تناجيك بالاسرارِ اسرارُ وجههِ فتفهمها ما دمتَ بالعينِ تنظرُ

---

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٢٠٥-٢٠٦
(٢) بغية الوعاة : صفحة ٢١٤-٢١٥
(٣) بغية الوعاة : صفحة ٢٧٧

٥ - اختلاس كتب الدينوري

قال محمد بن يحيي : «كان الدينوري (٢٦٧ - ٣٤٩ ه) بمصر يتلاعب به الصبيان ويتضافرون عليه ويسرقون كتبه» . وحلت وفاة الدينوري في قرطبة بالاندلس سنة ٣٤٩ للهجرة بالغاً الثانية والثانين من سنه (١) .

٦ - احمد بن سيد الاشبيلي الملقب باللص

ما عدا لصوص الكتب كنا نودّ لو اوردنا اسماء لصوص الشعر والادب والفنون والاختراعات العلمية . غير ان ضيق المقام يحول دون ذلك لا سيما لان عدداً وافراً من الكتّاب طرقوا هذا الموضوع قديماً وحديثاً ووضعوا فيه التصانيف الجمة . غير اننا نكتفي بذكر شاعر من كبار شعراء الاندلس اشتهر بسرقاته وهو احمد بن سيد الاشبيلي المكنى بابي العباس . وقد لقبوه باللص لاغارته على اشعار الناس (٢) . ومن بديع نظمه قوله :

سلبت قلبي بلحظ   ابا الحسين خلوب
فلم اسمّ بلصّ   وانت لصّ القلوب

ولهذا اللص مواقف مشهورة في انشاد الشعر . نذكر منها موقفه ازاء الخليفة عبد المؤمن بن علي عندما بايعه اهل الاندلس بالخلافة على ضهر «جبل الفتح» المعروف في عهدنا بجبل طارق قال :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحلٍ   وانظر الى الجبل الراسي على جبلِ
انى استقر به انى استقل به   انى راى شخصه العالي فلم يزلِ (٣)

---

(١) ابن عساكر : جزء ١ صفحة ٤٣٧
(٢) نفح الطيب : جزء ٢ صفحة ٤٤٥-٤٤٧
(٣) النبوغ المغربي في الادب العربي لعبد الله كنون الحسني : جزء ١ صفحة ٤٣

٧ ـ ابو عبد الله السعيدي المعروف بلقب «مزبلة العلم»

ولا نريد ان نختم هذا الفصل دون ان نلم بذكر لص آخر اسمه محمد بن بركات ابو عبد الله السعيدي النحوي اللغوي (٤٢٠-٥٢٠ هـ) الذي استتم مائة من العمر. واشتهر بلقب «مزبلة العلم» لدنس ثيابه وغرابة خلقه وخلقه وللتقعير في حديثه وتخطئته لكل متكلم . وقد ادرك الشدة العظمى التي حلت بمصر عام ٤٦٠ للهجرة وما بعده وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة . وكان يحضر مائدة متولي الشرطة بمصر ويعلم اولاده ثم يأخذ اجرته رغيفين فيدفع احدهما لشيخه ابن بابشاد . وكان منقطعاً في سطح جامع عمرو ابن العاص للعبادة . ويبيع الرغيف الاخر في سوق زقاق القناديل باربعة عشر درهماً ويأخذ الدراهم ويطلع الى القاهرة يدفعها للفراشين الموكلين بالايوان بخزانة الكتب بالقصر . فيأخذ بكل درهم كتاباً . فيتخير الكتب المنسوبة وخطوط العلماء وكل مستحسن ويأتي بعد ذلك الى سقف بيت قد اغلق بابه ونقب السقف فيرمي تلك الكتب منه . كذا كل يوم . فلم تمض الشدة الا وذلك البيت ملان كتباً من كل فن . فكانت سبب غناه عن الناس الى ان مات (١) .

٨ ـ انتحال السيوطي لنفسه بعض تصانيف غيره

كان جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) من اكبر علماء زمانه . وانصرف منذ حداثته الى الجمع والتأليف فعُدّت مصنّفاته بالعشرات . وروى تلميذه الشمس الداوودي مؤلف «طبقات المفسرين الكبرى» قال : «عاينت الشيخ جلال الدين وقد كتب في اليوم الواحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً . وكان مع ذلك يُملي الحديث ويجيب على المتعارض منه باجوبة حسنة» . وعلى رغم منزلة السيوطي

(١) المشرق : مجلد ٣٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ١٨٣-١٨٤

العلمية الرفيعة لم يسلم من ذم الناس وانتقـاد المؤرخين . لانه « استبد بالاخذ من بطون الدفاتر والكتب . فأخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف القديمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها في الفنون . فغيّر فيهـا وقدّم وأخّر ونسبها الى نفسه (١) »

٩ ـ سرقة مكتبتي القرصانية والاحمدية بحلب

يضيق بنا المجال لو شئنا تعداد اسماء الخزائن العربيـــة التي انتابتها امثال هذه النكبات في العصور الغابرة والحاضرة . فان ايدي اللصوص امتدّت اليها واختلست ما عثرت عليه فيها من نوادر المخطوطات واستباحتها غنيمة باردة . ثم باعتها من مكتبات اوروبا واميركا ومصر وغيرها بأثمان باهظة .

وبين تلك الخزائن ما سرق دفعة واحدة كما جرى لمكتبة « القرصانيّة » التي كانت من اغنى مكتبات حلب واقدمها . وقد اثرى سرّاقها واصبحوا اصحاب عقارات ذات أجور وافرة (٢) . وكان زعيم اولئك السراق على ما نقله الحلبيون ماهر الحيل . فانه وضع يده على انفس مخطوطات المكتبة القرصانيّـة . ولما اكتشف امره عمد الى اخفائها في احد حمّامات حلب . وبعد ردحٍ من الزمان بعث الى مصر بما اختلسه وباعه بأبخس الاثمان .

ومن المخطوطات النادرة التي اختلسها امثال اولئك السرّاق من « المكتبة الاحمدية » بحلب نذكر : كتاب « النبات » المزين بالصور النفيسة تأليف ابي حنيفة الدينوريّ . وقد بيع هذا المخطوط البديع من المتحف البريطاني في لندن بمائتي جنيه انكليزي .

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ : لشمس الدين الحسيني : صفحة ٦

(٢) جريدة « الاهالي » في حلب : للشعباني : ١٢ حزيران ١٩٣٨ عدد ٩٧٤

١٠ - سرقة مكتبات بلاد الشام

قس على ما سبق سرقات جمة ذكرنا نتفاً منها في بعض فصول هذا الكتاب . ونجتزىء ههنا باثبات ما اورده الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق عن مكتبات بلاد الشام قال : « وكان القوم ولاسيا بعض مَن اتّسموا بشعار الدين وَمن كان يرجع اليهم امر المدارس والجوامع بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل ان يفضّلوا درهماً على انفس كتاب. فخانوا الامانـة واستحلّوا بيع ما تحت ايديهم او سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم » (١) .

وكانت المكتبـة العمرية في دمشق قبل سنوات بيد آل السقطي من الحنابلة الشاميين . وقد سطوا على كثير من كتبها ثم نقل ما بقي منها الى المكتبة الظاهرية. وكان ابناء الناظر على وقف المكتبة المشار اليها قد سرقوا جانباً من المخطوطات. ولا يزال عندهم جزء من الكتاب الواحد وجزؤه الآخر في المكتبة الظاهرية (٢) .

---

(١) خطط الشام : جزء ٦ صفحة ١٩٨

(٢) المدرسة العمرية : بقلم محمد اسعد طلس (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد تموز سنة ١٩٤٠ صفحة ٣٦ - ٣٧

الفصل الثالث

العبث في الكتب المخطوطة وتحريفها

١ ـ تصدي بعض الكتاب لتحريف الكتب

من أفجع المصائب التي رُزئت بها المكتبات إقدام بعض الجهلة او المدعين بالعلم على العيوث في المخطوطات القديمة والعبث بنصوصها . وفي جملة ما اقترفوه من الجنايات الادبية المنكرة انهم حرّفوا تلك الكتب او صحّفوها وزوّروها . وبينهم من ساقه التعصّب فحك شيئاً من كتاباتها اخفاءً للحقيقة او اثباتاً لقضية ملفقة . ولم يخجل بعض الكتّاب ان يخرجوا عن حدود الحق بمحاولة الغش واستعمال التمويه واختراع حوادث لا اصل ولا فصل لها تأييداً لمزاعمهم . بل لم يتورّع فريقٌ غيرهم عن اتلاف المخطوطات الخطيرة او التلاعب بها او تمزيق بعض اوراقها . بل حملت قلة الامانة فريقاً من المدّعين بالعلم على سرقة مؤلفات غيرهم وانتحالها زوراً وكذباً لانفسهم او لمن شاؤا من انصارهم . فنتج عن ذلك كله إفساد الكتب وبلبلة التواريخ وتشويه الحقائق وتضليل الباحثين عن محجّة الهدى والصواب (١) .

٢ ـ تحريف ابن حبيب كتب المؤلفين وابداله اسماءهم باسمه

وممّن ثبت تحريفهم للكتب محمد بن حبيب ابي جعفر الذي اشتهر بين علماء بغداد

---

(١) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى : تاليف احمد بن خالد الناصري السلاوي : جزء ١ صفحة ١٥٠

باللغة والشعر. وكان ثقة في الاخبار والانساب. وخلف تصانيف وافرة ذكرها السيوطي وياقوت الحموي وغيرهما من رواة التراجم . ومات بن حبيب في سامرّا سنة ٢٤٥ للهجرة . غير ان عمله الواسع لم يمنعه من الاقدام على تحريف الكتب بشتى الاساليب والحيل . قال المرزبانيّ «كان ابن حبيب يُغير على كتب الناس فيدعيها ويسقط اسماءهم منها (١)».

٣ ـ تصحيف عناوين بعض مؤلفات حبيش وضبطها غلطاً باسم خاله حنين

في منتصف القرن الثالث للهجرة اشتهر حُبَيش الاعسم ابن اخت الربّان حنين بن اسحق (+ ٨٧٦ م) بنقوله الكثيرة من اللسانين اليونانيّ والسريانيّ الى اللسان العربي . غير ان الغرّ من قراء كتب حُبَيش ظنوها لحنين فصحفوها ونسبوها اليه جهلاً او عمداً (٢) .

ولما كانت الحروف العربية في عصر حنين وحُبَيش تكتب مهملة دون نقاط كان تصحيف الاسمين سهلاً . لاننا اذا جرّدنا النقاط عن لفظَي «حس» و «حس» لمحنا بينهما تشابهاً محسوساً ملموساً يدعو الى الالتباس .

٤ ـ انتحال الحسن البناء كتب سميه الحسن النيسابوري

وحدّث ابو العز بن كادش عن الحسن بن احمد بن عبدالله البناء (٣٩٦-٤٧١ ﻫ) انه اخذ كتب سميه الحسن ابن احمد بن عبدالله النيسابوريّ وانتحلها لنفسه . فكان البناء يكشط حروف «بوري» من آخر لفظة «النيسابوري» ثم يمحو السين ويتصرف

(١) بغية الوعاة : صفحة ٢٩-٣٠
(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٥٢-٢٥٣

في بقية حروف اللفظة حتى تصبح «البنا» بدلاً من «النيسا» . وهذا نوعٌ آخر من تحريف الكتب . وكان ذلك من السهل لان العرب لم يتعودوا تنقيط الحروف في اول عهد كتابتهم كما قلنا .

وقد جمع احدهم ضروب العيث بالمخطوطات فاشار الى افسادها وتصحيفها وتحريفها وتغييرها قال :

فكم أفسد الراوي كلاماً بنقلهِ وكم صحف الاقوال قومٌ وحرّفوا
وكم ناسخٍ اضحى لمعنىً مغيراً وجاء بشيء لم يُرِدهُ المصّنِفُ

٥ ـ امانة المؤلفين الثقات وحرمتهم للكتب ومصنفيها

وبعكس من سبق ذكرهم فقد اثبت التاريخ اخبار فئة من القوم يُشكرون لصدقهم في كتاباتهم واحاديثهم ويُحمدون على اجلالهم للكتب . روى ابو سعد السكري عن لسان بعض من يوثق بكلامهم ان اسمعيل الصابوني المتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة قال : « ما رويت خبراً ولا خلفت في مجلس اثراً الا وعندي اسناده . وما دخلت بيت الكتب قطّ الا على طهارة (١) » .

ولو توخينا تدوين كل ما عرفناه واطلعنا عليه في هذا الصدد لتوفرت لدينا المواد وتجاوزنا خطة الايجاز التي سلكناها في مؤلفنا . فاكتفينا بالالماع الى ذلك حذراً من ملل القراء .

---

(١) تاريخ ابن عساكر : جزء ٣ صفحة ٣١

الفصل الرابع

تصرف بعض الرهبان في مكتبات الاديار

١ - عيث الرهبان في مكتبة دير السيدة بوادي النطرون

يرتقي عهد بنيان دير السيدة الى القرن السادس للميلاد . أسسه الرهبان السريان في وادي النطرون بمصر قبل السنة ٦٠٠ ميلادية . يؤيد ذلك مخطوط نسخ في هذا الدير عينه عام ٦٠٣ م (١) . ومنذ ذلك العهد كان فريق من رهبانه يكبّون وقت الفراغ على نساخة الكتب ويضمونها الى مكتبة الدير حتى صار فيها عدد غير يسير من ذخائر المخطوطات .

وفي السنة ٩٢٧ م اضطر موسى النصيبيني رئيس دير السيدة ان يرتحل الى بلاد المشرق ليجمع حسنات المؤمنين ويعود فيستفك ديره من الرهائن . وتوفق حين رحلته فاحرز كمية وافرة من المخطوطات القديمة اغنى بها مكتبة الدير .

ويستخلص من حواشٍ علقها النساخ على تلك التحف الكتابية ان موسى المشار اليه التقطها من انحاء العراق وما بين النهرين وسوريا وفلسطين . واليك اسماء بعض المدن والقرى التي منها جمعت تلك المخطوطات وهي : تكريت وقرقوش وراس العين وقرقيسيا والرها ومعدن وتل موزل وتل بسم ودنيسر والابراهيمية وطورعبدين والرقة ومرعش وحمص والبقاع وحارستا وتدمر وانطاكية ومن القدس ونابلس وعكا الخ الخ (٢) .

---

(١) راجع فهرس مخطوطات لندن : رقم ٦٧٢
(٢) السريان في القطر المصري : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٧١

ومنذ اوائل القرن التاسع عشر تغلّب الاقباط على هذا الدير الكبير وطردوا منه رهبانه الاصليين وتصرفوا في اطيانه وامتعته ولاسيما في مكتبته الثمينة التي تجمعت فيه منذ قرون عديدة . وجعلوا يبيعون مخطوطاتها بيع السلع فامتلأت منها مكتبات في الغرب والشرق . يتضح ذلك جلياً من فهارس مخطوطات لندن وروما وباريس وبرلين واكسفرد وكمبردج وميلان وغيرها . ولم تخلُ من مخطوطات دير السيّدة مكتبات دير مار مرقس باورشليم ودير الشرفة بلبنان ومكتبة الكلدان بماردين ومكتبة ملطية بارمينيا الصغرى الخ . هكذا اضمحلت وبادت مكتبة دير السيدة بوادي النطرون بعد عزّ دام لها عدة قرون (١) .

٢ - اعتداد كنوز مكتبة صيدنايا كاسقاط المتاع

بين المكتبات الشهيرة التي تفقّدها العلاّمة يوسف شمعون السمعاني ايام جولته في بلاد المشرق عام ١٧١٥ مكتبة دير الشاغورة في صيدنايا بجوار دمشق . وهي المكتبة الثمينة التي اسهبنا الكلام عنها في فصول سابقة .

على ان السمعاني المشار اليه لدى وصوله الى ذلك الدير سأل رئيسه ان يرخّص له في زيارة المكتبة ويدلّه عما يُستطاع اقتناؤه من مخطوطاتها . فأومأ الرئيس الى اكداس من الكتب والكراريس المخطوطة وهي مبعثرة على الحضيض ومختلطة بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل . ولما كان ذلك الرئيس يجهل قيمتها العلمية سمح للسمعاني ان يأخذها . اولاً : ليتخلص من قذارة تلك المخطوطات العتيقة ورثاثتها . ثانياً : لاعتقاده الراسخ انها من سقط المتاع ولا خير في حفظها .

فطفق ذلك البحاثة الخبير يقلّب المخطوطات المذكورة ويتصفحها واحدة فواحدة . فاذا في اكثرها نفائس يجب ان يحرص عليها وان تدّخر في الخزائن . ثم تسلّمها وهو لا يكاد يصدّق ان الرئيس تخلّى له عنها .

---

(١) السريان في القطر المصري : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٤٧-٤٨

تلك المخطوطـات الصيدناوية نُقلت فوراً الى المكتبة الواتكانية وُنظّفت وُجلّدت ونظمت فيها احسن تنظيم . واصبحت منذ ذلك العهد مرجعاً للعلماء والمؤرخين يستفيدون من مطالعتها ويلجأون اليها في ابحاثهم . وناهيك انه لو لم تنقل الى المكتبة الواتيكانيـة لانتابها ما انتاب سائر مخطوطات دير الشاغورة من الحريق والتلف (١) .

٣ ـ نبذ مخطوطات ثمينة في دير سينا وطرحها في الزنابيل

تحدثنا باسهاب عن مكتبة دير طور سينا في الفصل السادس من الباب الخامس. وذكرنا حرص رهبانه على ما احتوته تلك المكتبة من الذخائر العلميـة منذ اقدم الازمنـة . لكنهم لم يسلموا من سهام نقد لاذع رشقهم بها اهل العلم والتاريخ . واليك التفصيل :

في اواسط القرن التاسع عشر يمّم دير سينا سائح انكليزي . وشاهد في زواياه عدة زنابيل مملوءة بمخطوطات عتيقـة واوراقاً مبعثرة غلب على اذهان الرهبان انها خالية من كل فائدة . فافرزوها من سائر المخطوطات والقوها في تلك الزنابيل ليستعملوها في شؤونهم الخاصة. وما كاد يطلع السائح على بعض تلك الصحف حتى دهش لخطورة مضامينها . فكتم امرها وتظاهر بقلة الاكتراث لها .

وما عتم ان سأل وكيل الدير زائره عما اذا كان يتوخى مشتراها ووعده بالتساهل في قضيـة السعر . وبعد التردد والتمنع رضي السائح ان يشتري تلك المخطوطات . وتمّ الاتفـاق على سعر كان غالياً في نظر البائع ورخيصاً في نظر المشتري .

وبعد رجوع السائح الانكليزي الى وطنه درت ادارة المتحف البريطاني بأمر المخطوطات التي استحضرها من دير سيناء . فدرستها درساً دقيقاً ثم ابتاعتها كلها بما

---

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١١٧-١١٨

يساوي قيمتها الحقيقية لا كما اشتراها السائح . ومن تلك المخطوطات ما اقتنته ادارة المتحف المذكور بما يعادل ثقله ذهباً .

ولم يمض ربع قرن على هذا الحادث حتى تنبه المستشرق تيشندورف Tishendorf الالماني لِما جرى للسائح الانكليزي المشار اليه . فارتحل الى دير سينا وتعهد مكتبته ووقف على مكنوناتها القديمة . ووقع نظره حين ذلك على زنبيل ملقى في زاوية المكتبة حشدت فيه اوراق مبعثرة دار حابلها على نابلها . فلما قلبها وجد بينها كتابات ثمينة تحوي بحوثاً خطيرة تهم العلماء وهواة الآثار . فما كان منه الا ان ساوم رئيس الدير في مشتراها وابتاعها بسعر غالٍ ونقلها الى بلاده . هكذا انقذ تلك الآثار الثمينة من التَلَف وجعلها في حرزٍ منيع فأدّى بعمله خدمةً جلّى للعلم والعلماء .

٤ ـ تغاضي رهبان دير لويزة عن صيانة مكتبتهم

كانت مكتبة دير لويزة بلبنان تشتمل على طائفة من المخطوطات النفيسة في جملتها نسخة من «الدياطسرون» باللغة العربية . والدياطسرون عنوان لمجموعة الاناجيل الاربعة التي سبكها ططيانس (+ ١٨٠ م) تلميذ يوستينس الفيلسوف (+ ١٦٥ م) سبكاً محكماً في القرن الثاني للميلاد . اذ أفرغ روايات الانجيليين الاربعة في قالب واحد متناسق . ولم يدع آية من آياتهم الا سطرها تباعاً في تلك المجموعة .

وشاع هذا الكتاب وذاع في بلاد المشرق واستعملته الكنائس النصرانية حتى اوائل القرن الخامس للميلاد . فنهض ربولا اسقف الرها (+ ٤٣٥) وجمع نسخه وأحرقها . وسلك مسلكه في ذلك ثئودوريط اسقف قورش (+ ٤٥٧ م) معاصره على ما ذكرنا في غير هذا المحل .

ويقال ان ابا الفرج عبد الله بن الطيب القس النسطوري (+ ١٠٤٣ م) (١) نقل الدياطسرون الى اللغة العربية في القرن الحادي عشر للميلاد . ونشر هذه الترجمة المستشرق شياسكا في رومة عام ١٨٨٨ ثم نشرها ثانية العلامة مرمرجي في المطبعة الكاثوليكية ببيروت عام ١٩٣٥ (٢) .

وقد صانت بعض مكتبات الشرق نسخاً من هذا السفر الخطير نذكر منها مكتبة دير لويزة بجبل لبنان . لكن الاهمال تطرق الى هذه المكتبة فاتلف نفائسها وأتلف معها ذلك المخطوط الثمين . ولم يسلم منه بكرور الايام الا ورقتان فقط يرتقي عهد نساختهما الى السنة ٧٣٢ للهجرة (١٣٣١ م) فعثر عليهما الاب لويس شيخو عام ١٨٨٨ والتقفهما من فوره مبتهجاً بهما ابتهاجه باكتشاف كنز ثمين . واذدخرهما باجلال في المكتبة الشرقية وضمهما الى انفس ذخائرها . ثم نشر عنهما مقالة مزينة بالرسوم مصرحاً بخطورة كتاب الدياطسرون وترجمته العربية (٣) .

٥ ـ اختلاس مخطوطات دير الزعفران وبيعها بأبخس الاثمان

اتخذ بطاركة السريان دير الزعفران مركزاً رسمياً لهم منذ القرن الثاني عشر كما ذكرنا في غير هذا المحل . وقد جعلوا يتنافسون في تعزيز مكتبته بكتب قديمة العهد استحضروها من اطراف البلاد التي دوّخها التتر او احتلها تيمورلنك . واضافوا اليها مخطوطات ثمينة عكف الرهبان على نساختها وقت فراغهم من الدرس وفروض العبادة . هكذا توفرت ثروة تلك المكتبة فلهجت الالسن بنفائسها وذخائرها وضربت الامثال بقدمها وندورتها .

---

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣٣٠

(٢) A. S. Marmardji : Diatessaron de Tatien l'an 1935

(٣) المشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ٩٧-١٠٩

غير ان أمناء تلك المكتبة العظيمة نشّموا منذ القرن الثامن عشر يعيثون فيها ويبعثرون مخطوطاتها . يسوقهم الى ارتكاب تلك الجريمة جهلهم مضامينها او اطماعهم في الربح الخسيس . وقد روى لنا الكثيرون ممن لا يُشك في صدق روايتهم ان رؤساء الدير ووكلاء المكتبة سطوا على انفس مخطوطاتها المنسوخة على الرقوق وباعوها بابخس الاثمان من الاكليروس الكاثوليكي او من المرسلين الاميركيين وغيرهم . ولولا ذلك الاعتداء وتلك الاطماع لظلّت مكتبة دير الزعفران من اغنى مكتبات العالم بلا جدال .

الفصل الخامس

التفجع لما فقدناه من الذخائر الكتابية

اننا نقف عند هذا الحد في بحثنا عن خزائن المخطوطات العربيـة التي دارت عليها الدوائر قديماً وحديثاً . ولو كان ذلك من المصائب المألوفة التي تفتك بالكتب كالعث او الغبار او الرطوبة او النور او قلة النظـافة او طول الاستعمال لهان الامر واعتبرناه حادثاً طبيعيـاً . لكن الحقيقة هي ان تلك المخطوطات ، لتعس اللغة العربية ذهبت ضحية الجهل او الفتن السياسية او الحروب الاهليـة او المنازعات الدينية او المخاصمات الحزبية او الجوائح الطبيعية او سوء الائتمان والسرقات وغير ذلك. وهو نزر منّا اصابها من الكوارث التي ظلت اخبارها مطموسة وسدل عليها الدهر ستاراً ابدياً .

وياليت المورخين القدماء دوّنوا لنا اخبار خزائن الكتب البائدة وكشفوا النقاب عن مصيرها وعن كل ما يتعلق بها . لان هذا الاغفال جعل في تاريخ العرب ثلمة كبيرة لا تسد . ويؤلمنا بل يؤلم كل ابيّ عربي ضياع تلك الثروة العظيمـة التي حسدتنا عليها سائر الشعوب وهيهات ان تعوض في مستقبل الزمان ! وناهيك انه بتقلص ظل تلك المكاتب تقلص ظل العلم في انحاء كثيرة من الامصار شرقاً وغرباً. وقد كان ذلك ذريعة لتفشي الجهل في الناطقين بالضاد اكثر من غيرهم .

واذا شئنا ان نستعرض رزايا المكتبات في عواصم الدول العربيـة وكبريات مدنها تولتنا الكآبة وُصعقنا من هول الفادحة. ولسنا نبالغ في القول انه ما من امة على وجه البسيطة نكبت بذخائرها الكتابية مثل الامة العربية . وحسبنا التاريخ

شاهداً مقنعاً على ما اثبته عن بيت الحكمة ببغداد وعن خزائن الفاطميين بالقاهرة . وعن دار العلم بطرابلس الشام . ومكتبة الجامع الاموي بدمشق . ومكتبة سيف الدولة بحلب . ومكتبتي الجامع الاعظم بالقيروان وتونس . وكتب المالكيين بفاس . ومكتبة الحكمة بمراكش . ومكتبات الهند وبلاد فارس واليمن الخ .

وما سردناه عن مكتبات تلك الحواضر يصدق بحذافيره في مكتبات الرها ونصيبين ودارا وطورعبدين وسعرت وملطية والموصل وتكريت. وقس على ذلك كله مكتبات اديار الشام وانطاكية وفلسطين ووادي النطرون بمصر واديار العراق وسائر الامصار الشرقية . فقد اندثرت على بكرة ابيها واصبحت بعد ذلك المجد اللامع اثراً بعد عين .

وكانت كل مكتبة من تلك المكتبات العامرة تحوي عشرات الالوف من المخطوطات على تعدد المواضيع والابحاث. واذا صحت رواية المؤرخين فان عدد المخطوطات في بعض الخزائن ناهز مئات الالوف بل تجاوزها والله اعلم ! وكيفما كان الامر فان المكتبات العربية بلغت في عصرها الذهبي شأناً رفيعاً لم تبلغه مكتبات بقية الامم شرقاً وغرباً

خاتمة المجلد الثالث

تم الفراغ بحوله تعالى من طبع المجلد الثالث من كتاب « خزائن الكتب العربية في الخافقين » في ٢٠ من كانون الاول سنة ١٩٤٨ . فجاء سفراً قيّماً حوى شوارد الاخبار عن المكتبات العربية قديماً وحديثاً .

اما النبذة التاريخية العائدة لنشأة دار الكتب اللبنانية التي نوهنا بها في المجلد الثاني من هذا الكتاب فقد اعتنت ادارة المكتبة بوضعها ونشرها على حدة تتمة لهذا البحث الجليل وخاتمة لهذا المؤلف الثمين والله الموفق لما فيه خدمة العلم والتاريخ.



خزائن الكتب العربية في الخافقين

المجلد الثالث

صفحة

الباب الرابع عشر المخطوطات العربية والعاملون فيها ٨١٩

الفصل الاول مزايا المخطوطات العربية ونفائسها

١ ـ براعة العرب في اتقان مخطوطاتهم ٨١٩
٢ ـ اهم مزايا المخطوطات العربية ٨٢٠

الفصل الثاني الورّاقة والورّاقون

١ ـ اختلاف اساليب الورّاقة عند الامم القديمة ٨٢٣
٢ ـ صناعة الورّاقة عند العرب ونقلهم اياها الى اوروبا ٨٢٥
٣ ـ تنوع الورّاقة وادوات الكتابة ٨٢٦
٤ ـ مشاهير الورّاقين ٨٢٩

صفحة

٥ ـ القاب خاصة ببعض الورّاقين ٨٣٢
٦ ـ بعض مؤلفات في الورّاقة والكتابة ٨٣٤
٧ ـ اسواق الورّاقة والورّاقين ٨٣٥
٨ ـ تجهيز الادباء لحفاً في منازلهم للورّاقين واهل العلم ٨٣٧

الفصل الثالث مشاهير الخطاطين

١ ـ الخطاطون الاولون واشكال الاقلام القديمة ٨٣٨
٢ ـ ابن مقلة ٨٣٩
٣ ـ إبن البواب ٨٤٠
٤ ـ كبار الخطاطين بعد ابن مقلة وابن البواب ٨٤٢
٥ ـ الخلفاء والملوك المبرزون في جودة الخط ٨٤٤
٦ ـ نوابغ الخطاطين في القرون الاخيرة ٨٤٥
٧ ـ شذرات شعرية في الخط ٨٤٨

الفصل الرابع غرائب الخطاطين والخطاطات

١ ـ الخطاط حسين البيهقي ٨٥٠
٢ ـ الخطاط الفتح بن شحرف الكسي ٨٥٠
٣ ـ الخطاط بي دست ٨٥١
٤ ـ الخطاطة بنت خداوردي ٨٥١
٥ ـ الخطاطة الست نسيم ٨٥٢
٦ ـ الخطاطان محمد الطائي وبديع الزمان الهمذاني ٨٥٢
٧ ـ الخطاط عماد الدين التيرباج ٨٥٣

صفحة

٨ ـ الخطاط ابرهيم الشيباني ٨٥٣

٩ ـ خطاط بلا يد ولا رجل ٨٥٤

١٠ ـ احمد بن محمد الصخري ٨٥٤

الفصل الخامس النساخة والطباعة

اولاً : حرص العرب على صيانة مؤلفات السلف ٨٥٥

ثانياً : اساليب القدماء في ضبط النساخة ٨٥٧

ثالثاً : نشأة الطباعة العربية في الغرب ٨٥٨

رابعاً : ظهور الطباعة العربية وذيوعها في الشرق ٨٦٢

١ ـ بواكير المطابع النصرانية في الشرق ٨٦٢

٢ ـ بواكير المطابع الاسلامية في الشرق ٨٦٣

٣ ـ بواكير المطابع الحجرية في الشرق ٨٦٤

٤ ـ اقامة بطريرك الاقباط مهرجاناً ابتهاجاً بمطبعته ٨٦٦

٥ ـ مطبعة عربية تصدر كتاباً بعشرين لغة ٨٦٧

٦ ـ تقلص ظل المخطوطات العربية بانتشار المطابع ٨٦٧

الفصل السادس مشاهير الكتّاب والنساخ المسلمين والمسلمات

١ ـ نوابغ الكتّاب في القرون الاولى للهجرة ٨٦٨

٢ ـ نوابغ الكتّاب في القرنين السادس والسابع للهجرة ٨٦٩

٣ ـ نوابغ الكتّاب في القرن الثامن فما بعده للهجرة ٨٧١

٤ ـ رؤساء الكتّاب والمكتبيون ٨٧١

٥ ـ اشهر النساخ المسلمين في الازمنة السالفة ٨٧٢
٦ ـ اشهر النساخ المسلمين في الازمنة الحاضرة ٨٧٦
[illegible] ـ اشهر النساء المسلمات الكاتبات ٨٧٨

الفصل السابع مشاهير الكتاب والنساخ النصارى

١ ـ نساخة الكتب في الاديار النصرانية ٨٨٠
٢ ـ نقل مخطوطات ثمينة من تكريت الى اديار مصر ٨٨١
٣ ـ ذكر بعض اديار الشرق وانتشار النساخة والوراقة فيها ٨٨١
٤ ـ وصف انجيل منسوخ بحروف ذهبية ٨٨٢
٥ ـ البطريرك يوحنا برشوشن ونسخه الكتب حين اسفاره ٨٨٣
٦ ـ بعض النساخ في الكنائس والاديرة ٨٨٣
٧ ـ مشاهير النساخ النصارى في سالف الازمنة ٨٨٥
٨ ـ مشاهير النساخ النصارى في القرون الاخيرة ٨٨٨
٩ ـ شهيرات الخطاطات النصرانيات ٨٩٣

الفصل الثامن الضبط والاتقان في نساخة الكتب

١ ـ مزايا اهل الضبط والاتقان في النساخة ٨٩٤
٢ ـ مشاهير اهل الضبط والاتقان في النساخة ٨٩٤

الفصل التاسع التنافس في تأليف الكتب والاستكثار من نسخها

١ ـ تشويق الخلفاء والملوك الى التبسط في العلوم ٨٩٧
٢ ـ استكثار المسلمين نسخ الكتب ٨٩٨

صفحة

٣ ـ استكثار النصارى نسخ الكتب ٩٠٠

الفصل العاشر صناعة التجليد عند العرب

١ ـ اتقان العرب تجليد الكتب وتذهيبها وصنع قماطرها ٩٠٢
٢ ـ مشاهير المجلدين ٩٠٣
٣ ـ اسواق المجلدين ٩٠٥
٤ ـ نقل صناعة التجليد العربية الى اوروبا ٩٠٦
٥ ـ تأثير الفن القبطي في فن التجليد الاسلامي ٩٠٧

الفصل الحادي عشر اشهر اسواق الكتب

١ ـ اقبال العظماء على استنساخ المخطوطات واذدخارها ٩٠٩
٢ ـ اسواق كتب الاندلس ٩١٠
٣ ـ اسواق كتب القاهرة ٩١١
٤ ـ اسواق كتب بغداد والبصرة وسائر مدن الشرق ٩١٢
٥ ـ اسواق كتب الشام ومراكش والقسطنطينية وغيرها ٩١٢

الفصل الثاني عشر تجارة الكتب

١ ـ مشاهير تجار الكتب وسماسرتها ٩١٤
٢ ـ تجار الكتب الجوالون ٩١٦
٣ ـ دلالو الكتب ٩١٦
٤ ـ كساد تجارة الكتب ٩١٧

صفحة

الفصل الثالث عشر عبّاد المخطوطات وعشّاقها

١ ـ صرعى المخطوطات ٩١٨
٢ ـ مناحة الوزير القفطي على مخطوط ينقصه ٩١٨
٣ ـ الشيخ الصفار يدعو في المسجد على حابس كتبه ٩١٩

الفصل الرابع عشر سخط الرهبان والاحبار على سراق مخطوطاتهم

١ ـ الراهب سيسين النسطوري يدعو على سارق كتابه ٩٢٠
٢ ـ مرقص اسقف صيدنايا يدعو على سارق كتبه ٩٢٢
٣ ـ حبيس لبناني يدعو على سارق دير مار شيقون ٩٢٢
٤ ـ مطران ملكي يدعو على سارق كتبه ٩٢٣
٥ ـ بطريرك ملكي يهدد بالحرم سارق كتبه ٩٢٣
٦ ـ مطران ماروني يرشق بالحرم من يسرق مكتبته ٩٢٤
٧ ـ مطران سرياني يهدد من يختلس كتب ديره ٩٢٥
٨ ـ مطران قبطي يدعو على من يسرق او يرهن كتبه ٩٢٥

الفصل الخامس عشر الكتب المستعارة

١ ـ اقوال الشعراء في اعارة الكتب واستعارتها ٩٢٧
٢ ـ استعارة الكتب والمخطوطات بين الدول ٩٢٩
٣ ـ المماطلة بالكتب المستعارة ٩٣٠

الباب الخامس عشر مخطوطات العرب المزوّقة والمصوّرة

نظرة اجمالية في فن التصوير عند المسلمين ٩٣١

صفحة

١ ـ نشأة التصوير عند العرب ٩٣٣
٢ ـ مخطوطات الطب المصوّرة والمزوّقة ٩٣٥
٣ ـ مخطوطات الكيمياء المصوّرة ٩٣٨
٤ ـ المخطوطات اللغوية المصوّرة ٩٣٩
٥ ـ المخطوطات الادبية المصوّرة والمزوّقة ٩٣٩
٦ ـ المخطوطات الدينية المصوّرة والمزوّقة عند النصارى ٩٤٢
٧ ـ المخطوطات الدينية المصورة والمزوقة عند المسلمين ٩٤٧
٨ ـ المخطوطات المصورة والمزوقة في كتب التاريخ والرحلات ٩٤٩
٩ ـ المخطوطات المصورة في العلوم الجغرافية ٩٥١
١٠ ـ المخطوطات المصورة في العلوم الحربية والبحرية ٩٥٢
١١ ـ المخطوطات المصورة في العلوم الصناعية والميكانيكية ٩٥٥
١٢ ـ الصور في مخطوطات النجامة والعلوم السحرية ٩٥٦
١٣ ـ المخطوطات المصورة في الهندسة ٩٥٧
١٤ ـ المخطوطات المصورة في علم النبات ٩٥٨
١٥ ـ المخطوطات المصورة في علم الموسيقى ٩٦٠
١٦ ـ المخطوطات المصورة في علم الفلك ٩٦١
١٧ ـ المخطوطات المصورة في علم الفروسية والصيد والبيطرة ٩٦٤

الباب السادس عشر رزايا الكتب والمكتبات

نظرة اجمالية في رزايا الكتب والمكتبات ٩٦٥

الفصل الاول طمر مكتبة هركولانوم بالبركان

١ ـ مركز مدينة هركولانوم وانطماسها بالحمم البركانية ٩٦٧

صفحة

٢ ـ اكتشاف بقايا مكتبة ارستيد الفيلسوف ٩٦٧

الفصل الثاني اجهاز البرابرة والملوك القدماء على المكتبات

١ ـ احراق نبوخذنصر ملك بابل تواريخ الملوك الاقدمين ٩٦٨
٢ ـ احراق داريوش الفارسي مكتبة آثينا ٩٦٨
٣ ـ احراق الاسكندر الكبير كتب الفرس ٩٦٨
٤ ـ احراق عاهل الصين كتب مملكته ٩٦٩
٥ ـ ابادة البرابرة مكاتب الرومان واليهود والنصارى ٩٦٩
٦ ـ شهادة الكتاب المقدس على المسيحيين باحراقهم كتب السحر ٩٦٩
٧ ـ تأييد عمار البصري احراق النصارى كتب السحر ٩٧٠

الفصل الثالث حريق مكتبات الاسكندرية والقسطنطينية وقيصرية فلسطين ورومة

١ ـ حريق مكتبة المتحف الاسكندري ٩٧١
٢ ـ حريق مكتبة السيرابيوم في الاسكندرية ٩٧١
٣ ـ حريق المكتبتين الملكيتين في القسطنطينية ٩٧٢
٤ ـ حريق مكتبة بمفيل البيروتي في قيصرية فلسطين ٩٧٢
٥ ـ حريق خزائن كتب القيصر في رومة ٩٧٣
٦ ـ احراق كتب تيت ليف في رومة ٩٧٣

الفصل الرابع احراق كتب الآراميين والعبرانيين والوثنيين والمجوس

١ ـ ابادة سلوقس كتب الآراميين في سليق (المدائن) ٩٧٤
٢ ـ احراق انطيوخس كتب العبرانيين ٩٧٤

صفحة

٣ ـ احراق هيرودس كتب القبائل العبرانية ٩٧٥
٤ ـ اتلاف الآراميين المسيحيين كتب اجدادهم الوثنية ٩٧٥
٥ ـ احراق كتب الوثنيين ودفن احدهم دفنة حمار ٩٧٦
٦ ـ طرح الكتب المجوسية في الماء بأمر امير خراسان ٩٧٧

الفصل الخامس اتلاف الكتب النصرانية في العصور الغابرة

١ ـ حرق الكتب الدينية في القرن الرابع للميلاد ٩٧٨
٢ ـ ابادة كتب الذياطسرون في الرها وقورش ٩٧٨
٣ ـ احراق الاريوسيين والنساطرة كتب خصومهم ٩٧٩
٤ ـ احراق السوفسطائيين كتبهم في اخائية ٩٧٩
٥ ـ حرق مخطوطات السريان والارمن في قسطنطينية ٩٧٩
٦ ـ نهب كتب فطريركية النساطرة في بغداد ٩٨٠
٧ ـ نهب نور الدين الوف الكتب من كنيسة نصيبين وغيرها ٩٨٠
٨ ـ نهب الروم للكتب والصلبان من كنائس الرها ٩٨١
٩ ـ اتلاف النساطرة واليعاقبة بعضهم كتب البعض الآخر ٩٨١

الفصل السادس محو كتب الفرس وغيرها واحراق مصاحف القرآن

١ ـ رواية بن خلدون عن محو الخليفة عمر علوم الفرس ٩٨٢
٢ ـ محو عبدالله بن عباس كتاباً بالماء ٩٨٢
٣ ـ احراق الخليفة عثمان بن عفان مصاحف القرآن ٩٨٣

الفصل السابع احراق الفرق الاسلامية بعضها كتب البعض الآخر

١ ـ منازعات اهل السنّة والشيعة وغيرهم ٩٨٤

صفحة

٢ ـ ابتهاج الاندلسيين بحرق الكتب المخطوطة في اعيادهم ٩٨٤
٣ ـ فظائع المالكيين في الاندلس باتلاف كتب مناوئيهم ٩٨٥
٤ ـ احراق كتب المالكيين في فاس ونفاد المخطوطات في الغرب ٩٨٥
٥ ـ اتلاف كتب ابن رشد وغيره ٩٨٦
٦ ـ احراق كتب الركن عبد السلام في رحبة بغداد ٩٨٦

الفصل الثامن ذكر من غسل كتبه

١ ـ ابن ابي الحواري ٩٨٨
٢ ـ ابو غالب شجاع الشيباني ٩٨٨

الفصل التاسع ذكر من دفن كتبه

١ ـ سفيان الثوري ٩٨٩
٢ ـ الامام الشافعي ٩٨٩
٣ ـ محمد بن العلاء ٩٩٠
٤ ـ دفن يوسف بن اسباط كتبه في كهف ٩٩٠

الفصل العاشر احراق بعض المسلمين مكتباتهم

١ ـ احراق ابي عمرو بن العلاء كتبه ٩٩١
٢ ـ احراق كتب ابي حيان التوحيدي ٩٩١
٣ ـ احراق مكتبة ابن لهيعة في مصر ٩٩٢
٤ ـ احراق مكتبة ابن الجعابي في بغداد ٩٩٢
٥ ـ احراق الداراني كتبه في تنور ٩٩٢
٦ ـ وصية السيرافي لولده باحراق كتبه ٩٩٢

صفحة

الفصل الحادي عشر اغراق مكتبات خاصة في انحاء مختلفة

١ ـ غرق كتب ابي الحسن السمسماني ببغداد ٩٩٣
٢ ـ اغراق كتب ابي العباس الانصاري وحرقها في غرناطة ٩٩٣
٣ ـ طرح كتب المبشر بن فاتك في حوض داره ٩٩٤
٤ ـ طرح كتب عبد الصمد التستري في نهر قارون ٩٩٤
٥ ـ طرح كتب عبد الله بن احمد في حوض ماء ٩٩٤

الفصل الثاني عشر رزايا مكتبات بغداد والبصرة

١ ـ احراق خزانة كتب ابي جعفر الطوسي في كرخ بغداد ٩٩٥
٢ ـ احراق طغرل بك مكتبة سابور بن اردشير في بغداد ٩٩٥
٣ ـ احراق بني عامر داري كتب في البصرة ٩٩٦
٤ ـ نهب العرب خزانة كتب القاضي ابي الفرج بالبصرة ٩٩٦

الفصل الثالث عشر تقويض الحاكم بامر الله معابد النصارى واليهود

١ ـ ابعاد النصارى واليهود عن مصر والعيث في معابدهم ومخطوطاتهم وكنوزهم وتدميره مكتباتهم ٩٩٧
٢ ـ هدم ثلاثين الف بيعة والاستيلاء على اوقافها ٩٩٧

الفصل الرابع عشر اتلاف مكتبتي المستنصر الفاطمي وقصر الفاطميين في القاهرة

١ ـ اتخاذ العربان رقوق كتب المستنصر احذية لارجلهم ٩٩٨
٢ ـ رواية الجبرتي عن احتراق تل الكتب في الحطابة ٩٩٨

صفحة

٣ ـ بيع مخطوطات قيمتها مائة الف دينار لوفاء خمسة آلاف دينار ٩٩٩
٤ ـ عبث صلاح الدين بمكتبة الفاطميين و كنوزهم ٩٩٩

الفصل الخامس عشر احراق مكتبة سيف الدولة وانتهاب الخزانة الصوفية في حلب ١٠٠٠

الفصل السادس عشر نكبات مكتبة الجامع الاموي وبعض مكاتب دمشق ١٠٠١

الفصل السابع عشر اتلاف بعض المكتبات في الغزوات الصليبية

١ ـ احراق المصاحف في محراب داؤد بالقدس ١٠٠٣
٢ ـ نكبة مكتبة طرابلس ١٠٠٣
٣ ـ احراق الصليبيين كتب الروم في قسطنطينية ١٠٠٥

الفصل الثامن عشر احراق مصاحف جامع اصبهان ومكتبات اردشير وغزنة وخراسان وبخارا ونيسابور والنجف وغيرها ١٠٠٦

الفصل التاسع عشر انقضاض الصاعقة على مكتبة المسجد الحرام بمكة ١٠٠٨

الفصل العشرون احراق اسماعيل شاه مصاحف اهل السنّة و كتبهم ١٠٠٩

الفصل الحادي والعشرون اجتراف السيول عدة مكتبات واتلافها

١ ـ اجتراف كتب ابن الدهان ببغداد ١٠١٠
٢ ـ اجتراف كتب المسجد الحرام بمكة ١٠١١
٣ ـ اجتراف مكتبة دير الربان هرمزد بجوار الموصل ١٠١١

صفحة

الفصل الثاني والعشرون احراق ابن الآبار البلنسي واحراق كتبه معه ١٠١٢

الفصل الثالث والعشرون اكتساح المغول مكتبات ما بين النهرين والعراق وسوريا وتركستان والهند

١ ـ انقضاض يساور التتري على مكتبات ملطية ١٠١٤
٢ ـ اجهاز هولاكو على مكتبات بغداد حرقاً وغرقاً ١٠١٤
٣ ـ قسط مدينة دمشق من مظالم هولاكو وغازان التتريين ١٠١٥
٤ ـ تحويل مكتبات سمرقند وبخارا والهند الى رماد ١٠١٦
٥ ـ حرق مكتبة ابي الفداء في حماة ١٠١٦

الفصل الرابع والعشرون بيع مكتبة المدرسة الفاضلية بارغفة خبز في اثناء المجاعة بمصر ١٠١٧

الفصل الخامس والعشرون حريق خزانة الكتب في القاهرة ١٠١٨

الفصل السادس والعشرون احراق كتب ابن حزم الاندلسي ١٠١٩

الفصل السابع والعشرون فواجع مكتبات الاندلس والاسكوريال

١ ـ احراق ثمانين الف مخطوط في ساحة غرناطة ١٠٢٠
٢ ـ انقضاض صاعقة على الاسكوريال احرقت قسماً من مخطوطاته ١٠٢٠

الفصل الثامن والعشرون غارات تيمورلنك على مكتبات البلاد الهندية والفارسية والعربية

١ ـ محو تيمورلنك جميع المكتبات في ما دوخه من الاقطار ١٠٢١

صفحة

٢ ـ غارة تيمورلنك على ملة الصابئة ١٠٢١
٣ ـ تخريب مكتبات طورعبدين وانتحاب اشعيا الباسبريني عليها ١٠٢٢
٤ ـ حرق تيمورلنك كتب مدرستي العادلية والقضائية بدمشق ١٠٢٢

الفصل التاسع والعشرون اساءة الاسبانيين والبرتغاليين والافرنسيين الى العلم وحرية الاديان

١ ـ نهب الاسبانيين مكتبة الجامع الاعظم بتونس ١٠٢٣
٢ـ اتلاف الاسبانيين كتب سكان المكسيك القدماء وسجلاتهم ١٠٢٣
٣ ـ احراق مطران غوا البرتغالي كتب النساطرة الملباريين ١٠٢٤
٤ ـ احراق كتب اليهود والبروتستان في شوارع باريس ١٠٢٥

الفصل الثلاثون مصائب مكتبات انكلترا

١ ـ احراق مكتبة اوكسفرد وغيرها ١٠٢٦
٢ ـ تصرّف البدالين والمجلدين في مخطوطات الاديار ١٠٢٦
٣ ـ اجتياح مكتبات جمّة في حريق لندن ١٠٢٧
٤ ـ احتراق مكتبات غوطون ١٠٢٧

الفصل الحادي والثلاثون اغراق مخطوطات في الانهار والبحار والآبار

١ ـ اغراق داود الطائي كتبه في الفرات ١٠٢٨
٢ ـ تغريق هولاكو خزائن كتب بغداد في دجلة ١٠٢٩
٣ ـ غرق مصحف الخليفة عثمان في البحر ١٠٢٩
٤ ـ نقل كتب الطريحي وطرحها في البحر ١٠٣٠
٥ ـ فقدان سفينتي مخطوطات للسمعاني في النيل ١٠٣٠

صفحة

٦ ـ غرق مكتبة عظيمة شحنت من الصين الى انكلترا ١٠٣١
٧ ـ اغراق القرصان ثلاث سفن شحنت كتباً من البندقية الى لندن ١٠٣١
٨ ـ القاء كتب عبد العزيز النجفي في البحر وفي الآبار ١٠٣٢
٩ ـ طرح كتب في بئر كنيسة الموصل ١٠٣٢

الفصل الثاني والثلاثون غارة الجزار على مكتبات جبل عامل ١٠٣٣

الفصل الثالث والثلاثون غائلة مخطوطات صيدنايا

١ ـ مكتبة دير الشاغورة واقدام البطريرك متوديوس على احراق مخطوطاتها ١٠٣٤
٢ ـ اتخاذ مخطوطات المكتبة وقيداً في تنور الدير اربعة ايام ١٠٣٤

الفصل الرابع والثلاثون اندثار مخطوطات ثمينة ومدارج قديمة في مصر

١ ـ تبعثر مكتبة جامع ازبك بن ططخ بين الانقاض ١٠٣٦
٢ ـ احراق الفلاحين خمسين مدرجة قديمة ليشموا طيب رائحتها ١٠٣٦

الفصل الخامس والثلاثون رزايا مكتبات النصارى في سوريا ولبنان

١ ـ نظرة اجمالية ١٠٣٧
٢ ـ خسارة كتب جمة في ثورة لبنان عام ١٨٤٠ ١٠٣٧
٣ ـ نهب كتب دير مار افرام الرغم عام ١٨٤١ ١٠٣٧
٤ ـ حريق مكتبتي الروم الكاثوليك والسريان في حلب عام ١٨٥٠ ١٠٣٨
٥ ـ تلف مكتبات المسيحيين بدمشق عام ١٨٦٠ ١٠٣٩
٦ ـ حرق مخطوطات اديار زحلة ونهب بعضها عام ١٨٦٠ ١٠٤٠

صفحة

الفصل السادس والثلاثون جوائح مكتبات بلاد ما بين النهرين ١٨٩٥ و ١٩١٥

١ ـ جائحة مكتبة سعرت ١٠٤١
٢ ـ جوائح مكتبات طورعبدين وغيرها ١٠٤٢

الفصل السابع والثلاثون اشهر رزايا المكتبات في ايطاليا

١ ـ حرق اثني عشر الف مخطوط في كريمون ١٠٤٣
٢ ـ احتراق مكتبات تورينو ١٠٤٣
٣ ـ تدمير مكتبة دير كاسينو ١٠٤٣

الفصل الثامن والثلاثون تدمير الالمان مكتبات شتى في محاربتهم جيرانهم
١ ـ تخريب الالمان مكتبة ستراسبورغ في فرنسا ١٠٤٤
٢ ـ تهديم الالمان مكتبة كلية لوفان في بلجيكا ١٠٤٤
٣ ـ اكتساح الالمان مكتبات شمال فرنسا ١٠٤٥
٤ ـ غارات الالمان على مكتبات انكلترا ١٠٤٥

الفصل التاسع والثلاثون فظائع الشيوعيين في مكتبات اسبانيا

١ ـ احراق عدة مكتبات وسلب كتب وافرة من اديار الرهبان ١٠٤٦
٢ ـ نهب جامعة كوميلاس وتشتت كتبها ومخطوطاتها ١٠٤٦
٣ ـ اعتداء الشيوعيين على دير مونسرات ١٠٤٧
٤ ـ احصاء النوازل الكتابية في الحرب الاسبانية ١٠٤٧

الفصل الاربعون احتراق مكتبة مرينتال في انكلترا ١٠٤٨

صفحة

الفصل الحادي والاربعون الاجهاز على الكتب بعد الحرب العظمى

١ ـ تواطوء البلاشفة على احراق الكتب المتعلقة بالقياصرة ١٠٤٩
٢ ـ تجميع مصنفات اليهود من انحاء المانيا والنمسا وسحقها ١٠٤٩
٣ ـ اعتداء النازيين على مكتبة كردينال فينا ١٠٥٠
٤ ـ اجهاز الاتراك على الكتب التركية ذات الصبغة العربية ١٠٥٠

الفصل الثاني والاربعون نكبة مكتبة بطريركية الفنار في اسطنبول ١٠٥١

الباب السابع عشر النوازل الادبية بالمكتبات والكتب

الفصل الاول اعداء الكتب والمكتبات ١٠٥٢

الفصل الثاني لصوص الكتب والمكتبات

١ ـ خيانة بعض قوام المكتبات ١٠٥٤
٢ ـ سرقة مكتبات تونس ١٠٥٤
٣ ـ سرقة كتب ابي الغنائم الشيباني الضرير ١٠٥٥
٤ ـ استباحة الخشاب النحوي كتب الناس ١٠٥٥
٥ ـ اختلاس كتب الدينوري ١٠٥٦
٦ ـ احمد بن سيد الاشبيلي الملقب باللص ١٠٥٦
٧ ـ ابو عبد الله السعيدي المعروف بلقب «مزبلة العلم» ١٠٥٧
٨ ـ انتحال السيوطي لنفسه بعض تصانيف غيره ١٠٥٧
٩ ـ سرقة مكتبتي القرصانية والاحمدية بحلب ١٠٥٨
١٠ ـ سرقة مكتبات بلاد الشام ١٠٥٩

صفحة

الفصل الثالث العيث في الكتب المخطوطة وتحريفها

١ ـ تصدي بعض الكتاب لتحريف الكتب ١٠٦٠
٢ ـ تحريف ابن حبيب كتب المؤلفين وابداله اسماءهم باسمه ١٠٦٠
٣ ـ تصحيف عناوين بعض مؤلفات حبيش باسم حنين ١٠٦١
٤ ـ انتحال الحسن البناء كتب الحسن النيسابوري ١٠٦١
٥ ـ امانة المؤلفين الثقات وحرمتهم للكتب ومصنفيها ١٠٦٢

الفصل الرابع تصرف بعض الرهبان في مكتبات الاديار

١ ـ عيث الرهبان في مكتبة دير السيدة بوادي النطرون ١٠٦٣
٢ ـ اعتداد كنوز مكتبة صيدنايا كاسقاط المتاع ١٠٦٤
٣ ـ نبذ مخطوطات ثمينة في دير سينا وطرحها في الزنابيل ١٠٦٥
٤ ـ تغاضي رهبان دير لويزة عن صيانة مكتبتهم ١٠٦٦
٥ ـ اختلاس مخطوطات دير الزعفران وبيعها بابخس الاثمان ١٠٦٧

الفصل الخامس التفجّع لما فقدناه من الذخائر الكتابية ١٠٦٩

خاتمة المجلد الثالث ١٠٧١

فهرس المجلد الثالث من خزائن الكتب العربية في الخافقين ١٠٧٢

وَقَفَ عَلَى طَبْعِهِ
منير الياس وهبه
القائم باعمال دائرة التدريس والتنسيق بدار الكتب